سلسلة المؤلفات العلمية (٤٦)

إصداراتنا الرقمية (٢٠٩)

غاية المطلوب في أمراض القلوب

ومقاماتها وأحوالها

للأستاذ الدكتور

صلاح محمد أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

بجامعة العلوم الإسلامية العالمية

عمان – الأردن



مركز أنوار العلماء للدراسات



غاية المطلوب في أمراض ....
....القلوب ومقاماتها وأحوالها

الطبعة الأولى

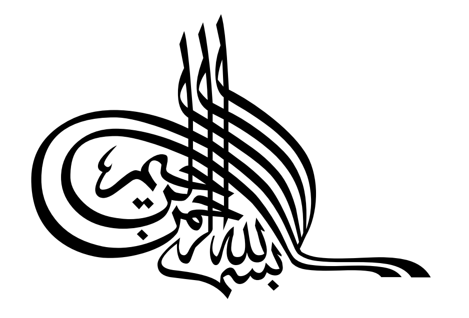
١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م

غاية المطلوب

في أمراض القلوب ومقاماتها وأحوالها

للأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمان، الأردن

مركز أنوار العلماء للدراسات


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أَجمعين، ومَن سار على دَربه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

إن الارتقاء بالسلوك الإنساني لها مناهج متعددة، وطرق مختلفة، تسابق فيها المتسابقون من أجل السمو الأخلاقي والتربوي لدى البشر، وليس المقام يتسع لتفصيل ذلك، وإنما نقتصر على ذكر نموذج أخلاقي شاع الاهتمام به استئناساً بالكتاب والسنة، من ذلك ما ذكره الراغب الأصفهاني، فقال[1]: «الخيرات يترقى فيها فيبلغ إلى أشرف المنازل بأربع درجات، وينحدر عنها فيبلغ إلى أرذل المنازل بأربع درجات.

فأما درجات الارتقاء:

فأولاها: أن يرتدع الإنسان عن المآثم ويهجرها، ويندم عليها، ويعزم على ترك معاودتها، وذلك أول درجة التائبين المطعين لله ورسوله.

---

(١) ينظر: مكارم الأخلاق١١: ١٢٧.

وثانيها: أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه، ويسارع فيها بقدر وسعه، وذلك درجة الصالحين.

وثالثها: أن يتحرىٰ بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفتٍ منه إلىٰ المحظورات بمجاهدة هواه، وإماتة شهواته، وذلك منزلة الشهداء.

ورابعها: أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهرًا وباطنًا بقضاء اللهَّ وقدره فلا يتزعزع تحت حكمه، ولا يتسخط شيئًا من أمره، ويعلم أن اللهً تعالىٰ أولىٰ به من نفسه، وذلك درجة الصديقين.

وهذه المنازل الأربع هي المراد بقوله تعالىٰ: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}.

وأما درجات الانحدار والارتداد عنها:

فأولاها: الكسل عن تحري الخيرات، ويورثه ذلك الزيغ المعني بقوله تعالىٰ: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُّ قُلُوبَهُمْ}.

وثانيها: الغباوة: وهي ترك النظر، وبغض العمل، فيورثه ذلك رينًا علىٰ قلبه، وهو المعني بقوله تعالىٰ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

وثالثها: الوقاحة: وهي أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه، فيورثه ذلك قساوة القلب، كما قال تعالىٰ: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}.

ورابعها: الانهماك في الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه، ويُحسِّنه ويحببه إلى غيره فيورثه ذلك ختمًا على قلبه، وإقفالًا عليه، كما قال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}.

فالكسل سبب الغباوة، والغباوة سبب الوقاحة، والوقاحة سبب الانهماك في الباطل، كما أن الزيغ يوجب الرين، والرين يوجب القساوة، والقساوة توجب الختم والإقفال».

ذكرت هذا الطرح الأخلاقي؛ ليعلم أن هذا التوصيف العام مشابه لما شاع في زماننا عند الكلام عن الأخلاق والسلوكيات والرقي البشري.

وإن أمثال هذه الطروح الأخلاقية آثارها محدود على البشرية بحيث لا ترتقي بالإنسان إلى الكمال الإنساني، وإنما تصحح سلوكه بقدر يتميز به عن الآخرين لكنه لا يزيد عن أعشار بالمئة حقيقة.

وإن النموذج السني المتبع في ذلك هو التزكية الكاملة للإنسان من خلال علم التصوف بطرقه المختلفة، فإنه يخوص في الحقيقة الإنسانية، ويصل إلى أساس الانحرافات البشرية، ويقف مع عللها؛ ليعالجها من أصلها.

وقد سارت الأمة عبر تاريخها في كافة طبقاتها بهذا الطريق العلمي لمواجهة الانحدار السلوكي للأفراد، فنجد أن عامة علمائنا كانوا يتبعون طرقاً صوفية لتربية أنفسهم.

وهذا الاتجاه التزكوي العلمي يتميَّز بأمرين:

١ .الجانب النظري، وهو التعمق في معرفة حقيقة الإنسان، والبحث في سبب سلوكه الخاطئ، بالاعتماد على الوحي من كتاب وسنة، واستفادة من تجربة علماء الأمة في كافة طبقاتها، بحيث تراكمت حصيلة علمية وتجربة وخبرة لا مثيل لها في معرفة العيوب وكيفية علاجها.

٢ .الجانب العملي، وهو الأخذ بيد المريد من خلال شيخ مربي، يتدرج معه من مرتبة إلى أُخرى، فيخلصه من كلِّ أَمراضه الباطنية، ويُحليه بكل المقامات القلبية بتؤدة وصبر يستمر لسنوات عمره، فلا تنتهي الصحبة إلا بالموت.

وهذه المنهجية أثبتت صدقها بحيث كوَّنت علماً تربوياً يرتقي ويرتفع بصاحبه إلا أعلى الكمالات الإنسانية.

وإن الحديث عن القلب وما يتعلق به، هو حديث عن أساس كلِّ السلوكيات والأخلاقيات البشرية؛ لأنها مردها في قبحها إلى أمراض قلبية، وفي حسنها إلى مقامات وأحوال قلبية.

فتغيير السلوك البشري إلى الأحسن يكون بمعالجة آفات القلوب واستبدالها بالمقامات المحمودة له.

وبالتالي يكون بحثنا في غاية الدقة في معالجة السلوك البشري والارتقاء به؛ لأننا نظرنا إلى علل هذه الأخلاق وأسبابها وعالجناها من خلالها.

فكان المنهج المتبع في جمع مادة هذا الكتاب هو الاعتماد على كتب أهل الفنّ من أعلام أهل التزكية، وأبرز من خاض بحار أمراض القلوب وفصَّل

الكلام فيها هو الإمام الغزالي، فكانت عامّة الأبحاث معتمدة على كلامه بعد أن تمّ اختصاره وتهذيب وترتيبه، وأُضيف إليه كلام البركلي والخادمي والطوسي وابن عجيبة والشهروردي والقشيري وغيرهم من الأعلام.

فكان عملي فيها الجمع والترتيب والتهذيب وحسن العرض لجمع مادة علمية متكاملة في الموضوع يَسهل على القارئ فهمها والانتفاع بها، فقسمته على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مقدمات قلبية، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: في معنى القلب ومكانته.

والمبحث الثاني: في أصول القلب وصفاته ووظائفه.

والمبحث الثالث: في تقلب القلب وطرق الشيطان إليه.

والمبحث الرابع: في المراتب والأحكام والموانع القلبية.

والمبحث الخامس: في علامات الأمراض وطرق معرفتها ومعالجتها.

والفصل الثاني: في أمراض القلوب، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: في حب الدنيا وإخوانه.

والمبحث الثاني: في الكبر وإخوانه.

والمبحث الثالث في الغضب وإخوانه.

والمبحث الرابع: في الهوى وإخوانه.

والفصل الثالث: في مقامات وأحوال القلب، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: في معنى الحال والمقام.

والمبحث الثاني: في التوبة والورع.

والمبحث الثالث: في الرجاء والخوف.

والمبحث الرابع: في الزهد والفقر.

والمبحث الخامس: في الصبر والشكر.

والمبحث السادس: في التوكل والرضا.

والمبحث السابع: في المراقبة والمحاسبة والمحبة.

وسميت هذا الكتاب:

«غاية المطلوب في أمراض القلوب ومقاماتها وأحولها»

مع اعترافي بالتقصير في كلِّ عملي؛ لأنّ لأهل هذا العلم رجاله الأحق بتحريره وتنقيحه، ولكن الحاجة الماسة لجمع مادة تنفع الطلبة في كليتنا جرأني على دخول هذا الأمر؛ لأنه لم يكن سبيل لغيره، فأرجو من الله تعالى أن يعفو عنا، وأن يفتح علينا فتوح العارفين، وأن يعلمنا ما جهلنا.

وإن طعمي بأن يرزقنا الله تعالى علم هؤلاء الأكابر جعلنا أشتغل أيام عديدة وأسابيع مديدة في جمع فصول ومباحث هذا السفر، فينعكس علمهم ومعرفتهم حالاً علينا توصلنا إلى عمل وصلاح في الدين.

والله تعالى أسال أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم، وأن يرزقنا القبول، وأن يغفر لنا خطايانا، وأن يرحم أهلنا ويتجاوز عنهم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الأستاذ الدكتور صلاح أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن

بتاريخ ٢ـ ٣ـ ٢٠٢٢م

في عمان، صويلح

الفصل الأول
مقدمات قلبية

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: معنى القلب ومكانته.

المبحث الثاني: أصول القلب وصفاته ووظائفه.

المبحث الثالث: تقلب القلب وطرق الشيطان إليه.

المبحث الرابع: المراتب والأحكام والموانع القلبية.

المبحث الخامس: علامات الأمراض وطرق معرفتها ومعالجتها.

تمهيد:

إن الكلام في القلب له تشعبات وتفرعات لا يمكن حصرها ولا إداركها، وفي هذا المقام نركز علىٰ ما لا بدّ منه فيها، بحيث يظهر لنا حقيقة هذا القلب والمكانة التي عليها، والأهمية البالغة له؛ لأن الكلام عن القلب كلام عن أهمٍّ شيء لدىٰ الإنسان؛ لأنه يتفرع عنه سائر السلوكيات والتصرفات والأخلاقيات الإنسانية، وبصلاحه سيكون صلاح للإنسان، وصلاح للبشرية.

لذلك نجد علماء الإسلام الكبار ركزوا واهتموا بالقلب، وأعطوه حقه من العناية، فكتبوا ما لا يحصىٰ من الصفحات فيه، وألفوا آلاف الكتب فيه، كلّ هذا لوظيفته ودوره التي هي سبب وجود الإنسان في الدنيا، وطريقه لتحصيل الآخرة.

فالأعمال الظاهر هي آثار لأمراض القلوب وأحواله، وعلاج هذه التصرّفات الظاهرة باقتلاع سببها النابع من القلب، وإن كان يحتاج إلىٰ جهد وصبر؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لتحصيل السلامة في سلوكياتنا، والتخلص من رذائل أعمالنا.

قال الغزالي: «وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشرّ بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب، وإنما فزع الأكثرون إلىٰ

الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب؛ لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة، فلا يزال يتعب في الطلاء، ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض، فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة، وعلاجها على ما فصلناه في ربع المهلكات ـ أي من «إحياء علم الدين»، ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود»[1].

وقد وقع الناس في غفلةٍ كبيرةٍ في هذا الزمان في الإعراض عن العناية بالقلوب وأحوالها ومقاماتها، ولم يعد يعرفه إلا خاصّة الخاصة، مع فرضية الحاجة لها وعدم الغنى عنه، فأصبحوا يعيشون في تيه شديدٍ، وضياع لا نهاية، بدون الوصول إلى أسباب تعاستهم وطرق علاجها، فكانت الضرورة للالتفات لهذا العلم الشريف.

قال الغزالي: «العناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة؛ لأنّ القلب هو الساعي إلى قرب الله تعالى، وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد، وقيل: هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق، ويرون أنَّ التَّحقيق في دقائق المجادلات»[2].

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٣٩.

(٢) ينظر: الإحياء١: ٧٨.

ووقوفاً بنا على ما يتعلق بمعنى القلب ومكانته وأصوله وأعماله ووظائفه ومراتبه الإيمان فيه ومداخل الشيطان له وحكم أعماله وأصناف الوساوس له وتقلبات القلب وعلامات أمراضه وطرق معرفة عيوبه وطرق معالجته وغيرها فإنه يحسن بنا بمقدمات فيما يتعلق للقلب في هذا الفصل، قبل الولوج في الفصل الثاني المتعلق بالأمرض للقلب، والفصل الثالث المتعلق بمقامات وأحوال القلوب؛ ليتحقق لنا الفهم الصحيح في التعامل القلب؛ حتى يقومه بوظيفته وعمله على أكمل ما يكون مما يكون سبب في سعادتنا الدنيوية والأخروية وليس في شقاوتنا.

فإن المعرفة الصحيحة هي الأساس في العمل والحال، فلا يتيسر العمل بلا علم سليم، ولا يظهر الحال بلا تصور واضح للعلم، وهذا ما نبَّه عليه الغزالي في مواضع عديدة من «إحيائه».

فقال في بداية كلامه عن الصبر: «الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور معارف وأحوال وأعمال، فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال»[1].

وقال في بداية الزهد: «الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات؛ لأن

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٦٢.

أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل»[١].

وقال في بداية الشكر: «الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان»[٢].

فالمعرفة الصحيحة هي الأساس لما بعدها من عمل وحال، وهما متفرعان عنها، وكلَّما اجتهدنا في تحصيل العلم السُّني الطَّاهر كلما تيسر لنا العمل به، فظهر حاله علينا؛ لأنه الثمرةُ اليانعة لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فنسأل تعالى أن يفتح علينا في هذا الكتاب بالفهم السَّليم والعلم الصافي؛ ليتحقَّق النفع به للمسلمين.

قال الغزالي[٣]: «أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فإن القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله تعالى لا تدخلها المعرفة بحلال الله تعالى».

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢١٦.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٨١.

(٣) ينظر: في الإحياء٣: ٩.

المبحث الأول
معنى القلب ومكانته

نعرض في هذا المبحث لمعنى القلب ومكانته في مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول: معنى القلب:

لكلٍّ منا حال حقيقية، وهي متمثلةٌ بالجسدِ وجوارحه المعروفة، وهذا ظاهرةٌ بيِّنة للعيان يُمكن إدراكُها لكلِّ أحدٍ، وحالٌ معنويةٌ خفيّةٌ لا يُدركُ حقيقتَها ولا يقفُ على أحوالها إلا أصحاب البصيرة من العلماء الشرعيين؛ لعدم مشاهدتها بالعيان وخفائها.

وهي في الحقيقةِ الأحقُّ بالاهتمام؛ لأنها المالكةُ والمتحكمةُ بالجسد وتصرفاته، فمن الرُّوح مثلاً يكون بها الحياة، وبدونها يُصبح الإنسان ميتاً وإن وجدت كلُّ أعضائه، فلم يَعُد لها قيمةٌ بلا روح، ومن القلب المعنوي توجد سائر الرغبات من الحبِّ والكره والغضب والحلم وغيرها التي تظهر آثارها على الجوارح، ومن النفس تكمون سائر الشهوات التي يحققها سائر الأطراف من النَّظر والسَّمع والشَّم والأكل والشرب والجماع وغيرها.

فالجسدُ الظاهرُ لكلٍّ منا ما هو إلا أداةٌ وآلةٌ للحال الباطن، وهذا ما نبَّه

عليه علماء الإسلام بالعناية بالروح والقلب والنفس والعقل، وهي أمورٌ معنوية لا حقيقة تمثل الجانب الباطن لكلِّ منا، ويُطلق كلٌّ منها على الآخر إجمالاً، ويُمكن أن يُعبَّر بها يوافقه من نسبة الشهوات للنفس، والأخلاق للقلب، والروحانيات للروح والتعقل للعقل.

والمهم في ذلك هو إدراك جانب باطن لكلٍّ منا، علينا الاعتناءُ به ومعرفة أحواله وكيفية علاج أمراضه، بحيث يصبح لنا لا علينا، لا سيما أنه هو الأساس، وهو الحقيقة الصادقة للإنسان بغض النظر عن التسميات له من روح وقلب وعقل ونفس.

قال الغزالي(١): «إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الإيماني: أن للإنسان بدناً وقلباً، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٩]، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[الأحزاب:١٢]، وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى، داؤه الممرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي، وأنه لا سبيل إلى معالجة البدن إلا

---

(١) في المنقذ من الضلال ص١٨٩.

بذلك.

وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، فكذلك بان لي، على الضرورة بأن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة، لا ببضاعة العقل.

وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سرّ هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، ولا يخلو عن سر إلهي فيها، يقتضيها بطريق الخاصية.

وكما أنّ في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات، وعلى الجملة: فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب».

فعلى العقلاء أن يلتفتوا لمعالجة باطنهم؛ لأنها السبب الأقوى في عامة مشاكلهم الظاهره، لا أن يهتموا بمعالجة ظواهرهم، مع بقاء علل أمراضهم الباطنة، قال الغَزاليُّ[1]: «الأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس

---

(١) في الإحياء٣: ٤٩٩.

إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد، ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان، وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب، وفي مرضها فوت حياة باقية أولى.

وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب؛ إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩]، وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:١٠]».

أولاً: المعنى اللغوي والاصلاحي للقلب:

ولا بدّ أن نقف بإيجاز معنى القلب ومتعلّقاته؛ ليتضح المقال فيه، وقد بيَّنها الدكتور معاذ حوى، فقال:

«ولما كان الفؤاد اسماً للقلب، يرادفه أو يختلف عنه قليلاً أو يتقاطعان، فإنا نبين تعريفه معه لغة.

القَلْبُ: الفُؤاد، وهو لَحْمَة صنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر متصلة بالجسد بشرايين يسري فيها الدَّم الذي يضخه القلب إلى سائر الجسم وهذا القلب الحسي، ويطلق القلب لغة على القلب المعنوي.

ويرى بعض اللغويين أن القلب والفؤاد بمعنى واحد، ويرى بعضهم

أن أحدهما أخص من الآخر، «قال الأزهري: ورأَيت بعضَ العرب يُسَمِّي لحمةَ القَلْبِ كُلها، شَحْمَها وحِجابَها: قَلْباً وفُؤاداً، قال: ولم أَرهم يَفْرِقُونَ بينهما؛ قال: ولا أُنْكِر أَن يكون القَلْبُ هي العَلَقة السوداءُ في جوفه».

وقال ابن منظور: «وَرُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «أَتاكم أَهل اليَمن، هم أَرَقُّ قلوباً، وأَلْيَنُ أَفئدةً»، فوَصَفَ القلوبَ بالرِّقة، والأَفْئِدَة باللِّين، وكأَنَّ القَلْبَ أَخَصُّ من الفؤَاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أَصَبْتُ حَبَّةَ قلبه، وسُوَيْداءَ قلبه».

وربما يكون القلب بمعنى الفؤاد تماماً، لكن النبي ﷺ وزع الأوصاف إليهما، على سبيل الترادف والتنويع في الكلام، لا على سبيل الافتراق، وقال بعض العلماء: «الفؤاد كالقلب، لكن يُقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي: التوقد يقال: فأدت اللحم: شويته ولحم فئيد: مشوي».

وأصل القَلْبِ في اللغة: تَحْويلُ الشيءِ عن وجهه، قَلَبه يَقْلِبُه قَلْباً، قال تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾[التوبة:٤٨]، والجمع: قُلوب وأَقْلُب، وقلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثوب وقلب الإنسان أي: صرفه عن طريقته، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[العنكبوت:٢١] ، والانقلاب: الانصراف، قال: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً ﴾[آل عمران:١٤٤]، وقيل: سمي القلب قلباً لكثرة تقلبه.

وتقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال نحو: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾[الأحزاب:٦٦] وتقليب الأمور: تدبيرها والنظر فيها قال: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ

الْأُمُورَ﴾ [التوبة:٤٨]، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:١١٠].

والقلب اصطلاحاً: يأتي بمعانيه اللغوية، فيطلق على تلك المضغة المعروفة، ويطلق على ما يحصل من إدراك وتعقل في تلك المضغة، ومن تعاريفه:

ـ «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهي المدرِك والعالِم من الإنسان والمخاطَب والمطالَب والمعاتَب»(١).

ـ «لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلّقٌ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني.

وقد تحيَّرت عقولُ أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإنّ تعلَّقه به يُضاهي تعلُّق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلُّق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان، والغرض ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها»(٢).

قال الدكتور معاذ حوى: «وقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة... القلب» يدل على أن القلب المعنوي هو في القلب المادي الجسمي المسمى

---

(١) انتهى النقل من التزكية على منهاج النبوة للدكتور معاذ باختصار.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٣.

بالمضغة.

ومن خلال استعراض النصوص الكتاب والسنة الواردة في القلب؛ لا يَبْعُدُ أن يكون القلب قد أطلق على أمرين:

أ.القلب المتعلق بالقلب الحسي.

ب.الأمور المعنوية غير الحسية التي تكون في باطن الإنسان، ولا تظهر، فيكون القلب شاملاً للخواطر والانفعالات النفسية والرغبات والإرادة والنية، وشاملاً للعقل وأعماله من تعقل وتفكر وتذكر وتدبر، وشاملاً للروح، يشمل كل ذلك حقيقة لا مجازاً، على هذا المعنى.

أما ما يُظهِر هذه الأمور من أقوال وأعمال فهو غير القلب، فالأقوال والأعمال تدخل في الحس والظاهر، بالإضافة إلى ما يُرى من الإنسان من جسمه الظاهر.

وهذا الفهم ليس بعيداً عن معاني اللغة، فقلب الشيء يطلق على داخله الذي يخفى وراء ظاهره، فيكون بمعنى الباطن، لكن القلب الذي نتكلم عنه مختص بالأمور المعنوية»[1].

ثانياً: ألفاظ ذات صلة:

نحتاج لمعرفة معنى النفس والعقل لاشتراك هذه الأسماء وكثر

---

(١) انتهى من التزكية على منهاج النبوة.

استخدامها وتداخل شيء من معانيها مع معنى القلب، قال الغزالي[1]: «اعلم أن هذه الأسماء تستعمل في هذه الأبواب، ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة».

وبيان معاني هذه الأسماء ومتعلقاتها على النحو الآتي:

١. النفس:

وهي المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان[2].

قال الغزالي[3]: وهذا المعنى «هو الغالبُ على أهل التصوف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون لا بُدّ من مجاهدة النفس وكسرها».

وقال الدكتور معاذ حوى: «يطلق القلب على ما يحصل فيه التعقل والخواطر والميل والعاطفة والرغبة والهوى والحب والإرادة، وغالباً ما يطلق في علم التزكية على هذا المعنى، لكننا نلاحظ أن كثيراً من علماء التزكية ينسبون هذه العواطف والرغبات والميول إلى القلب إذا كانت متجهة نحو الخير والحق، وينسبونها إلى النفس إذا كانت متجهة نحو الشر والباطل، والنفس هنا ما هي إلا القلب.

---

(١) في الإحياء٣: ٣.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٤.

(٣) في الإحياء٣: ٤.

ولكنه اصطلاح جرى التعامل به عند كثير من علماء التزكية، وليس ذلك بعيداً عن مصطلح الشرع فقد استعملت لفظة النفس للقلب فيه أحياناً، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾[البقرة:٢٨٤]، لكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أن هذا الاصطلاح مُلزِم ومُضطرِد، بل يمكن أن تُنسب معاني الخير والشر إلى النفس، كما يمكن أن تُنسب إلى القلب أيضاً»(١).

وتوصف النَّفس بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها:

أ.إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة، قال الله تعالى في مثلها: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر:٢٨].

ب.إذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة:٢].

ج.إن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[يوسف:٥٣](٢).

---

(١) انتهى من التزكية على منهاج النبوة.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٤.

٢. العقل:

ويُعبَّر بالقَلْب عن العَقْل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]؛ أي عَقْلٌ، وقيل معناه: تَفَهُّمٌ وتَدَبُّرٌ.

فيكون المدرك للعلوم، ويكون هو القلب: أي تلك اللطيفة.

وقد يُطلق العقل ويراد به محلُّ الإدارك، وهو المدرك.

ويُقال: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان[1].

قال سهل بن عبد الله: للقلب تجويفان:

١. باطن، وفيه السمع والبصر، وهو قلب القلب وسويداؤه.

٢. ظاهر القلب، وفيه العقل، ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين، وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات[2].

المطلب الثاني: مكانة القلب:

ويمكن الوقوف على مكانة القلب الرفيعة من خلال النقاط الآتية:

١. **أن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بالقلب**؛ لأنه المعرفة الإلهية

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٤.

(٢) ينظر: عوارف العوارف ص٢٦٥.

حاصلة به، قال الغزالي[١]: «شرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله تعالى، وهو المتقرب إلى الله تعالى، وهو العامل لله تعالى، وهو الساعي إلى الله تعالى، وهو المكاشف بما عند الله تعالى ولديه».

٢. **أن الجوارح عاملة بأمر القلب،** فهو السيد والملك والأمير لسائر الجوارح، بحيث يعمل الجسد بأوامره، قال الغزالي[٢]: «وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة».

٣. **أنّ صلاح الإنسان بصلاح قلبه،** فهو الذي إذا صَلُح صَلح سائر الجسد، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال ﷺ: « ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[٣].

٤. **أن القبول والرّدّ عند الله تعالى يكون للقلب؛** لأنه غيره تبع له، فكان هو المخاطب والمعاتب. قال الغَزالي[٤]: «القلب هو المقبول عند الله تعالى إذا

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٣: ٢.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين ٣: ٢.

(٣) في صحيح البخاري١: ٢٠.

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين ٣: ٢.

سَلِم من غير الله تعالىٰ، وهو المحجوب عن الله تعالىٰ إذا صار مستغرقاً بغير الله تعالىٰ، وهو المطالب، وهو المخاطب، وهو المعاتب.

وهو الذي يسعد بالقرب من الله تعالىٰ، فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقىٰ إذا دنَّسه ودسَّاه، وهو المطيعُ بالحقيقة لله تعالىٰ، وهو المنتشرُ علىٰ الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمردُ علىٰ الله تعالىٰ، وهو الساري إلىٰ الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه؛ إذ كل إناء ينضح بما فيه».

٥. **أن معرفة النفس ترجع لمعرفة القلب**، وبجهله يجهل نفسه، قال الغزالي[١]: «وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه.

ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل؛ إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله تعالىٰ يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين إصبعين مع أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوىٰ مرّةً إلىٰ أسفل السافلين، وينخفض إلىٰ أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرىٰ إلىٰ أعلىٰ عليين، ويرتقي إلىٰ عالم الملائكة المقربين.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٣: ٢.

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الحشر:١٩]، فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين».

٦. **أن إدراك المعاني الحقيقية للعلوم في القلب،** قال الغزالي[1]: «أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فإن القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله تعالى لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى».

---

(١) ينظر: في الإحياء٣: ٩.

المبحث الثاني
أصول القلوب وصفاته ووظائفه

يشتمل هذا المبحث على بيان أصول القلوب وصفات القلوب في القرآن ووظائف القلب في الكتاب والسنة في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: أصول القلوب:

نظر علماء التزكية إلى الصفات الصادرة من الإنسان فأرجعوها إلى أربعة أصول رئيسية؛ لأنها منها ما يشبه صفات السِّباع، ومنها ما يشبه صفات البهائم، ومنها ما يشبه صفات الربِّ سبحانه وتعالى، ومنها ما يُشبه صفات الشيطان، فكان الإنسانُ في تصرفاته لا يخرج عنها، وهي تمثل أصولاً ومرتكزات في القلب تخرج منها الصفات.

قال الغزاليّ[1]: «يجتمع في القلب أصول أربعةٌ، وهي:

السبعية والبهيمية والربانية والشيطانية، وكلُّ إنسان فيه شوب منها.

أ. **السبعية؛ فمن حيث سلط عليه الغضب** يتعاطى أفعال السباع من

(١) في الإحياء ٣: ١٠.

العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ب.**البهيمية؛ فمن حيث سلطت عليه الشهوة** يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره.

ج.**الربانية؛ فمن حيث أنه في نفسه أمر رباني**، كما قال الله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[الإسراء:٨٥]، فإنه يدعى لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها، والتفرد بالرياسة، والإنسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها، بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم ويحزن إذا نُسب إلى الجهل، والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك.

د.**الشيطانية؛ فمن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية**، فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين».

المطلب الثاني: صفات القلوب في القرآن :

القلب في سبيل إصلاحه يترقى درجات، فيتحول من صفة مذمومة إلى صفة محمودة، ويكون على حال ويصير إلى حال أعلى وأجمل وأزكى، وقد نبهت الآيات إلى أنواع القلوب الفاسدة التي يجب أن يتطهر القلب من

أمراضها ويتزكى، حتى يصل إلى القلب السليم، ومن الأنواع المذكورة:

١. **القلب الشيطاني**: وهو الذي يكون مع كفره وفساده وانحرافه يكون حريصاً على إفساد الآخرين وإضلالهم وإدخالهم في الكفر.

وقد ذكر النبي ﷺ هذا القلب في حديث تكلم فيه عن الشر والخير في هذه الأمة، فذكر مرحلة يكون فيها دَخَنٌ(١) مع الخير، وسئل عن الشر الذي يكون بعد الخير، فعن حذيفة رضي الله عنه، فقال ﷺ: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»(٢).

وأصحاب هذه القلوب سماهم الله تعالى شياطين الإنس، فقال: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} [الأنعام: ١١٢].

وتزكية هذا القلب بتحويل صاحبه وجهته من حب الباطل والشر والأذى والإفساد إلى حب الحق والخير والإحسان والإصلاح.

٢. **القلب المختوم: وهو من أغلق الهداية عنه**: قال تعالى: {ختم الله على قلوبهم} [البقرة: ٧]، والقلب المقفَّل عليه: قال تعالى: {أم على قلوب أقفالها} [محمد: ٢٤]، والقلب المطبوع عليه: قال تعالى: {طبع الله على

---

(١) أي اختلاط الشر مع الخير.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٨٤٧.

قلوبهم} [محمد: ١٦][1].

قال الغزالي[2]: «ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة، وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك، أولئك يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب».

وتزكية هذه القلوب تكون بمعالجة السبب الذي كان سبب الختم والطبع والقفل، والتوبة منه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «لينتهين أقوام عن وَدْعِهِم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»[3].

٣.**القلب الميت**: وهو الذي لا يستجيب للحق ولا يبحث عنه، قال تعالى: {إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون} [الأنعام: ٣٦]، فقوله: {والموتى}: أي أصحاب القلوب الميتة، وقد ذكرهم في مقابل الذين يسمعون الحق فيستجيبون له.

قال تعالى: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب} [ق: ٣٧]، والآية تشعر أن بعض الناس لا قلب له، ولكن هذا غير مقصود، إذ كل إنسان له

---

(١) ينظر: التزكية على منهاج النبوة.

(٢) في الإحياء٣: ١٢.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٨٦٥.

قلب[١]، لكن الآية تنبه إلى أن القلب يكون ميتاً حينما لا يستعمله صاحبه استعمالاً صحيحاً، فلا يوجهه نحو الحق، ولا يميل به نحو الحق والخير، فهو والذي لا قلب له سواء، فالنتيجة واحدة.

وتزكية هذا القلب تكون باستعمال القلب والانتباه إلى وجوده، وتوجيه القلب الوجهة الصحيحة نحو الإيمان والحق والخير، وإصلاح خواطره.

٤. **القلب المريض**: قال تعالى: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليهم بما كانوا يكذبون} [البقرة:١٠]، وقال تعالى: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرروا} [الأحزاب: ١٢]، وحيثما ذكر الذين في قلوبهم مرض في القرآن فالمقصود بهم أصحاب الأمراض القلبية التي تخرج الإنسان عن الإيمان، لا الأمراض التي قد تجتمع مع الإيمان أو الإسلام، فتكون سبباً في نقص الإيمان لا في نفيه كله.

وتزكية هذا القلب بمعالجة المرض الذي فيه، كالكبر على الله وأحكامه، وكحب غير الله أكثر من حب الله، وكالرياء والعمل لأجل الخلق لا لله، وكالتعلق بالدنيا وجعلِ شهواتها هي المقصود والهدف في الحياة، فكل مرض له علاجه كما سيأتي.

٥. **القلب المتقلب**: قال تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} [الأنعام: ١١٠]، وتقلب

---

(١) فقد وُصِفَت قلوبهم بأوصاف مختلفة كما في هذا المطلب، فالقلوب موجودة.

القلب ينشأ عنه التردد في الحقائق كما بينت الآية: {كما لم يؤمنوا به أول مرة} فلما كذبوا وتشككوا بالحق تقلب القلب والفؤاد.

وتزكية هذا القلب تكون بإزالة التردد من خلال التحقق من الحقائق والرجوع إلى الأدلة والبراهين، والوقوف عند الحق إذا وصل إليه، والبناء على الحقائق التي عرفها القلب لا على الشهوات والنزغات والميول، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

٦.**القلب الغافل**: قال تعالى: {لاهية قلوبهم} [الأنبياء: ٣]، وقال سبحانه: {بل قلوبهم في غمرة من هذا} [المؤمنون: ٦٣]، والقلب إذا كان عارفاً بالحقائق عالماً بها، ثم تجاهلها بالانشغال عنها يكون غافلاً.

وتزكية هذا القلب بتذكر الحقائق التي يعلَمُها، سواء تذكرها صاحب القلب من خلال القرآن أو التفكر أو الذكر، أو ذكره بها غيره بالتذكير والموعظة(٢).

فعن أم سلمة رضي الله عنها: «إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من قلبه»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد رقم ١٢١٢٨ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٨٣ والترمذي رقم ٢١٤٠ وحسنه وابن حبان رقم ٩٤٣ والحاكم رقم ١٩٢٦ وصححه، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠، ص ١٧٦.
(٢) ينظر: التزكية على منهاج النبوة
(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، وإسناده جيد، كما في المغني٣: ١٢.

قال تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}، قال الغزالي[١]: «فأخبر أنّ جلاءَ القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكَّن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذِّكر، والذِّكرُ باب الكشف، والكشفُ باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى».

٧. **القلب القاسي**: قال تعالى: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون} [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: {ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فيه كالحجارة أو أشدة قسوة} [البقرة: ٧٤].

وأصحاب القلوب القاسية والمريضة يجد الشيطان إلى قلوبهم منفذاً ليزيدهم بعداً وضلالاً وفتنة، قال تعالى: {ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد} [الحج: ٥٣].

وتزكية هذا القلب بالتذكير والمواعظ والتفكر والاعتبار، ولقسوته قد يسمع المواعظ فلا يتعظ؛ فيحتاج إلى التخويف والترهيب وإلى تَذَكُّرِ ما يثير في نفسه الخوف من الله وعذابه وعقابه، وقد لا يَخْرُج من قسوته إلا بما يفاجئه من بلاء شديد أو مرض أو من شيء خارج عن إرادته يخرجه عن شهواته ودنياه وعاداته قهراً.

---

(١) في الإحياء ٣: ١٢.

وإذا كانت القسوة ناتجة عن الذنوب؛ فلا بد من الاستغفار وصدق التوبة من الذنب الذي سبب القسوة.

فإذا تخلص الإنسان من هذه الأوصاف في قلبه ومن الأعمال التي تسببها، يصير طاهراً من الكفر مؤهلاً لأوصاف السلامة، فأول أوصاف السلامة الإيمان وانتفاء ما ينقضه، ثم ينبني على ذلك أوصاف كثيرة كالإخلاص لله والتوكل عليه والشكر له والخوف منه، وغير ذلك.

٨. **القلب السليم**: قال تعالى: {يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم}[الشعراء: ٨٨-٨٩]، والآية تشعر أنه لا بد حتى ينجو الإنسان أن يكون قد حصل درجة السلامة، فهي أدنى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان والمسلم.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه قيل يا رسول الله من خير الناس، فقال: كل مؤمن مخموم القلب، فقيل: وما مخموم القلب، فقال: هو التقي النقي الذي لا غش فيه، ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد»[1].

وتزكية هذا القلب: بالثبات على سلامته والعمل وفق وجهته، وبترقيته بالتعمق في التحقق بدقائق أوصاف القلوب السليمة ومقاماته العالية وأعماله وآدابه الدقيقة.

٩.القلب المخبت: قال تعالى: {وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من

---

(١) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح، كما في المغني٣: ١٥.

ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذي أمنوا إلى صراط مستقيم} [الحج: ٥٤].

١٠. القلب المطمئن: قال تعالى: {الذي أمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب} [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى ذاكراً قول إبراهيم في سبب طلبِهِ رؤيةَ إحياء الموتى: {ولكن ليطمئن قلبي} [البقرة: ٢٦٠][١].

وأشار النبي ﷺ إلى شيء من هذه الأنواع للقلوب في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال ﷺ: «القلوب أربعةٌ؛ قلبٌ أَجْرَدُ[٢] فيه مثل السراج يزهرُ، وقلبٌ أغلفُ[٣] مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ[٤]، وقلبٌ مُصَفَّحٌ[٥]، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلفُ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرفَ ثم أنكرَ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحةِ يمدها القيح والدمُ، فأي المدتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه»[٦].

---

(١) ينظر: التزكية على منهاج النبوة

(٢) أي لم تعلق فيه شوائب، فليس فيه فساد ولا حقد ولا غش، باق على أصل الفطرة.

(٣) أي الذي عليه غلاف وغطاء.

(٤) أي مقلوب، فهو كالإناء المقلوب لا يبقى فيه شيء ولا خير.

(٥) أي ذو صفيحتين أي وجهين، فله وجه إلى الإيمان، ووجه إلى المعصية أو النفاق أو الكفر.

(٦) أخرجه أحمد رقم ١١١٤٥، ونحوه عند ابن أبي شيبة رقم ٣٧٣٩٥، وقال الهيثمي في

المطلب الثالث: وظائف القلب في الكتاب والسنة:

وردت عشرات النصوص في الكتاب والسنة التي تتحدث عن القلب والفؤاد وصفاته وأحواله وأعماله وما ينبغي أن يكون عليه وما ينبغي أن يتطهر منه، وفيما يأتي نذكر عدداً من نصوص الكتاب والسنة التي ذكرت القلب، لنعرف قدر الأهمية الكبرىٰ التي أولاها الله تعالىٰ للقلب، وما رتب عليه من أعمال، وما أوجب علينا أن يتصف به القلب، وما حذرنا من أن يتصف به القلب، نذكر هذه النصوص لتكون دافعاً لنا إلىٰ الاهتمام بتزكية القلب تطهيراً وإصلاحاً:

١. **محلُّ الإيمان**: قال تعالىٰ: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان} [المجادلة: ٢٢]، وقال سبحانه: {ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} [الحجرات: ١٤].

٢. **محلُّ الهداية**: قال تعالىٰ: {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} [التغابن: ١١].

٣. **محلُّ العاطفة نحو الحق والميل والحب والزينة**: قال تعالىٰ: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} [الحجرات: ٧].

٤. **محلُّ الضلال والزيغ والانحراف والميل نحو الباطل**: قال تعالىٰ: {فأما الذين في قلوبهم زيغ} [آل عمران: ٧] أي انحراف عن الهداية، وقال تعالىٰ: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] أي زادهم انحرافاً، وقال

مجمع الزوائد ج ١، ص ٦٣: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وقال ابن كثير عن إسناد أحمد: إسناد جيد حسن، والحديث قد صح موقوفاً عن حذيفة ﷺ، ومثل هذا الحديث إنما يلتقط من مشكاة النبوة، فهو في حكم المرفوع.

تعالى ذاكراً دعاء المؤمنين: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب} [آل عمران: ٨].

٥. **محلُّ التعقل والفهم**: قال تعالى: {فتكون لهم قلوب يعقلون بها} [الحج: ٤٦]، وقال سبحانه: {لهم قلوب لا يفقهون بها} [الأعراف: ١٧٩].

٦. **محلُّ التذكر**: قال تعالى: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب} [ق: ٣٧].

٧. **محلُّ نظر الله تعالى**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

٨. **محلُّ الخواطر**: فعن أبي حذيفة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً كالحصير»(٢).

٩. **محلُّ الهوى والشهوات**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم كتب عليه حظه من الزنا... والنفس تَمَنَّى وتشتهي»(٣)، وفي رواية: «والقلب يتمنى ويشتهي»(٤)، وفي رواية: «والقلب زناه التمني»(٥)، فالنفس في

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٢٣٨ ومسلم رقم ٢٦٥٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٧٥٢ وصححه على شرط مسلم.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٤٤٢١ وبين معناه إذ عنون له بقوله: «ذكر إطلاق اسم الزنى على القلب إذا تمنى وقوع ما حرم عليه».

الرواية الأولى بمعنى القلب، فهو محل الشهوة والهوى والأمانيّ.

١٠. **محلُّ العزيمة والإرادة:** قال تعالى: {ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم يتعلموا أباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً} [الأحزاب: ٥] أي قصدت وأرادت.

١١. **محلُّ لوساوس الشيطان:** قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في **قلوبكما** سوءاً»(١).

١٢. **محلُّ لحظ الشيطان:** دليله ما روي في السيرة أن النبي ﷺ قد شق صدره في طفولته ثم نزع حظ الشيطان من قلبه ﷺ (٢).

١٣. **محلُّ المحاسبة على الأعمال المكلف بها،** قال تعالى: {لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم} [البقرة: ٢٢٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٠٧، ومسلم رقم ٢١٧٥، عن صفية بنت حيي رضي الله عنها، وقال مسلم: «شراً» بدل «سوءاً».

(٢) ونص الحديث في صحيح مسلم رقم ١٦٢ «عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره [أي مرضعته]، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

١٣. **محلُّ الإخلاص:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه أو نفسه»(١)، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة»(٢).

١٤. **محلُّ الإنابة إلى الله والرجوع والتوبة:** قال تعالى: {من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب} [ق: ٣٣].

١٥. **محلُّ الحب والألفة:** قال تعالى: {فألف بين قلوبكم} [آل عمران: ١٠٣]، والألفة ميل في القلب إلى الآخر.

١٦. **محلُّ اللين والرقة:** {ثم تلين جلودهم وقلوبكم إلى ذكر الله} [الزمر: ٢٣].

١٧. **محلُّ الحزن:** فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم»(٣).

١٨. **محلُّ الرعب والخوف:** قال تعالى: {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب} [آل عمران: ١٥١].

١٩. **محلُّ النفور والكُره والاشمئزاز:** قال تعالى: {اشمأزت قلوب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٩٩.

(٢) أخرجه ابن حبان رقم ٢٠٠، ونحوه عند أحمد في المسند رقم ٢٢١١٣.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٢٤٢ ومسلم رقم ٩٢٤.

الذين لا يؤمنون بالآخرة} [الزمر: ٤٥].

٢٠. **الرأفة والرحمة**: قال تعالىٰ: {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة} [الحديد: ٢٧].

٢١. **محلُّ القسوة والجفاء والغلظة في القلب**: قال تعالىٰ: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} [آل عمران: ١٥٩]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال ﷺ: «غلظ القلوب والجفاء: في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز»[١].

٢٢. **محلُّ الكرم والبخل**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»[٢].

٢٣. **محلُّ الثبات على الدين رغم كثرة تقلب**: قال النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[٣]، فالقلب يتقلب من حال إلىٰ آخر بين لحظة وأخرىٰ؛ من خاطر إلىٰ خاطر، ومن شعور إلىٰ شعور، ومن صفة إلىٰ صفة، ومن رغبة إلىٰ رغبة.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٥٣.

(٢) حديث صحيح، أخرجه النسائي رقم ٤٣١٨ وابن حبان رقم ٣٢٥١، ونحوه عند أحمد رقم ٩٦٩١.

(٣) أخرجه أحمد رقم ١٢١٢٨ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٨٣ والترمذي رقم ٢١٤٠ وحسنه وابن حبان رقم ٩٤٣ والحاكم رقم ١٩٢٦ وصححه، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠، ص ١٧٦.

ومن خلال ما سبق نجد أن القلب هو محل التعقل، فهو الذي يميز بين الحق والباطل، وهو محل الإيمان والكفر أو النفاق، وهو محل العواطف والشعور بها، ففيه الميل والرغبة إلى الحق أو إلى الشر، إلى المصلحة الحقيقة أو إلى الشهوة، وهو محل القرار والإرادة[1].

❧ ❧ ❧

---

(١) ينظر: التزكية على منهاج النبوة

المبحث الثالث
تقلب القلب وطرق الشيطان إليه

نعرض في هذا المبحث لمداخل الشيطان إلى القلب وأصناف الوساوس وتقلب والقلب في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: مداخل الشيطان إلى القلب:

لما كان القلب هو الكنز الثمين للمسلم، فعليه أن يحرس كنزه حتى لا يتسلل إليه عدوه ويأخذه، ومعلوم أن العدو اللدود الذي يحرص على سرقت هذا الكنز هو الشيطان.

«وإن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة.

ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان، ومنها:

١. **الغضب والشهوة**، فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان، ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به، كما يلعب الصبي بالكرة.

٢. **الحسد والحرص**، فمهما كان العبد حريصاً على كلِّ شيء أعماه حرصه وأصمه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال ﷺ: «حبك للشيء يعمي ويصم»[1].

ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان، فإذا غطاء الحسد والحرص لم يبصر، فحينئذٍ يجد الشيطان فرصة، فيحسن عند الحريص كلّ ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً وفاحشاً.

٣. **الشبع من الطعام** وإن كان حلالاً صافياً، فإن الشبع يقوي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان.

٤. **حب التزين من الأثاث والثياب والدار**، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار، وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب، ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد ضعيف، كما في المغني٣: ٣٢.

شيء إلىٰ أن يساق إليه أجله فيموت، وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوىٰ ويخشىٰ من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

٥. **الطمع في الناس**؛ لأنه إذا غلب الطمع علىٰ القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتىٰ المطموع فيه كأنه معبوده، فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه، ويدخل كلّ مدخل للوصول إلىٰ ذلك، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦. **العجلة وترك التثبت في الأمور، فعن سهل بن سعد** رضي الله عنه**، قال** صلى الله عليه وسلم: «العجلة من الشيطان والأناة من الله تعالىٰ»(١)، وقال تعالىٰ: {خلق الإنسان من عجل}، وقال تعالىٰ: {وكان الإنسان عجولا}، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه}.

وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلىٰ تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شرّه علىٰ الإنسان من حيث لا يدري.

٧. **الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال** من العروض والدَّواب والعقار، فإن كل ما يزيد علىٰ قدر القوت والحاجة، فهو مستقرّ الشيطان، فإن من معه قوته، فهو فارغ القلب، فلو وجد مائة دينار مثلاً علىٰ طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كلّ شهوة منها إلىٰ مائة دينار أُخرىٰ، فلا يكفيه ما

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه، كما في المغني٣: ٣٣.

وَجَد، بل يحتاج إلى تسعمائة أُخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً، فالآن لما وجد مائة ظنّ أنه صار بها غنياً، وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة؛ ليشتري داراً يعمرها، وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئا آخر يليق به، وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم، فلا آخر لها سواه.

٨.**البخل وخوف الفقر**؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الإدخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين، كما نطق به القرآن العزيز.

قال خيثمة بن عبد الرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن غلبة، فلن يغلبني على ثلاث: أن آمره أن يأخذ المال من غير حقّه، وإنفاقه في غير حقِّه ومنعه، من حقه.

وقال سفيان: ليس للشيطان سلاحٌ مثل خوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل، ومنع من الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربِّه ظن السوء.

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين.

٩.**التوصل التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم** والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يُهلك العباد والفساق جميعاً، فإن الطعن في النَّاس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيّل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه غلبت

حلاوته على قلبه، فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظنُّ أنه يسعى في الدين، وهو ساع في اتباع الشياطين.

فمن تعصب لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من الأئمة، فكلُّ مَن ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته، فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة؛ إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان، فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته، وذهبت فيه إلى الله تعالى، ثم ادعيت مذهبي كاذباً، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان، قد أهلك به أكثر العالم.

١٠. **سوء الظن بالمسلمين**؛ قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم}، فمن يحكم بشرٍّ على غيره بالظنِّ بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة، فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيراً منه، وكلُّ ذلك من المهلكات، ولأجل ذلك منع الشرع من التعرَّض للتهم.

فعن صفية بنت حيى رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد، قالت: فأتيته فتحدَّثت عنده، فلما أَمسيت انصرفت، فقام يمشي معي، فمرَّ به رجلان من الأنصار، فسلَّما ثم انصرفا فناداهما، وقال: إنها صفة

بنت حيي، فقالا: يا رسول الله ما نظنُّ بك إلا خيراً، فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد، وإني خشيت أن يدخل عليكما»[1].

فيجب الاحتراز عن ظن السوء، وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنساناً يسيء الظَّنَّ بالنَّاس طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيثٌ الباطن وأن ذلك خبثه يترشَّح منه، وإنّما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب، ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان، ومدخل من مداخله.

وعلاج القلب في ذلك سدُّ هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة، وإذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات، ولم يكن له استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى؛ لأنّ حقيقة الذكر لا تتمكَّن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتَّقوى، وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذِّكر حديث نفس، لا سلطان له على القلب، فلا يدفع سلطان الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} خصص بذلك المتقي.

---

(١) متفق عليه، كما في المغني٣: ٣٦.

فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب، فلم يتمكن من سويدائه، فيستقر الشيطان في سويداء القلب.

وأمّا قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة، فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان، ودليل ذلك قوله تعالى: {فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

وإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان، كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة، قال الله تعالى: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب}، وقال تعالى {كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير}.

وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة، فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين، وجواب المعاندين، وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهالكها، حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك، ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت، فالصلاة محكُّ القلوب، فبها يظهر محاسنها ومساويها، فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان، بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر.

فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى، ثم أردفه بدواء الذكر يفرّ الشيطان منك، ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر أي أنت لا له»[1].

المطلب الثاني: أصناف الوساوس:

لا شكّ أنّ للشيطان طرقاً متعددةً يُوسوس بها علينا، بحيث يُلبس علينا الحقَّ بها ويُزخف لنا الأمور، فيُوقعنا في شباكه ويُبعدنا عن الحقّ، وفي هذه السُّطور عرض لشيء من صور وسوسته مع شيء من طرق ردها ودفعها حتى لا نقع فيها، فمن ذلك:

١. «**أن يكون من جهة التلبيس بالحق**، فإن الشيطان قد يلبس بالحقّ فيقول للإنسان: تترك التنعم باللذات، فإن العمر طويل والصَّبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حقّ الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه، وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد، ولكن الصبر على النار أشدُّ منه، ولا بُدّ من أحدهما، فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب؛ إذ لا يستطيع أن يقول له: النار أيسر من الصَّبر على المعاصي، ولا يُمكنه أن يقول: المعصية لا تفضي إلى النار، فإن إيمانه بكتاب الله تعالى يدفعه عن ذلك، فينقطع وسواسه.

٢. **أن تكون وسواسه من جهة العجب بعمله**، فيقول: أي عبد يعرف الله تعالى كما تعرفه، ويعبده كما تعبده، فما أعظم مكانك عند الله تعالى، فيتذكر

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٣: ٣٢ـ٣٨.

العبد حينئذٍ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كلُّ ذلك من خلق الله تعالىٰ، فمن أين يعجب به، فيخنس الشيطان؛ إذ لا يمكنه أن يقول: ليس هذا من الله تعالىٰ، فإن المعرفة والإيمان يدفعه، فهذا نوعٌ من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

٣. **أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها**، وهذا ينقسم إلىٰ ما يعلم العبد يقيناً أنه معصية، وإلىٰ ما يظنه بغالب الظنّ، فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة، ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنوناً، فربما يبقىٰ مؤثراً بحيث يحتاج إلىٰ مجاهدة في دفعه، فتكون الوسوسة موجودةً، ولكنها مدفوعة غير غالبة.

٤. **أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر، وتذكر الأحوال الغالبة، والتفكر في غير الصلاة مثلاً**، فإذا أقبل علىٰ الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة، ويتصور أن يتساوقا جميعاً حتىٰ يكون الفهم مشتملاً علىٰ فهم معنىٰ القراءة، وعلىٰ تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب، وبعيد جداً أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالاً، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال ﷺ: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلىٰ ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

---

(١) في صحيح البخاري ١: ٤٣.

فلولا أنه متصور لما ذكره ﷺ، إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحبُّ حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه، بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه.

وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه، فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة، ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكلٍّ مذهب من المذاهب وجهاً في محلٍّ مخصوص.

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد، ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيدٌ جداً، ومحال في الوجود، ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله ﷺ.

٥. **أن يكون وسواسه بالتفكر بماله أثناء عبادته،** فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره، وأنه كيف يحفظه؟ وفيماذا ينفقه؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد؟ وكيف يظهره حتى يتباهى به إلى غير ذلك من الوساوس؟ فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشطيان كان كمَن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه، فهو محالٌ، فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد، بل أبواب كثيرة.

قال حكيم: الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً، فتميل قلوبهم إليه، فيعجب نفسه وبه يهلكه، وعند ذلك يشتد إلحاحه، فإنها آخر درجة، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة»[1].

المطلب الثالث: تقلب القلب:

سمي القلب قلباً لشدة تقلبه، ووردت كثيرٌ من الأحاديث في السنة المطهرة تبين سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات، ومنها:

فعن ابن مسعود ﵁، قال: «كثيراً مما كان النبي ﷺ يحلف: لا ومقلب القلوب»[2]، أقسم به ﷺ عليه للتنبيه أن أمر القلب بيد الله فعلينا اللجوء له سبحانه في تثبيت قلوبنا على الحقّ.

وعن أنس وجابر ﵄، قال ﷺ: «يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك»[3]، وهذا تعليم لنا بكثرة الدعاء بثبات القلب؛ لشدة تقلبه وتغيره، فلا طريق لنا إلا الاعتماد على الله تعالى بذلك.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٤٣ـ ٤٥.

(٢) في صحيح البخاري٨: ١٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم، وقال ابن أبي الدنيا: صحيح على شرط مسلم، كما في المغني ٣: ٤٦.

وعن ابن عمرو رضي الله عنه، قال ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»(١)، فإن كان القلب متقلب فليكن تقلبه على العبادة والإقبال عليه سبحانه بأخذ الأسباب المؤدية له.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»(٢)، لما كان الكون بين يدي الرحمن سبحانه يقلبه كيف شاء، فمَن باب أولى أن تكون قلوبنا بين يديه سبحانه، فعلينا تعليق القلوب بالله تعالى، حتى يثبتها على الحقّ والخير.

وعن أبي عبيدة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة»(٣)، وهذا تنبيهٌ على سرعة تقلب القلب، حتى شبّه ﷺ تقلبه بحركة العصفور، فعلينا الحذر من هذا التقلب على غير الحق.

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، قال ﷺ: «مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً»(٤)، وهذا بيانٌ منه ﷺ لشدّة التقلب للقلب وكثرته، وأنه في تقلب مستمر، فعلينا مراعاة ذلك ومتابعته حتى لا نسقط في مزالق الشيطان.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري، كما في المغني ٣: ٤٦.

(٢) في صحيح مسلم، كما في المغني ٣: ٤٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب، كما في المغني ٣: ٤٦.

(٤) أخرجه أحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري. ٣: ٤٦، كما في المغني ٣: ٤٦.

«وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالىٰ في تقلبها من حيث لا تهدىٰ إليه المعرفة ولا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالىٰ، والقلوب في الثبات علىٰ الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

١.**قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة،** وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلىٰ التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه، ويطلع علىٰ أسرار فوائده، فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بُدّ من فعله، فيستحثه عليه، ويدعوه إلىٰ العمل به، وينظر الملك إلىٰ القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستنيراً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة، فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً، فعند ذلك يمده بجنود لا ترىٰ، ويهديه إلىٰ خيرات أخرىٰ حتىٰ ينجر الخير إلىٰ الخير.

وكذلك علىٰ الدوام ولا يتناهىٰ إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: {فأما من أعطىٰ واتقىٰ وصدق بالحسنىٰ فسنيسره لليسرىٰ}، وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية، حتىٰ لا يخفي فيه الشرك الخفي الذي هو أخفىٰ من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فلا يخفىٰ علىٰ هذا النور خافية، ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً، فلا يلتفت إليه، وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير علىٰ القرب معموراً بالمنجيات من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك.

وهو القلب الذي أقبل الله تعالىٰ بوجهه عليه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالىٰ: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}، وبقوله تعالىٰ: {يا أيتها النفس المطمئنة}.

٢.**القلب المخذول المشحون بالهوى** المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة، ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوىٰ ويهجس فيه، فينظر القلب إلىٰ حاكم العقل ليستفتي منه، ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوىٰ وأنس به، واستمر علىٰ استنباط الحيل له، وعلىٰ مساعدة الهوىٰ.

فتستولي النفس وتساعد عليه، فينشرح الصدر بالهوىٰ، وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته، فيقوىٰ سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوىٰ، فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً، فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة؛ إذ يتصاعد عن الهوىٰ دخان مظلم إلىٰ القلب يملأ جوانبه حتىٰ تنطفيء أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها، فلا يقدر علىٰ أن ينظر.

وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتىٰ لا يبقىٰ للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمىٰ عن الفهم وصم عن السمع، وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح علىٰ وفق الهوىٰ، فظهرت المعصية إلىٰ عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالىٰ وقدره.

وإلىٰ مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالىٰ: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا}، وبقوله تعالىٰ: {لقد حق القول علىٰ أكثرهم فهم لا يؤمنون}، وبقوله تعالىٰ: {سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}.

ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلىٰ بعض الشهوات كالذي يتورَّع عن بعض الأشياء، ولكنه إذا رأىٰ وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبقىٰ معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة علىٰ أخذ درهم أو دينار، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر، فينسىٰ فيه المروءة والتقوىٰ، فكلُّ ذلك لتصاعد دخان الهوىٰ إلىٰ القلب حتىٰ يظلم وتنطفيء منه أنواره، فينطفيء نور الحياء والمروءة والإيمان، ويسعىٰ في تحصيل مراد الشيطان.

٣.قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشرّ، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهوتها إلىٰ نصرة خاطر الشر، فتقوىٰ الشهوة، وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلىٰ خاطر الخير، ويدفع في وجه الشهوة، ويقبح فعلها وينسبها إلىٰ الجهل.

فتميل النفس إلىٰ نصح العقل، فيُحمل الشيطان حملةً علىٰ العقل، فيقوي داعي الهوىٰ، ويقول: ما هذا التَّحرُّج البارد ولم تمتنع عن هواك، فتؤذي

نفسك، وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه، أو يترك غرضه، أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروماً شقياً متعوباً يضحك عليك أهل الزمان، أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا.

فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية غلب الشيطان، ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى.

وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان، وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مال إلى حزب الله تعالى، وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن أي بين تجاذب هذين الجندين، وهو الغالب أعني التقليب، والانتقال من حزب إلى حزب.

أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان، فنادر من الجانبين، وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب، فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضاً إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء، فمن خلق

للجنة يسرت له أسباب الطاعات، ومن خلق للنار يُسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقي في قلبه حكم الشيطان»[1].

❧❧❧

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٤٥ـ ٤٨.

المبحث الرابع
المراتب والأحكام والموانع القلبية

نعرض في هذا المبحث لمراتب الإيمان وموانع هداية القلب وحكم أعمال القلوب في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: مراتب الإيمان:

إن تحقُّقَ اليقين بالله تعالى بين الناس متفاوتٌ، وكلُّ مَن كان مُسلماً عنده شيءٌ من هذا اليقين، وهو أصل الإيمان بالله تعالى، وقوَّةُ اليقين وضعفُه هي العاملُ الأكبرُ في تَغيُّر سلوك الإنسان وإصلاحه وترقيته.

وهذا الأمر جانبان: تقوية اليقين بالله تعالى من جهة، وصلاح المسلم بقدر يقينه بالله تعالى من جهةٍ أُخرى، فكلّما قوي اليقين زاد الصّلاح والخير.

وأبرز طرق اليقين بالله تعالى هي كثرةُ الذّكر لله تعالى وعبادته، قال الغزالي[1]: «إنّ مرادَ الطَّاعات وأعمال الجوارح كلُّها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه: {قد أفلح من زكاها}، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أَعني

---

(١) في إحياء٣: ١٥.

إشراق نور المعرفة، وهو المراد بقوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}، أفمن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه».

فكلّما زاد ذكره وطاعته لله تعالى زاد يقينه بالله تعالى؛ لتحقق المشاهدة لله سبحانه في كل شيء، فيزيد يقينه به سبحانه، وزيادة اليقين بالله تعالى تزيد من صلاحه وعبادته وإقباله، فالقرب من الله تعالى يزيد اليقين، واليقين يزيد من القرب لله تعالى، فيكون الصلاح للعبد، فكلٌّ منهما يُقوي الآخر.

فيكون الناس في الإيمان بالله على ثلاث مراتب:

١. «**إيمان العوام**، وهو إيمان التقليد المحض، فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة، وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين، وليسوا من المقربين؛ لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين»[1].

وهذا الإيمان متفاوتٌ بين العوام بقدر إقبالهم على الله تعالى، والقيام بواجباتهم، والنظر والمشاهدة لآيات الله تعالى، وبالتالي كان الواجب عليهم زيادة هذا اليقين بالله تعالى.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٥.

ب.«**إيمان المتكلمين**، وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام»[(١)].

والمتكملون هو المشتغلون بعلم العقائد وإقامة البراهين على وجود الله تعالى، وأمثال هذا البراهين ليس كافية في تقوية اليقين بالله تعالى، كما يحصل من كثرة العبادة والذكر له سبحانه؛ لذلك كان إيمانهم أقوى من إيمان العوام لكن لا يصل لرتبة إن العارفين.

ج.«**إيمان العارفين**، وهو المشاهد بنور اليقين؛ لأنهم يؤمنون عن مشاهدة، فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بمزية بيِّنة يستحيل معها إمكان الخطأ، وهم يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف»[(٢)].

فهذا المراتبُ عن قوة الإيمان بالله تعالى وزيادته ونقصه بعد أن نؤمن بالله تعالى، فكانت زيادة الإيمان راجعة للعبادة؛ لتحقَّق المشاهدة لله تعالى بها، فكلُّ شيء يشهد بأنّ الله تعالى هوالفاعل، وهذا يتحقق بكثرة ذكره تعالى، فيزاد اليقين به سبحانه.

والخلق للدنيا لتحقيق اليقين بالله تعالى، فكانت كلُّ الأكوان دلائل على الله تعالى وآيات على وجود سبحانه، وأفعاله في الكون سواء في أنفسنا أو كل ما حولنا أو في السموات، وإدراك هذه الحقيقة يكون بذكر الله تعالى، فهو

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٥.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ١٥.

المفتاح لفهم حقيقة الحياة وحقيقة الكون وتصحيح النظر لكلِّ الأشياء، فيزداد الإيمان حينئذٍ بالله تعالى؛ لأنه يصبح كل شيء شاهد على وجوده سبحانه وقدرته وفعله.

المطلب الثاني: موانع هداية القلب:

إن من صدق بالإسلام وآمن بالآخرة زهد بالدنيا وما فيها لحقارتها مقارنة بالآخرة، لكن لما كانت الدنيا مملوكة والآخرة مفقودة، كانت التمسك بها أكبر، والسَّعي فيها أكثر.

قال الغزالي[1]: «إن مَن شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أَصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة مشتاقاً إليها سالكاً سبلها مستهيناً بنعيم الدنيا ولذّاتها، فإن مَن كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة، ومَن ليس مريداً حرث الآخرة، ولا طالباً للقاء الله تعالى، فلا يكون متحققاً إيمانه بالله واليوم الآخرة.

ولست أعني بالإيمان حركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول مَن صدّق بأنّ الجوهرةَ خيرٌ من الخرزة، إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها، وأما حقيقتها فلا، ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة».

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٧٤.

ومن موانع الهداية:

١. **فقد المذكر من سماعة المواعظ وصحبة الشيوخ،** «فإذن المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهداية والمذكرين والعلماء بالله تعالىٰ الهادين إلىٰ طريقه والمنبهين علىٰ حقارة الدنيا وانقراضها، وعظم أمر الآخرة ودوامها.

فالخلقُ غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم، وليس في علماء الدين مَن ينبههم، فإن تنبَّه منهم متنبِّهٌ عجز عن سلوك الطريق لجهله، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلىٰ الهوىٰ عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق، ونطق العلماء بالهوىٰ سبباً لغلق طريق الله تعالىٰ عن السَّالكين فيه.

ومهما كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً، والهوىٰ غالباً، والطالب غافلاً امتنع الوصول، وتعطلت الطرق لا محالة، فإن تنبَّه متنبِّهٌ من نفسِه أو من تنبيه غيره، وانبعث له إرادةٌ في حرث الآخرة وتجارتها، فينبغي أن يَعلم له شروطاً لا بُدَّ من تقديمها في بداية الإرادة.

وله معتصم لا بُدّ من التَّمسك به، وله حصن لا بُدّ من التَّحصن به؛ ليأمن من الأعداء القُطّاع لطريقه، وعليه وظائف لا بُدَّ من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أمّا الشروط التي لا بُدّ من تقديمها في الإرادة، فهي رفعُ السَّدِّ والحجاب الذي بينه وبين الحقِّ، فإن حرمان الخلق عن الحقِّ سببه تراكم الحجب، ووقوع السَّدِّ على الطريق، قال تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون}، والسَّدُّ بين المريد وبين الحقِّ أربعة: المال والجاه والتَّقليد والمعصية.

٢.**حجاب المال بخروجه عن ملكِهِ**، حتى لا يَبْقَىٰ له إلا قدر الضَّرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه، فهو مُقيَّد به محجوب عن الله تعالى.

٣.**حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع**، وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر، وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه.

٤.**حجاب التقليد بأن يترك التَّعصب للمذاهب**، وأن يصدق بمعنى قوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان، ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كلَّ معبود له سوى الله تعالى، وأعظم معبود له الهوى، حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليداً.

فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده، ولم يبق في نفسه متسع لغيره، صار ذلك قيداً له وحجاباً؛ إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معيّن أصلاً.

٥.**حجاب المعصية ولا يرفعها إلا التوبة**، والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود، وتحقيق الندم على ما مضى، ورد المظالم وإرضاء الخصوم، فإن من لم يصحِّح التوبة، ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن

يقف على أسرار الدين بالمكاشفة، كان كمَن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره، وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، فإن ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أولاً ثمّ الترقي منها إلى أسرار معانيه، فكذلك لا بُدّ من تصحيح الشريعة أولاً وآخراً، ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدَّم هذه الشروط الأربعة، وتجرد عن المال والجاه كان كمَن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة، فيحتاج إلى إمام يَقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة.

فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطيءالنهر بالقائد، بحيث يُفوِّض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره، ولا يبقى في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب.

فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق، وهو أربعة أمور:

أ. الخلوة.

ب. الصمت.

ج. الجوع.

د. السهر.

وهذه تحصن من القواطع، فإن مقصود المريد إصلاح قلبه؛ ليشاهد به ربه ويصلح لقربه.

قال سهل التستري: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: بإخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس.

ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة.

والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه، فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص، فلا بد من ضبط الحواس، إلا عن قدر الضرورة وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحقّ ويشاهد جلال الحضرة الربوبية.

فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق، وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى، إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا، وبعض تلك العقبات أعظم من بعض، والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل، وهي تلك الصفات أعني أسرار

العلائق التي قطعها في أول الإرادة وآثارها أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصي.

فلا بُدّ أن يخلِّي الباطن عن آثارها كما أُخلي الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال، فرُبَّ شخص قد كفى أكثر الصفات، فلا تطول عليه المجاهدة.

والغافلون موتى القلوب، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم، ففي كثرتهم استرواح وتناصر، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك، وهذا عزيز على الوجود جداً، فينبغي أن يكون المريد على حذر منه، فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق، فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان، ولذلك قال تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا}، ثم بين أن الشر قديم في الطباع، وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال تعالى: {إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}.

فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه، أعني به الشهوات المتعلقة بها، ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه، وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرئاسة، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً، وتمسك من الدين بما فيه الرئاسة وغلب عليه الغرور»[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٧٤ـ ٧٩.

المطلب الثالث: حكم أعمال القلوب:

إنّ هذا أمرٌ غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت بها أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «إن الله تعالى يقول للحفظة إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همّ بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً»(٢).

وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة.

فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه: {إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}، وقوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا}، فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه.

وقوله تعالى: {ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه}، وقوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم}.

---

(١) في صحيح البخاري٨: ١٣٥، وصحيح مسلم١: ١١٦.

(٢) متفق عليه، كما في المغني٣: ٤١.

فلا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

وأعمال القلوب أربعة:

أ.الخاطر، وهذا يُسمّى **حديث النفس**، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها.

ب.ميل الطبع؛ وهو هيجان الرغبة إلى النظر مثلاً، وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول.

ج.الاعتقاد؛ وهو حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل: أي ينبغي أن ينظر إليها، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمّة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنّه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل، وهو على كلِّ حال حكم من جهة العقل، وهو يتبع الخاطر والميل.

د.الهم؛ وهو تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه، وهذا نُسميه هماً بالفعل ونيةً وقصداً.

وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة فربّما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق، فيتعذر عليه العمل.

فهاهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر، وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم.

فالخاطر لا يؤاخذ به؛ لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة؛ لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت بها أنفسها ...»[1]، فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس، ولا يتبعها عزم على الفعل.

وأما الاعتقاد، وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل، فهذا تردد بين أن يكون اضطراراً أو اختياراً، والأحوال تختلف فيه، فالاختياري منه يؤاخذ به، والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الهمُّ بالفعل، فإنّه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة؛ لأنّ همّه سيئة، وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهمُّ على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة، فجدُّه في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى، والعمل لله تعالى أشدُّ من جدِّه في موافقة الشيطان بموافقة الطبع، فكتب له حسنة؛ لأنه رجح جدَّه في الامتناع.

وهمُّه به على همِّه بالفعل وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «قالت الملائكة عليهم السلام: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به،

---

(١) في صحيح البخاري٨: ١٣٥، وصحيح مسلم١: ١١٦.

فقال: ارقبوه، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً، إنما تركها من جرائي»[1].

وحيث قال: فإن لم يعملها أراد به تركها لله تعالى، فأما إذا عزم على فاحشة، فتعذرت عليه بسبب أو غفلة، فكيف تكتب له حسنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: « إنما يبعث الناس على نياتهم»[2]، وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «يبعثهم الله تعالى على نياتهم»[3].

فيحشر الناس على نياتهم، وقد همَّ بسيئةٍ ولم يعملها، فعن أبي بكر رضي الله عنه، قال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، فقيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول، قال: لأنه أراد قتل صاحبه»[4].

وهذا نصٌّ في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوماً، فكيف يظنُّ أن الله تعالى لا يؤاخذ بالنية والهم، بل كلُّ همٍّ دخل تحت اختيار العبد، فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة، فلذلك كُتِبَت له حسنةٌ، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة[5].

❧ ❧ ❧

---

(١) أخرجه في صحيح مسلم، كما في المغني٣: ٤٢.

(٢) أخرجه سنن ابن ماجة، وإسناده حسن، كما في المغني٣: ٤٢.

(٣) في صحيح مسلم، كما في المغني٣: ٤٢.

(٤) متفق عليه، كما المغني٣: ٤٤.

(٥) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٤١ـ ٤٣.

المبحث الخامس
علامات الأمراض وطرق معرفتها ومعالجتها

نعرض في هذا المبحث لعلامات أمراض القلوب وشفائها وطريق معرفة العيوب ومعالجة الأمراض بالمجاهدة في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: علامات أمراض القلوب وشفائها:

لما كان اليقين بالله تعالى أساس الخير والصلاح، ويَكمل اليقين بامتلاء القلب به سبحانه وخلوه من غيره، ووجود سوى الله تعالى في القلب يكون على حساب قوة اليقين به، فلو كان كاملاً لما بقي في القلب لغيره متسعٌ، ولخرج ما سواه من القلب.

وبهذا اليقين الكامل تكون المحبّة الكاملة لله تعالى، بحيث تملأ القلب والحياة، وتُشع أَنوارها في كلِّ الأطراف، وعلى كلِّ مَن حولك، وكلَّما زادت المحبّة ازداد الشِّفاء من أَمراض القلب؛ لأنّ أَمراض القلب بوجود غير الله تعالى في القلب، ونقصان المحبة لله تعالى.

فكانة علامة الشِّفاء زيادةُ المحبّة لله تعالىٰ، وعلامة المرض نقصانُ المحبّة؛ لأنّ القلبَ محلٌّ لله تعالىٰ لا لغيره، فإن وُجِدَ سبحانه فيه كان قائماً بوظيفتِه، وإن شاركَه غيرُه اختلت وظيفتُه ودخله المرض.

قال الغزالي: «إن كلَّ عضو من أعضاء البدن خُلِق لفعل خاص به، وإنّما مرضُه أن يتعذَّر عليه فعله الذي خلق له، حتىٰ لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد أن يتعذَّر عليها البطشُ، ومرضُ العين أن يتعذَّر عليها الإبصارُ، وكذلك مرض القلب أن يتعذَّرَ عليه فعله الخاصّ به الذي خُلِق لأجله، وهو العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ الله تعالىٰ وعبادتُه والتَّلَذُّذُ بذكره وإيثارُه ذلك علىٰ كلِّ شهوةٍ سواه والاستعانةُ بجميع الشَّهوات والأعضاء عليه، قال تعالىٰ: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}.

ففي كلّ عضو فائدة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصة النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوة علىٰ الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها، بل بمعرفة الأشياء علىٰ ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء، فلو عرف كلَّ شيء ولم يعرف الله تعالىٰ، فكأنه لم يعرف شيئاً.

وعلامة المعرفة المحبة، فمَن عرف الله تعالىٰ أَحبَّه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا، ولا غيرها من المحبوبات، كما قال تعالىٰ: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم...} إلىٰ قوله: {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتىٰ يأتي الله بأمره}، فمَن عنده شيء

أحبُّ إليه من الله تعالىٰ فقلبُه مريضٌ، كما أنّ كلَّ معدة صار الطين أحبُّ إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء، فهي مريضة، فهذه علامات المرض.

وبهذا يعرف أن القلوبَ كلَّها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر علىٰ مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يُعالجه.

فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولىٰ عليهم المرض، فالطبيب المريض قلَّما يلتفت إلىٰ علاجه، فلهذا صار الدَّاء عضالاً، والمرضُ مزمناً، واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طبُّ القلوب وأُنكر مرضها، وأقبل الخلق علىٰ حبِّ الدنيا، وعلىٰ أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات، فهذه علامات أصول الأمراض.

وأمَّا علامات عودها إلىٰ الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل، فهو المهلك المبعد عن الله تعالىٰ، وإنّما علاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلىٰ حدٍّ يصير به مبذراً، فيكون التبذير أيضاً داء، فكان كمَن يُعالج البرودةَ بالحرارة حتىٰ تغلب الحرارة، فهو أيضاً داء، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة، وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتىٰ يكون علىٰ الوسط، وفي غاية من البعد عن الطرفين.

وإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يُضاده، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل: أن يكون إمساك المال وجمعه ألذُّ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البُخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحقّ ألذ عندك وأخفُّ عليك من الإمساك بالحقِّ، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك.

فلا تَزال تُراقب نفسك، وتستدلُّ على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطعَ علاقةُ قلبك عن الالتفات إلى المال، فلا تميل إلى بذله، ولا إلى إمساكِه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجَّح عندك البذل على الإمساك، فكلُّ قلب صار كذلك، فقد أتى الله تعالى سليماً عن هذا المقام خاصّة، ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيءٍ مما يتعلَّق بالدُّنيا حتى ترتحل النَّفس عن الدُّنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقرَّبين من النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقاً»[1].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٦٢ـ ٦٣.

المطلب الثاني: طريق معرفة العيوب:

إذا أراد بعبد خيراً بصرَّه بعيوب نفسه، فمَن كانت بصيرته نافذةً لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرىٰ أحدهم القذىٰ في عين أَخيه، ولا يرىٰ الجذع في عين نفسه، فمَن أراد أن يعرف عيوب نفسه، فله أربعة طرق:

١.**أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس**، مطلع علىٰ خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أُستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عزَّ في الزمان وجوده.

٢.**أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً**، فينصبه رقيباً علىٰ نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين، كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ أهدىٰ إلي عيوبي، وكان يَسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه، قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه، فاستعفىٰ فألح عليه، فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين علىٰ مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا، قال: لا، فقال: أمّا هذان فقد كفيتهما.

وكان يَسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترىٰ عليَّ شيئاً من آثار النفاق، فهو علىٰ جلالة قدره، وعلو منصبه، هكذا كانت تهمتُه لنفسه رضي الله عنه.

فكلُّ مَن كان أَوفر عقلاً وأَعلىٰ مَنصباً كان أَقلّ إعجاباً، وأَعظم إتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضا قد عزَّ فقل في الأصدقاء مَن يترك المداهنة، فيخبر بالعيب أو يترك الحسد، فلا يزيد علىٰ قدر الواجب، فلا تخلو في أصدقائك عن حسود، أو صاحب غرض يرىٰ ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له: لِمَ لا تخالط الناس، فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي، فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلىٰ أن أبغض الخلق إلينا مَن ينصحنا ويعرفنا عيوبنا.

ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه علىٰ أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به، واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها علىٰ البدن ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة علىٰ صميم القلب أخشىٰ أن تدوم بعد الموت أبداً وآلافاً من السنين، ثم إنا لا نفرح بمَن يُنبهنا عليها، ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته، فنقول له: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه،

ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك ضعف الإيمان.

٣.أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عيَّن السَّخط تبدي المساوئ، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه، ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساويه لا بُدّ وأن تنتشر على ألسنتهم.

٤.أن يخالط الناس، فكلُّ ما رآه مذموماً فيما بين الخلق، فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به واحدٌ من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كلِّ ما يذمُه من غيره وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يَكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب[1].

❧ ❧ ❧

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٦٤ـ ٦٥.

المطلب الثالث: معالجة الأمراض بالمجاهدة:

لما كانت حبُّ الشهوات والاستغراق فيها هو الداء العضال الذي يفتك بالقلب ويضيع صاحبه ويهوى به إلى الهاوية، كانت المجاهدة لهذه الشهوات والتَّخلي عنها هي أنجع الوسائل لمعالجة الأمراض القلبية والتخلص.

وهذه المجاهدةُ من أشقِّ ما يكون على صاحبها، وتحتاج إلى جهدٍ لا نظير له ووقتٍ كبير؛ لأنه الوسيلةُ الوحيدةُ للنَّجاة والتَّرقي، فعن فُضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «المُجاهد مَن جاهدَ نفسَه في طاعة الله تعالى»[1].

وكثرت العبارات من العلماء في التنبيه على أهمية المجاهدة لأمراض القلب، ومنها:

قال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد علي من نفسي مرّةً لي ومرة علي.

وقال الحسن البصري: ما الدّابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربع أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه، كما في المغني٣: ٦٦.

علىٰ الأذىٰ، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلّة الطعام من غمد التهجد، وقلة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتىٰ تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها، فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان.

وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

وقال بعض الحكماء: مَن استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت، فتمنع قلبه من الفوائد.

وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء علىٰ أن النَّعيم لا يدرك إلا بترك النعيم.

وقال أبو يحيىٰ الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات، فقد غَرَسَ في قلبه شجر النَّدامات.

وقال وهيب بن الورد: ما زاد علىٰ الخبز فهو شهوة، ومن أحب شهوات الدنيا، فليتهيأ للذلّ.

وقال يزيد الرقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أُحرمه في الآخرة.

وقال السري: أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها.

فقد اتفق العلماءُ والحكماءُ على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب[1].

وقال الغزالي: «وحاصل الرياضة وسرها: أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن، وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة، فإنه لو تمتع بشيءٍ منه أنس به وألفه، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه، ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا مَن لا حظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه، ولا قوّة على ذلك إلا بالله تعالى.

ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط، فمَن لم يقدر على حقيقة ذلك، فليقرب منه.

والناس فيه أربعة:

١. رجلٌ مستغرق قلبه بذكر الله تعالى، فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٤٨ـ ٦٣.

ضرورات المعيشة، فهو من الصديقين، ولا ينتهي إلىٰ هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة، والصبر عن الشهوات مدة مديدة.

٢. رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالىٰ ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب، فهذا من الهالكين.

٣. رجل اشتغل بالدنيا والدين، ولكن الغالب علىٰ قلبه هو الدين، فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالىٰ علىٰ قلبه.

٤. رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب علىٰ قلبه، فهذا يطول مقامه في النار، لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالىٰ في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب علىٰ قلبه.

فحب الدنيا رأس كل خطيئة، وسبب إحباط كل حسنة، والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا، وهو سبب البعد.

فإذن لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول، فحقه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله، وإلا عن المهمات في الدين حتىٰ تموت منه شهوة الكلام، فلا يتكلم إلا بحق، فيكون سكوته عبادة، وكلامه عبادة.

والنفس تفرح بالتنعم في الدنيا، وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً، حتىٰ تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره، وذلك الفرح بالدنيا

سم قاتل يسري في العروق، فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، قال تعالى: {ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها}، وقال تعالى: {وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع}، وقال تعالى: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد}.

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله، والأصل فيه أن يترك كلّ واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة، فينبغي أن يترك أولا ما به فرحه»[1].

* * *

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٦٨ـ ٨٩.

الفصل الثاني
أمراض القلوب

بعد الإجمال في الفصل السابق فيما يتعلَّق بأَمراض القلوب وطرق علاجها، ففي هذا الفصل نتوقَّفُ تفصيلاً مع أُمهات أَمراض القلوب وكيفية علاجها.

وتشخيصُ هذه الأمراض لا يَقدرُ على القيام به إلا أكابر علماء التزكية والتربية الذي قضوا حياتهم في تتبع نصوص الشَّرع الحكيم والتَّعلم لطريقة الأنبياء في شفاء النَّاس؛ لأنّ الأطباءَ الحقيقين لأمرض البشرية جماعات وأفراداً هم الأنبياء، وقد بعثهم اللهُ تعالى للقيام بهذه الوظيفة التي لا يقدر على القيام بها غيرُهم.

قال الغَزاليُّ[1]: «أمراضُ القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشَّريعة، وهي وظائفُ العبادات والأعمال التي ركَّبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمَن لا يُداوي قلبَه المريض بمعالجات العبادة الشرعيّة واكتفى بالعلوم العقليّة استضرّ بها، كما يستضرُّ المريضُ بالغذاء».

---

(١) في الإحياء٣: ١٧.

وإن مَن سَلَكَ مَسلك الأنبياء من العلماء الرَّبانيين وتدرَّبوا على طريقتهم يقدرون القيام بهذا الدَّور في العلاج للناس وكشف الأمرض، وأمَّا غيرهم فدوهم في زيادة هذه الأمراض بفتح باب الشهوات والملذات وغيرها من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

وإن أمراض القلوب لا تحصى في نفسها، ولكن يمكن ردها إلى أمراض رئيسية يمكن الوقوف معها لعلاجها، فيكون في علاجها علاج لما سواها من الأمراض.

قال الغَزَاليُّ[1]: «و اعلم أن علماء الآخرة قد ذكروا فيما يحتاج إليه العبد من هذا الأمر سبعين خصلة محمودة في أضدادها المذمومة، ثم من الأفعال والمساعي الواجبة المحظورة نحو ذلك فنظرنا في الأصول التي لا بدّ من ذكرها في علاج القلب، ولا غنية عنها البتة في شأن العبادة فرأينا أربعة أمور وهي آفات المجتهدين وفتن القلوب تعوق وتشين وتفسد، وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وإصلاح القلوب.

والآفاتُ الأربع: الأمل والاستعجال والحسد والكبر.

والمناقبُ الأربع: قصر الأمل والتأني في الأمور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع.

---

(١) في مجموع الرسائل ص ١٤٣.

فهذه هي الأصول في علاج القلوب وفسادها، فابذل المجهود في التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكفي المؤنة وتظفر بالمقصود إن شاء اللهّ تعالىٰ».

فحصر الغَزاليُّ أُصول الأَمراض بالأمل والعجلة والحسد والكبر، وذكر في «الإحياء» غيرها كالغضب والحقد وحبّ الدنيا والشره وحبّ المال وحب الجاه والبخل وحب المدح والرياء والعجب والغرور وغيرها، وزاد البركلي في «الطريقة المحمدية» أمراضاً أخرىٰ حتىٰ أوصلها إلىٰ ستين، فنبدأ هاهنا بذكر هذه الأمراض الأربعة، ونضيف إليها ما ذكرها الغَزاليُّ في «الإحياء» وشيئاً من الأمراض التي ذكرها البركوي.

ونعرض في هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول: في حب الدنيا وإخوانه.

والمبحث الثاني: في الكبر وإخوانه.

والمبحث الثالث في الغضب وإخوانه.

والمبحث الرابع: في الهوى وإخوانه.

المبحث الأول
حبُّ الدنيا وأخواتها

معلوم أن حبّ الدنيا والتعلق بها أساس كل بلاء ومصيبة، والزهد فيها أساس كل خير وعافية، قال ابن المقفع[1]: «وجدنا البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا يتقلب في بلية وتعب؛ لأنه لا يزال بخلَّةِ الحرص والشره».

وقال الفضيل بن عياض: «جعل الشرَّ كلَّه في بيتٍ واحدٍ، وجعل مفتاحه حبُّ الدنيا، وجعل الخير كلَّه في بيتٍ واحدٍ، وجعل مفتاحه الزُّهد في الدُّنيا»[2].

وبالتالي كانت الرغبة في الدنيا مدخلٌ لكثير من الأمراض كطول الأمل وحبّ المال والجاه والبُخل والحَزن والخَوف لأمر الدنيا وغيرها من الأمراض التي نعرضها في هذا المبحث.

---

(١) في الأدب الصغير ص٥٧.

(٢) ينظر: تنبيه الغافلين ص٢٤٥.

المطلب الأول: حبُّ الدنيا:

توسع القرآن الكريم والسنة المطهرة في ذم الدنيا وبيان ما هي عليه، وفصَّل العلماء الأمر في ذلك، وذكر الغزالي أصناف الناس مع الدنيا، وهذا ما نعرضه في النقاط الآتية:

أولاً: ذم القرآن للدنيا:

اعتنى القرآن عناية فائقة جداً بكشف زخاف الدنيا وزيتها للمتبصرين، وكشف اللثام عنها، وبين حقيقتها، وأنها متاع الغرور؛ لأنها تغر بأهلها بما تمنِّيه من طول البقاء وهي تنقطع عن قريب، كما قال الواحدي[1] في قوله تعالى:{وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور}[آل عمران:١٨٥]: قال أبو السعود[2]: «أي لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة، فعن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى فنعم المتاع ونعم الوسيلة».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ – ٨]، فحب الدنيا والاطمئنان لها ونسيان الآخرة يترتّب عليه كسب يستحق به صاحبه دخول النار، وبأدنى تأمّل يستطيع الإنسان أن يعرف كسب أهل الدنيا الذي يستحقّون به النار، إنّ طالب الدنيا لا يهمّه إلا

(١) في تفسير الواحدي١: ٢٤٧.

(٢) في إرشاد العقل السليم٨: ٢١١.

قضاء شهواته ولذّاته والوصول إلى أطماعه دون قيود ولا ضوابط فهو وراء المرأة والخمرة والكسب الحرام واللعب واللهو والزينة والفخر والجاه، وكل ما يعتبره لذيذاً أو مبهجاً أو نافعاً أو رافعاً.

والله تعالى إنّما طالب العبد أن تكون الآخرة همّه، وأن يقف من الدنيا على حذر، وألا يكون كل همّه الدنيا وشهواتها، وأن يضبط موقفه من كل مفرد من مفرداتها على ضوء التكليف(١)، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٥ – ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ١٨]، يُبيِّنُ سبحانه أنه يَمُدُّ أهل الدنيا بمتاعها، ولكن ليس رضاً منه عنهم، وإنما استدراجاً منه لهم، حتى كان مصيرُهم جهنم، فعلينا أن لا نغترَّ بها وبما فيها من المتاع.

وقال تعال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[الأحقاف: ٢٠]، أبان سبحانه أنّ الاستمتاع بالدنيا والاستغراق فيها من صفات الكافرين بخلاف المؤمنين المعرضين عنها، العارفين بحقيقتها.

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٥١.

«فالاستكبار في الأرض والفسوق عن أمر الله كل ذلك أثر من آثار كون الدنيا في الهدف الوحيد للإنسان، ولذلك كان ضبط النفس على أمر الله في شأن الدنيا، ومعالجة النفس من أهم ما يطالب به الإنسان، ولعلّ هذه النقطة بالذات من أهم الفوارق بين أهل الكفر وأهل الإيمان»(١).

وقد أكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك، فلا حاجة إلى التوسع في الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ونكتفي ببعض ما ذكرناه.

ثالثاً: ذمُّ السُّنة للدنيا:

ورد في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ذم الدنيا وبيان زيفها، ونقتصر على ذكر بعض الأخبار الواردة فيها:

فعن سهل بن سعد ﵁: «أنّ رسول الله ﷺ مرّ على شاة ميتة، فقال: أترون هذه الشاة هينة على أهلها، قالوا: من هوانها ألقوها، قال: والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»(٢)، وهذا بيانٌ بليغٌ

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٥١.

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده، وآخره عند الترمذي، وقال حسن صحيح، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد ﵁، دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر ﵁، كما في المغني٣: ٢٠٣.

من النبي ﷺ في تصوير الدُّنيا بالميتة، ومن منا يَرغب بميتةٍ، وكيف أنها لا تساوي عند الله تعالىٰ جناح بعوضة، فكيف نتمسَّك بها، وإنَّما علينا التَّمسُّك بما يحبُّ الله ورسوله ﷺ، وهي الآخرة.

وعن أبي موسىٰ الأشعري قال ﷺ: «مَن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ»[١]، بيان منه ﷺ بعدم اجتماع حبُّ الدنيا والآخرة في القلب، وعلينا أن نؤثر الآخرة علىٰ الدنيا؛ لأنها أبقىٰ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الدُّنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر»[٢]؛ لأنه الدنيا بالنسبة للآخرة لا شيء يذكر في سعتها ووقتها ومتاعها، فالمسلم يكون فيها في سجن في انتظار نعيم الآخرة، بخلاف الكافر فليس له إلا هذا الدنيا، فأصبح يعيشها لذاتها ومتاعها سعياً منه في تحصيل النعيم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها»[٣]، واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالىٰ، فيكون كلُّ ما فيها من المتاع لا قيمة له ولا عبرة به ولا يستحقُّ الالتفات؛ لإعراض الله تعالىٰ عنه.

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه، كما في المغني٣: ٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم، كما في المغني٣: ٢٠٣.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وزاد: «إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم»، كما في المغني٣: ٢٠٣.

وعن الحسن البصري، قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[١]؛ لأنه السعي للدنيا لذاتها يجر صاحبه إلى الشقاء والآثام والمتاعب والمهالك، فكان مدخلاً لكل خطيئة وسيئة.

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له»[٢]، فإن مَن لم يلتفت للآخرة يجعل الدنيا داره وماها ماله، بخلاف مَن رغب بالآخرة فإنه له دار أعزّ وأعظم من الدار الدنيا، وله فيها من النعيم ما يُغني عن متاع الدنيا.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[٣]؛ لأنه تغرُّ بأهلها وتتزين لهم مع شدّة قبحها، فيهلك فيها الهالكون، فيتساقطون في امتحان ربِّ العالمين؛ لأنها دار ابتلاء لا متاع.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة، وما تلذذتم بالنساء على الفرش»[٤]، فإن مَن يعرف حال الدنيا لا يَتمسَّك بها مطلقاً، ولا يكون

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً، كما في المغني٣: ٢٠٣.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب، وإسناده جيد، ، كما في المغني٣: ٢٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه، كما في المغني٣: ٢٠٤.

(٤) أخرجه الطبراني والترمذي وابن ماجه، كما في المغني٣: ٢٠٦.

ممن يتعلق بها، ولا يهتم لشأنها، ويُعرض عن متاعها ويُقبل على الآخرة.

وعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب»[١].

والناجي من الدنيا السالك ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل.

ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كلَّ ما خلق من الدنيا، ويحفظه على حدّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوي به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى[٢].

ثالثاً: ذم العلماء للدنيا:

أكثر العلماء من ذمِّ الدينا وكشف حقيقتها، وكثرت الأقوال منهم بما يطول ذكره، فنقتصر على نزر يسير منه:

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه، كما في المغني٣: ٢١٥.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٢٠٢ـ ٢٣٠.

قال الحسن: أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً.

وقال لقمان لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتك فيه تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله تعالى؛ لعلك تنجو، وما أراك ناجياً.

وقال بعضُ الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكدٌ، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فيجيء في طلبه فيأخذك.

وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يَفني على ذهب يَبْقى.

وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا.

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك.

وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة.

وقال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها.

وقال وهب بن منبه: مَن فرح قلبه بشيء من الدنيا، فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العقلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه[1].

رابعاً: أصناف الناس مع الدنيا:

الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل، فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها، فهي الأرض وما عليها، قال تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً}[الكهف: ٧]، فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن والنبات والحيوان.

أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي.

وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللنقد، كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين٣: ٢٠٢ـ ٢٣٠.

وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان والبهائم.

أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة.

وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم، أو ليتمتع بهم كالنسوان، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين.

فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين}، وهذا من الإنس {والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة}، وهذا من الجواهر والمعادن؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآليء واليواقيت وغيرها، {والخيل المسوَّمة والأنعام} وهي البهائم والحيوانات: {والحرث}[آل عمران: ١٤]، وهو النبات والزرع، فهذه هي أعيان الدنيا، إلا أن لها مع العبد علاقتين:

١. علاقة مع القلب، وهو حبه لها وحظه منها وانصراف هَمِّه إليها، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة.

٢. اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها.

والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل، ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى، وأعني بالدابّة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال.

فأشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدَّرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه:

أ.طائفة غلبهم الجهل والغفلة، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا، فنجهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب مَن ليس له تنعم في الدنيا، ولا قدم في الدين، فإنه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً، ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

ب.طائفة زعموا أنهم تفطنوا للأمر: وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى

اتباع النسوان، وجمع لذائذ الأطعمة، يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة؛ فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

ج.طائفة ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة، ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت، فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته، ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

د.طائفة ظنوا أنّ السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيّقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال: إنه غني، وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس.

هـ.طائفة ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم، وانقادت لهم رعاياهم، فقد سعدوا سعادة

عظيمة، وأن ذلك غاية المراد، وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته، وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها.

وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرقيّ منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال، وعرف غاية المقصود منها، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها، فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا.

والحق أن نسلك ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا نترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية.

أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوي به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

فالصحابة ﭫ كانوا لا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى[1].

خامساً: الحزن في أمر الدنيا:

ذكرها البركلي صفة خاصّة منفصلة عن حبّ الدنيا، وآثرت ذكرها تحت حبّ الدنيا لشدة تعلقها به وارتباطها الوثيق بها.

ومعنى الحزن في أمر الدينا: التوجع والتأسف على ما فات من النعم الدنيوية التي غرَّت كثيراً من أهل الحماقة والجهل مع أنها سموم قاتلة وعورات بادية وفضائح مردية وقبائح مهلكة تعلمها العقلاء وتغفل عنها

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٢٩ـ ٢٣٠.

الجهلاء؛ إذ هي حظوظ نفسانية وأعراض شهوانية حيث لم يتيسر له مراده من ذلك.

ويلزم من يحزن لأمر الدنيا أن يفرح بإتيانها وإقبالها وكثرتها.

ومنشؤ الحزن: حبُّ الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة ومعدنُ كلِّ شرٍّ، ومقرُّ كلِّ هوىٰ وبضاعة كلّ فساد.

والدنيا ثلاثة:

١ .ما يصحبك في الآخرة ويبقىٰ معك ثمرته بعد الموت: كالعلم وهو لذة دنيوية عاجلة وكذا العبادات لمن يتلذذ بها.

٢.ما فيه حظ عاجل لا ثمرة له في الآخرة: كالتلذذ بالمعاصي والمباحات.

٣.متوسط بينهما: كالطعام واللباس إن جعل وسيلة إلىٰ الأول، فمَن عمل الآخرة وإن إلىٰ الثاني فمن الدنيا.

ولا يبقىٰ مع العبد إلا صفاء القلوب، وذلك بالكفِّ عن الشهوات والأنس بالله بكثرة ذكره ومحبته الحاصلة من المعرفة، وهي تتولد من الفكر[1].

سادساً: الخوف في أمر الدنيا:

ذكرها البركلي صفة مستقلة، وفضلت الحديث عنها مع حب الدنيا؛ لتمام الارتباط بينهما.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١١٣ـ ١١٤.

ومعنى الخوف في أمر الدنيا: هو انقباض القلب كراهة أن يصيبه في الاستقبال مكروه دنيوي، وهو غير الحزن؛ لأن الحزن لما مضى، والخوف للمستقبل، وغير الجبن؛ لأنه نقصان الغضب.

والخوف إما من الفقر أو المرض أو إصابة مكروه: كأخذ أموال وإتلاف نفس وضرب وحبس من مخلوق.

والخوف من الفقر مذموم جداً؛ لأن الفقر حال نبينا ﷺ وحال أكثر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأكثر الأولياء والصالحين كالصديق الأعظم؛ لعلمهم بمنزلة الفقر عند الله تعالى ورذالة الغنى الذي هو معدن أكثر الشرور، ولذا امتنع منه ﷺ بعد العرض عليه، فهو نعمة وعلامة سعادة لما فيه من المشاركة؛ لأفضل الخلائق، وأن الراحة في السلامة.

والفقر وإن كان نعمة وسعادة، فينبغي أن يحفظ آدابه كأن لا يكره الفقر من حيث إنه فعل الله تعالى ولا الفقير، ويفرح به، بل يطلبه لعلمه بغوائل الغنى، ويكره الزيادة على الكفاف، وكأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يجتهد بستر فقره، قال تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف} [البقرة: ٢٧٣]، ولا يتواضع لغنيٍّ لغناه، بل يتكبَّر عليه، ولا يخالط الأغنياء، ولا يداهنهم في الحقِّ طمعاً في عطائهم، ولا يفتر عن عبادته؛ لفقره، ويبذل قليل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقلّ الذي هو أفضل من كثير الغنى.

ولا يدخر بعد قدر الحاجة، وفي الادخار ثلاث درجات درجة الصديقين أن لا يدخر إلا ليومه وليلته، ودرجة المتقين أن يدخر لأربعين يوماً، وما زاد من طول الأمل، وقد فهموا ذلك من ميعاد موسىٰ ﷺ، ودرجة الصالحين أن يدخر لسنة فما زاد خارج عن حيز الخصوص بالكلية.

وعلاج الخوف بإزالة أسبابه، وهي ثلاثة:

١. خوف الموت من الجوع.

٢. المرض من الجوع.

٣. خوف فوت التنعم المعتاد عند سعة الدنيا وحصول القلق من الفوت.

وطريق إزالة إجمالاً: أن كل ذلك سوء الظن بالله تعالىٰ وإنا مأمورون بحسن الظن به تعالىٰ، فهو من الواجبات، وخلافه من المحرمات.

وطريق إزالتها تفصيلاً: أن الموت متيقن وآت علىٰ كل حال إما بغتة، وإما بسبب مقدر في الأزل كالقتل وأنواع الأمراض، فإن قدر في الأزل كونه سبب موته جوعاً فلا مرد له؛ لأن إرادته تعالىٰ لا تتخلف عن مراده، وأنه لا راد لقضائه، وأن التقدير لا يقبل التغيير، وإن كان عندك ملء الأرض ذهباً، فعليك الرضا بالقضاء، ولا تلتفت إلىٰ الفقر والغنىٰ[1].

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١١٥ـ١١٦.

المطلب الثاني: حبّ المال:

إن الكلام في المال كلام عن أَكبر فتن هذه الدنيا؛ لكثرة ما هو محبوب للبشر، فلا ينجو من فتنتِهِ إلا مَن أَنجاه الله تعالى، قال الغزاليُّ: «إن فتن الدنيا كثيرة الشُّعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها، وأطم محنها وأَعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً»[١].

ونفصل ما يتعلق بالمال من ذمّ المال وكراهة حبه لغير مقصد صحيح، وذم الحرص عليه والطمع فيها؛ لكثرة مضاره، وكيفية علاج داء الحرص والطمع في المال، ونُبيِّن الوظائف للمال في النُّقاط الآتية:

أولاً: ذمّ المال وكراهة حُبِّه:

قال تعالى {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} [التغابن: ١٥]: أي محنة وبلاء لكم فالعاقل لا يلتفت بل يعرض عن مثله راغباً إلى ما عنده تعالى كما يشير إليه قوله: {والله عنده أجر عظيم} [التغابن: ١٥][٢].

وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}، ففيها إرشاد من الله تعالى إلى

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٣١.

(٢) ينظر: بريقة محمودية٣: ١٢.

عدم الإنشغال بالمال عن الله تعالىٰ وذكره والعمل للآخرة؛ لأنه فيه الخسران المبين.

وقال تعالىٰ: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}: أي ما يُزينها ويُحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك[1]، وهذا يكون علىٰ سبيل الاستدراج فيها؛ لتكون فتنةً ومهلكةً لهم.

وقال تعالىٰ: {ألهاكم التكاثر}: أي ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلىٰ أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعي لأخراكم[2].

وعن كعب بن مالك ﷺ، قال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»[3]، ومعناه ليس ذئبان جائعان أرسلا في جماعة من جنس الغنم بأشد إفساداً لتلك الغنم من حرص المرء علىٰ المال والجاه، فإن إفساده لدين المرء أشد من إفساد الذئبين الجائعين لجماعة من الغنم إذا أرسلا فيها؛ لأن المال يحرك داعية الشهوات ويجر إلىٰ التنعم في المباحات، فيصير التنعم مألوفاً، وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٤: ١٩٣.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود٩: ١٩٥.

(٣) في سنن الترمذي٤: ٥٨٨، وقال: حسن صحيح.

كسب الحلال، فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة... هم الأكثرون أموالا، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ـ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ـ وقليل ما هم، ما من صاحب إبل، ولا بقر، ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت، وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها، عادت عليه أولاها، حتى يقضى بين الناس»(٢)، وهذا صريحٌ من النَّبيِّ ﷺ أنّ صاحبَ المال إن لم يؤد حقّه سيعذب بها عذاباً شديداً، وسيكون وبالاً عليه يوم القيامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً»(٣)، ففيه حرصٌ من النبي ﷺ على عدم التعلق بالدنيا ومتاعها، بحيث جعل ﷺ من دعائه أن طعامه بقدر ما يكفي دون زيادة.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «اللهم أَحيني مسكيناً وأَمتني مسكيناً»(٤): فمن معانيه أن لا يجاوز به الكفاف(٥).

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذي٧: ٣٩.

(٢) في صحيح مسلم٢: ٦٨٦.

(٣) متفق عليه، كما في المغني٣: ٢٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه، ، كما في المغني٣: ٢٣٥.

(٥) ينظر: فتح الباري١١: ٢٣٤.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**»[(١)]: أي يعيش في تعاسة وهم وغم مَن كان همه في الدنيا المال وجمعه، فهو من خسر دنياه وأخراه.

قال الغزالي: «والمال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله سمومه، فمَن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترزَ من شرِّه، ويستدر من خيره، وفوائده ظاهرة، ومن آفاته:

أ.أن تجرَّ إلى المعاصي، فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية.

ب. أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أول الدرجات، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة، فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا، ويمرن عليها نفسه، فيصير التنعم مألوفاً عنده ومحبوباً لا يصبر عنه، ويجره البعض منه إلى البعض.

ج.أنه يُلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكلُّ ما شغل العبد عن الله تعالى، فهو خسران»[(٢)].

ثانياً: ذم الحرص والطمع:

إن الفقر محمود، ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن

---

(١) أخرجه البخاري، كما في المغني٣: ٢٣٥.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٢٣٧.

الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يُمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ويقتصر على أقلِّه قدراً وأخسِّه نوعاً.

ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر، فإن تشوَّق إلى الكثير أو طوَّل أمله فاته عزّ القناعة، وتدنس لا محالة بالطمع، وذلّ الحرص وجرّه الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وقد جُبل الآدميُّ على الحرص والطَّمع وقلّة القناعة[1].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[2]، بيانٌ صريح بعدم قناعة الإنسان بكثرة المال، وإنما القناعة تحصل بتربيةٍ وتزكيةٍ للشَّخص مع نفسِهِ، حتى تخرجَ من وهمها في التَّعلُّق بالمال.

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه، قال ﷺ: إن الله تعالى يقول: «إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة...»[3]، معناه أن المال وسيلة لأداء فرائض الدين والقيام بالواجبات من خلاله، وليس للطغيان والتكاثر والتفاخر والمعاصي.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشبُّ معه اثنتان الأَمَلُ وحبُّ

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٣٩.

(٢) متفق عليه، كما في المغني: ٢٣٨.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح، كما في المغني: ٢٣٨.

المال»[١]، وهذا لغريزة الإنسان بحبّ المال ولو تقدم في السنّ، فهو مجبول على التعلق بمتاع الدنيا، ولا يتخلص من ذلك إلا مَن هذَّب نفسَه وزكَّاها.

وعن فضالة ابن عبيد ﵁، قال ﷺ: «طوبى لمن هُدِي للإسلام وكان عيشُه كَفافاً وقَنع به»[٢]، وهذه لفتةٌ نبويةٌ شريفةٌ بالرَّبط بين هداية الإسلام وعدم التعلق بشيء من مال الدنيا ومتاعها، بحيث يعيش كفافاً، وهذا يدل على دعوة الإسلام الأكيدة للزهد بالدنيا وما فيها.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»[٣]، وفيه تصحيحٌ نبويٌّ لمفهوم خاطئ من أنّ الغنى بالمال والتَّباهي به بأن الغني الحقيقي هو قناعة الإنسان ورضاه، وهو ما يحتاج إلى الجهد والاجتهاد لتحقيقه في النفس.

وعن جابر ﵁، قال ﷺ: «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له»[٤]، نصحٌ نبويٌّ كريمٌ بأن الرزق محتومٌ ومقسوم، فلا نتجاوز حدود الشرع في جمع المال، وليكن الثقة والاعتماد على الله تعالى في ذلك.

وعن أبي أيوب ﵁، قال ﷺ: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن

---

(١) متفق عليه، كما في المغني: ٢٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى، ولمسلم من حديث ابن عمر ﵄: «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، كما في المغني: ٢٣٨.

(٣) متفق عليه، ، كما في المغني: ٢٣٨.

(٤) أخرجه الحاكم وصحح إسناد، كما في المغني: ٢٣٨.

بحديث تعتذر منه، وأجمع اليأس مما في أيدي الناس»[١]، إرشادٌ نبوي بعدم النظر لما في أيدي من الرزق والمال، والقناعة بها رزق الله تعالى.

وكان محمد بن واسع يبلُّ الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحدٍ.

وقال سَميط بن عجلان: إنّما بطنك يابن آدم شبرٌ في شبر، فلم يدخلك النّار.

وقال بعضُ الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القَنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط[٢].

ثالثاً: علاج الحرص والطمع:

إنّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

١. **العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق**، فمَن أراد عزَّ القناعة، فينبغي أن يسدَّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلا ما لا بُدّ له منه، فمن كثر خروجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، بل إن كان وحده، فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان، ويُقلِّل من الإدام

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني٣: ٢٣٩.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٢٣٩.

ما أمكنه ويوطن نفسه عليه، وإن كان له عيال فيرد كلّ واحد إلى هذا القدر، فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة، وهو الأصل في القناعة، ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه.

فعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «إنّ الله تعالى يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه»[١]، فيكون داخلاً في الرفق عدم الإسراف والتبذير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بعض وعشرين جزءاً من النبوة»[٢]؛ لأن الاقتصاد من الخصال الحميدة التي جاءت النبوة لإكمالها.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «التدبير نصف المعيشة»[٣]، وهذا إرشاد كريم للأخذ بالأسباب بعد الاعتماد على ربّ الأرباب، من الإدارة الصحيحة للمال وتوزيعه بحيث يستغنى فيه عن ذلّ السؤال أو الوقوع في التبذير.

٢.أنه إذا تيسَّر له في الحال ما يَكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويُعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بُدّ وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، فإن شدّة الحرص

---

(١) متفق عليه، كما في المغني٣: ٢٤١.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، كما في المغني٣: ٢٤١.

(٣) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين، كما في المغني٣: ٢٤١.

ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى؛ إذ قال تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}.

وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء، ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربَّما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذّل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقداً مع الغفلة عن الله تعالى؛ لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون.

ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر، قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب}، فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله.

وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدت الدنيا شيئين، شيئاً منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته، ولو طلبته بقوة السماوات والأرض، وشيئاً منهما هو لغيري فلذلك لم أنله فيما مضى، فلا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أُفني عمري.

٣.أن يعرف ما في القناعة من عزِّ الاستغناء، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس»[١]، وما في الحرص والطمع من الذِّلّ،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» والحاكم وصحح إسناده، كما في المغني: ٢٤١.

فإذا تحقَّق عنده ذلك انبعثت رغبته إلىٰ القناعة؛ لأنه في الحرص لا يخلو من تعبٍّ، وفي الطَّمع لا يخلو من ذِلٍّ، وليس في القَناعة إلا ألم الصَّبر عن الشهوات والفضول، وهذا ألم لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله تعالىٰ، وفيه ثواب الآخرة.

وذلك مما يضاف إليه نظر الناس، وفيه الوبال والمأثم، ثم يفوته عز النفس والقدرة علىٰ متابعة الحق، فإن من كثر طعمه وحرصه كثرت حاجته إلىٰ الناس، فلا يمكنه دعوتهم إلىٰ الحق، ويلزمه المداهنة، وذلك يهلك دينه، ومَن لا يؤثر عز النفس علىٰ شهوة البطن، فهو ركيك العقل ناقص الإيمان.

٤. أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنَّصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف، ومَن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظر إلىٰ أحوال الأنبياء والأولياء وإلىٰ سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويُخيَّر عقله بين أن يكون علىٰ مشابهة أراذل الناس أو علىٰ الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند الله تعالىٰ، حتىٰ يهون عليه بذلك الصَّبر علىٰ الضنك والقناعة باليسير.

فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلىٰ رتبة منه، وإن تزين في الملبس والحلي ففي اليهود من هو أعلىٰ زينة منه، وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٤١: ٢٤٣.

رابعاً: الوظائف في المال:

١. **أن يعرف مقصود المال**، وأنه لماذا خُلِق وأنّه لم يحتج إليه حتى يكتسب، ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

٢. **أن يراعي جهة دخل المال**، فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام، كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه.

٣. **أن لا يستكثر من كسبه ولا يستقل**، بل القدر الواجب، ومعيارُه الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم، ولكلٍّ واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى، وما دام مائلاً إلى جانب القلّة ومتقرباً من حدِّ الضرورة كان محقّاً، ويجيء من جملة المحقين، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها.

٤. **أن يقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر**، فيضع ما اكتسبه من حلِّه في حقِّه، ولا يضعه في غير حقِّه، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه، والوضع في غير حقه سواء.

٥. **أن يصلح نيّته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك**، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقارا له، إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال.

ولذلك قال علي ﷺ: لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض، وأراد به وجه الله تعالىٰ، فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالىٰ فليس بزاهد.

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة علىٰ عبادة أو ما يعين علىٰ العبادة، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة، وهما معينان علىٰ العبادة، فإذا كان ذلك قصدك بهما، صار ذلك عبادة في حقك.

وكذلك ينبغي أن تكون نيَّتك في كلِّ ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية؛ لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله، ولا يمنعه منه عند حاجته، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقىٰ سمها فلا تضره كثرة المال، ولكن لا يتأتىٰ ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه[1].

❧ ❧ ❧

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٦٣ـ ٢٦٤.

المطلب الثالث: البخل:

إن الكلام عن البخل متصلٌ بما سَبَق فلولا حبِّه للدنيا لما أحبَّ المال، ولولا حبّه للمال لما بَخِل، فهذه الأمراض كلٌّ منها يؤدي للآخر ويُسببه إن لم يُعالج، فيَنبغي تفحُّص الإصابة بأي منها وعلاجُه قبل أن يَستشري ويُسبب غيره من الأمرض، فيصعب العلاج لها.

والبخلُ متعلِّقٌ بحبّ المال، ويُمكن الحديث عنهما معاً؛ لتشابه فكرتها ومرضهما، ولكن لانفراد كلّ منهما بوجوهٍ مختلفةٍ عن الآخر، ولأَهمية التَّنبيه على فكرة كلٍّ منهما كان الأَولى فصل كلِّ واحدٍ منهما في مطلبٍ مستبقل لإظهاره وتوضيحه والتنبيه عليه.

لذلك سنتحدث عن البخل من جهة معناه وذمِّه وفضل السخاء والإيثار وحقيقة السخاء والبخل وعلاج البخل في النقاط الآتية.

أولاً: معناه:

البخل: هو إمساك المال حيث يجب بذله بحكم الشرع كالزكاة والفطرة والأضحية والنذور والعشر وخراج الأرض والنفقات اللازمة أو بحكم المروءة[1].

فالامتناعُ عن أداءِ حقوق الله تعالى من زكاةٍ وفطرةٍ وأضحيةٍ غيرها يُعَدّ بخيلاً، فانظر كيف يفعل البخل بصاحبه بحيث يُوقعه في الكبائر من

---

(١) ينظر: طريقة محمدية٣: ٢٢.

المعاصي؛ لعدم قيامه بما أوجب الله تعالىٰ عليه.

ويمتنع عن الإنفاق علىٰ زوجته وأولاده ومن تجب عليه نفقتهم بما يستحقونه من النفقة، فيقتر عليهم في النفقة رغم أنها واجبة ولازمة عليه.

ويلزم علىٰ المرء نفقات متعددة مستحقة من جهة المروءة فيما يتعلق بالعلاقة مع الأصحاب أو الجيران أو غيرهم، فلا يؤدي ما لزمه عليه من جهة العرف والمروءة لبخله.

وبالتالي يكون البخلُ شاملاً لكلِّ حقٍّ ماليٍّ لزم علىٰ المرء سواء كان من جهةِ الشرع أو جهة العرف المروءة، فيدخل فيه نفقتُه في طعامه ولباسه، فإن لم يؤدها بحقها كان من البخل.

ثانياً: ذم البخل:

وردت نصوص قرآنية وحديثية تبين قبح هذه الصفة، ومنها:

قال تعالىٰ: {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}، ففي ظنّ الإنسان أن الفلاح بجمع المال وادخاره؛ لأنه يحقِّقُ رغبات الإنسان ويُعطيه السمعة لغناه، ولكن المولىٰ سبحانه يخبرنا بعكس تفكيرنا البشري القاصر أن الفلاح في إنفاقه لا في جمعه، ويرىٰ حقيقة هذا كل مَن يَعمل بهذه النصيحة الإلهية بأن الله تعالىٰ سيفتح له أبواب رزق عديدة لم يكن ليحصل عليها بالبخل، وكيف يُصبح لها سمعة طيبة بالإنفاق لا بالجمع؛ لأنّ كلَّ العقلاء يجمعون علىٰ ذمّ البخل ومدح السخاء.

وقال تعالى: {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة}، وهذا صريحٌ من القرآن بأن البخل شرّ في دنياه وأُخراه، وأنّ صاحبه له عقاب شديد في الآخرة.

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}[النساء:٣٧]، فمن شناعة البخل جمع سبحانه بينه وبين الكفر في آيةٍ واحدةٍ، فكان صفة خارج عن الإيمان وداخل في الكفر.

فعن جابر رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: « واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[(١)]، وهذا بيانٌ نبوي ببعض آثار البخل بحيث أنه يكون سبباً في القتل واستحلال المحارم؛ لشدّة تعلّق صاحبه بالمال، فيتجرّأ على هذه الموبقات، فيحذِّرنا منه أشدّ التحذير بأنه ضررٌ وشرٌّ عظيم يجب اتقاؤه والابتعادُ عنه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أَعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن»[(٢)]، فمن شدة ضرر البخل جعله النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه بحيث يلجأ الله تعالى بتخلصيه من جميع صوره لتجنب أذاه عليه، وهذا تعليم لنا.

---

(١) في صحيح مسلم٤: ١٩٩٦.

(٢) أخرجه البخاري، كما في المغني ٣: ٢٥٤.

وعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «شرُّ ما في الرجل شحٌ هالعٌ وجبنٌ خالع»(١)، كيف ربط النبي ﷺ بين البخل والجبن؛ لعظم ضرره، بل جعله ﷺ أكثر شرّ يُصيب المرء.

وعن أبي بكر رضي الله عنه، قال ﷺ: قال: «لا يدخل الجنة خبّ ـ المخادع ـ ولا مَنَّان ولا بخيل»(٢)، فالبخل من أسوء صفات صاحبه، فكان سبباً مانعاً من الجنة ونعيمها، فشارك المخادع والمنان في ذلك.

وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر.

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله بقوم شراً أمر الله عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حبّ ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغضٌ، ولو كانوا أبراراً(٣).

ثانياً: فضل السخاء والإيثار:

إن السخاء والبخل كلٌّ منهما ينقسم إلى درجات، فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة، وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشدُّ، وكما أنّ السخاوة

---

(١) أخرجه أبو داود، كما في المغني ٣: ٢٥٤.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٣٤٣، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ينظر: الإحياء٣: ٢٥٦.

قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لأكلها.

فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة، وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه، فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا يضعها الله تعالى حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء.

وقد أثنى الله على الصحابة ﷺ به، فقال: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}[1].

وإن المال إن كان مفقوداً، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وقلّة الحرص، وإن كان موجوداً، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصلٌ من أُصول النجاة[2].

ثالثاً: حقيقة السخاء والبخل:

المال خلق لحكمة ومقصود، وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٥٧.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٢٤٣.

يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط، وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، وقد قيل له: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط}، وقال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}.

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه.

فإن بذل في محلِّ وجوب البذل ونفسه تُنازعه، وهو يُصابرها فهو متسخ، وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال، إلا من حيث يراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

والواجب قسمان: واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أَبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤديها، ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع وإنما يتسخى بالتكلف، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه، فهذا كله بخل.

وأما واجب المروءة: فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة.

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع، إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره، ولعلّ حدّ البَخل هو إمساكُ المال عن غرض ذلك الغرض، هو أهم من حفظ المال، فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال، فمانع الزكاة والنفقة بخيل، وصيانة المروءة أهم من حفظ المال، والمضايق في الدقائق مع مَن لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحبّ المال، فهو بخيل.

ثم تبقى درجةٌ أُخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدِّي الواجب ويحفظ المروءة، ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس، وليس ببخل عند عوام الخلق.

فمَن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به، فقد تبرأ من البخل، ولا يوصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة، ونيل الدرجات، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع، ولا

تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير.

ودرجات ذلك لا تحصر، وبعض الناس أجود من بعض، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس، ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء، فإن مَن طمع في الشكر والثناء، فهو بيَّاع وليس بجواد، فإنه يشتري المدح بماله والمدح لذيذ، وهو مقصود في نفسه.

والجود هو بذل الشيء من غير عوض، هذا هو الحقيقة، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى، أما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز؛ إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذالة البخل، فيسمى جواداً.

فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه، فكل ذلك ليس من الجود؛ لأنه مضطر إليه بهذه البواعث[1].

رابعاً: علاج البخل:

إنّ البخل سببه حبُّ المال، ولحبِّ المال سببان:

١.حبُّ الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٥٩ـ ٢٦١.

الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنّه كان لا يبخل بماله؛ إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قليل، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، فيمسك لأجلهم.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة»(١).

فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

٢. **أن يحبَّ عين المال**، فمن النَّاس مَن معه ما يَكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذُّ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض، وهو يعلم أنه يموت، فتضيع أو يأخذها أعداؤه، فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة.

وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يُرجى علاجه.

وإنما علاج كلِّ علّة بمضادة سببها، فتعالج حبّ الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار وابن ماجة والحاكم وإسناده صحيح، كما في المغني٣: ٢٦١.

الأقران، وطول تعبهم في جمع المال، وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير، وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً، فالله كافيه، وإن كان فاسقاً، فيستعين بماله على المعصية، وترجع مظلمته إليه.

ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التَّأمل في الأخبار الواردة في ذمّ البَخل ومدح السخاء، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنّه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كلَّ بخيل من أصحابه، فيعلم أنّه مستثقلٌ ومستقذرٌ في قلوب النّاس مثل سائر البخلاء في قلبه.

ويُعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خُلق، ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله.

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة، هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإن تحركت الشهوة، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يَعِده الفقر ويُخوِّفُه ويصدُّه عنه.

ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل، واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال.

كما يُسلي الصَّبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يُسلط بعضها على بعض، كما تسلط الشهوة على الغضب، وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به.

إلا أن هذا مفيد في حقِّ مَن كان البخل أغلب عليه من حبِّ الجاه والرِّياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال، فلا فائدة فيه، فإنه يقلع من علة ويزيد في أُخرى مثلها، إلا أنّ علامةَ ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء، فلذلك يتبيّن أن الرِّياء أغلب عليه، فإن كان البذل يشقّ عليه مع الرياء، فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه.

وبالتالي علاجُ البُخل بعلم وعمل، فالعلمُ يَرجع إلى معرفة آفة البخل، وفائدة الجود والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يُعمي ويُصمّ، فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق

المعرفة لم تتحرك الرغبة، فلم يتيسر العمل، فتبقى العلّة مُزمنة كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء، وإمكان استعماله، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت[1].

المطلب الرابع: الإسراف والتبذير:

بعد الحديث عن حبّ المال والتعلق بحيث يوصل صاحبه للبخل والامتناع عن أداء الحقوق عليه شرعاً وعرفاً لزم بيان ما يُضاده، مما فيه ضرر محضّ من إضاعة المال في غير محلّه، فيُوقع صاحبه في التَّهلكة، وهو الإسراف والتَّبذير، وخير الأَمور أوسطها بأن لا يكون بخيلاً ولا مسرفاً، وإنما يكون سخياً.

ونعرض فيه هذا المطلب لمعنى الإسراف وذمه وأنواع الإنفاق في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

وهو بذل المال حيث يجب إمساكه بحكم الشَّرع أو بحكم المروءة[2].

فالإسراف على الضدِّ من البُخل، فإن أَنفق المال فيما حَرَّمَ اللهُ تعالى من الفواحش، فهو إسرافٌ.

وإن أَنفق المال زيادةً على ما يتطلبُه العرفُ والمروءة في طعام أو لباس أو ركوب أو سكنى أو أثاث أو غيرها من الحاجة العلاقات الاجتماعية

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٦١ـ ٢٦٣.

(٢) ينظر: طريقة محمدية٣: ٣.

والصدقات فهو إسراف.

فكان لزاماً أن ننفق بموافق الشرع والعرف والمروءة ليتحقق الاعتدال والكمال؛ لأن كلاً من البخل والإسراف مذموم، فكان التوسط هو الممدوح.

لذلك قالوا: الإمساك محل البذل بخل، والبذل محل الإمساك تبذير، والوسط هو الجود والسخاء، ولا يكفي مجرد فعل الجوارح بدون طيب النفس[1].

فيشترط في تحقق السخاء مع بذل المال بالجوارح وجود الرضا في القلب والطيبة في النفس، وهذا يقتضي المجاهدة لتحققه مرة بعد مرة، فيكون ما ينفقه عن طيبة نفس.

ثانياً: ذم الإسراف:

إن الإسراف حرام قطعاً، وهو مرض قلبي وخلق رديء، ولا تظنن أنه أدنى كثيراً من البخل بسبب كثرة ما ورد في ذم البخل بخلاف الإسراف؛ لأنّ ذلك بسبب كون أكثر الطباع مائلة إلى الإمساك، فاحتاج إلى كثرة الزواجر حتى تنفر منه وتشتاق إلى الإنفاق.

وحسبك في الإسراف قوله تعالى: {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} [الأعراف: ٣١] حيث علل الإسراف بعدم محبة الله تعالى، ولا شيء أَقبح مما يمنع محبة الله تعالى؛ إذ الإسراف موجب نفي محبته تعالى.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٣: ٥.

وقوله تعالىٰ: {ولا تبذر تبذيرا} [الإسراء: ٢٦] بصرف مالك فيما لا ينبغي، ثم قال: {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين} [الإسراء: ٢٧]: أي أمثالهم في الشرارة والخباثة أو أحباء الشياطين وأتباعهم.

وقال تعالىٰ: {ولا تجعل يدك مغلولة إلىٰ عنقك} [الإسراء: ٢٩] أي لا تجعل يدك مربوطة إلىٰ عنقك من كثرة البخل مخافة أن تغلط وتعطي، {ولا تبسطها كل البسط} [الإسراء: ٢٩] في الإعطاء، فتمثيلان لمنع الشحيح، وإسراف المبذر نهىٰ عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم، {فتقعد ملوما} [الإسراء: ٢٩] فتصير ملوماً عند الله تعالىٰ، وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير، {محسورا} [الإسراء: ٢٩] نادماً أو منقطعاً بك[1].

فعن المغيرة بن شعبة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله تعالىٰ كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[2]، وإضاعة المال تكون بإنفاقه في غير محله، وهو كره الله تعالىٰ لنا.

ثالثاً: أنواع الإنفاق:

طالما أن بحثنا في البخل والإسراف متعلِّقٌ بإنفاق المال، فيكون إنفاق المال علىٰ ضربين:

١. **الممدوح**: وهو ما يكسب صاحبه العدالة، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله، كالصدقة المفروضة، والإنفاق علىٰ العيال، ومنه ما يكسب

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ٢ـ٣.

(٢) في صحيح البخاري٢: ١٢٤.

صاحبه أجرًا وهو الإنفاق على من ألزمت الشريعة الإنفاق عليه، ومنه ما يكسب صاحبه الحرية، وهو بذل ما ندبت الشريعة إلى بذله، فهذا يكتسب من الناس شكرًا، ومن ولي النعمة أجرًا.

٢. **المذموم**، وله جانبان:

أ. إفراط: وهو التبذير والإسراف.

ب. **تفريط**: وهو التقتير والإمساك، وكلاهما يراعى فيه الكيفية والكمية.

فالتبذير من جهة الكمية أن يُعطي أكثر مما يحتمله حاله.

ومن جهة الكيفية بأن يضعه في غير موضعه، والاعتبار فيه بالكيفية أكثر منه بالكمية، فربّ منفق درهمًا من ألوف وهو في إنفاقه مسرف وببذله مفسد ظالم: كمَن أعطى فاجرة درهمًا، أو اشترى خمرًا.

ورُبَّ منفق أُلوفًا لا يَملك غيرها هو فيها مقتصدٌ وببذلها مجتهدٌ، كما روي في شأن الصِّديق أبي بكر رضي الله عنه.

وقد قيل لحكيم: متى يكون بذل القليل إسرافًا والكثير اقتصادًا، قال: إذا كان بذل القليل في باطل وبذل الكثير في حقّ.

والتقتيرُ من جهة الكمية: أن ينفق دون ما يحتمله حاله.

ومن حيث الكيفية: أن يمنع من حيث يجب، ويضع حيث لا يجب.

والتبذيرُ عند النّاس أحمد؛ لأنه جوّد لكنه أكثر مما يجب، والتقتير بخلٌ، والجود علىٰ كلِّ حال أحمد من البخل؛ لأنّ رجوع المبذر إلىٰ السَّخاء سهلٌ، وارتقاء البخيل إليه صعبٌ، ولأنّ المبذر قد ينفع غيره وإن أضرّ بنفسه، والمقتر لا ينفع غيره ولا نفسه.

علىٰ أنّ التبذيرَ في الحقيقة هو من وجهٍ أَقبح؛ إذ لا إسراف إلا وبجانبه حقٌّ مضيَّع، ولأنّ التبذير يؤدِّي بصاحبه إلىٰ أن يظلم غيره، ولهذا قيل: الشَّحيحُ أعذر من الظالم؛ لأنه جاهلٌ بقدر المال الذي هو سبب استبقاء النفس، والجهل رأس كلِّ شرٍّ، والمتلافُ المبذر ظالم من وجهين: لأخذه من غير موضعه، ووضعه في غير موضعه.

ولكثرة مذام الإسراف ذم اللهَّ تعالىٰ أعظم مما ذم به البخل فقال: {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}، وقال: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} ملومًا من جهة من سألك فلم تجد ما تعطيه، وحسيرًا عن بلوغ مرادك.

وليس الإسراف متعلقًا بالمال فقط، بل بكلِّ شيء وضع في غير موضعه اللائق به، ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ وصف قوم لوطٍ بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث، فقال تعالىٰ: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} .

ووصف تعالى فرعون بقوله: {إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ}، وقوله: {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ}[1].

المطلب الخامس: طول الأمل:

إنّ حبَّ الدُّنيا يُفضي إلى طول الأمل، وطول الأمل يفضي إلى حب الدنيا، فكلٌّ من هذه الأمرض ينفذ لغيره، وإن كان أثر حبّ الدنيا في طول أكثر وأبلغ.

وسبق ذكر كلام الغزاليّ في عدِّ طول الأَمل من الأُمهات الأربعة الرئيسية لأمراض القلب؛ لأنه له أثر ظاهراً في غيره من الأمرض القلبية.

ونتكلم في هذا المطلب عن معنى طول الأمل وغوائله وسببه وأنواعه في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

طول الأمل: وهو إرادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم بلا استثناء نحو: إن شاء الله، ولا شرط صلاح.

يعني طول الأمل بشرط إرادة اكتساب الصَّالحات في الزمان المتأخر حسنٌ؛ ولهذا قال ابن الجوزي: الأمل مذموم إلا للعلماء فلولاه ما صنَّفوا، فالقول: إني أعيش بعد نفس ثان مثلاً بلا إن شاء الله طولُ أمل[2].

---

(١) ينظر: الذريعة في مكارم الشريعة ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٢)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٢: ١١٦.

فإن قيَّد بالمشيئة للهِّ تعالىٰ بأن تقول: أعيش إن شاء اللهّ تعالىٰ، فقد خرجت عن حكم طول الأمل ووصفت بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه.

ويمكن أن يكون الذكر للمشيئة في القلب لا في اللسان، بحيث يتحقق توطين القلب علىٰ ذلك والتثبيت للقلب عليه[١].

فتحصَّل أنّ الخلاصَ من طول الأمل يكول بأن لا تعتقد الحياة لحظة واحدة بعد اللحظة التي أنت فيها إلا بمشيئة الله تعالىٰ، فمَن كان مستحضراً لهذا طوال وقته كان خارجاً عن الغفلة بطول الأمل، إلا إذا كان أَمله فيما يتعلَّق بفعل الخيرات والصالحات، فإنه لا يعدُّ حينئذ مذموماً؛ لكون عزم علىٰ العيش لله تعالىٰ.

والمذموم في طول الأمل هو الغفلة بالاعتماد علىٰ الذات ونسيان الوظيفة الرَّبانية من وجودك والتعلق بالدنيا ومتاعها وشهواتها، فمَن استطاع أن يتجرد لله تعالىٰ، ويخرج عن زخارف الدنيا وزينتها، وترك الاعتماد علىٰ غير الله تعالىٰ والتَّعلُّق بسواه في كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ حياته لم يكن مصاباً بمرض طول الأَمل؛ لأنّ سببه الغفلة عن الله تعالىٰ، فمَن يعيش لله تعالىٰ ولدينه لا يكون غافلاً.

---

(١)ينظر: مجموع رسائل الغزالي ص١٤٤.

ثانياً: غوائله:

لا شك أن غوائل وآثار طول الأمل يصعب حصرها، قال الغَزَاليُّ[1]: «طول الأمل عائق عن كلِّ خير، وجالبٌ لكلِّ شر وفتنة الذي يوقع الخلق في جميع البليات»، ولذلك نقتصر على ذكرها بعضها، وهي:

١.**الكسل**: أي ترك العمل مع القدرة عليه في الطاعة بالتثقيل من الفرائض والواجبات والتقاعد عن السنن والمستحبات، والتكره في اجتناب المحرمات والمكروهات، وتأخيرها لأمل إدراك زمن يوقعها فيه بعد، فتخرج عن وقتها المطلق أو المستحب، ولا يبعد أن يراد من التأخير الترك بتسويف القضاء.

٢.**تسويف التوبة تأخيرها**؛ لأنه إنما يؤخرها على رجاء إدراك الوقت المتراخي في اعتقاده بأن يقول سوف أتوب، وفي أيامنا سعة، وأنا شاب، وأنا قادر عليها متى أردت.

٣.**قسوة القلب** بأن لا يتأثر بالمواعظ والزَّواجر بعدم ذكر الموت؛ لأنك إذا أملت العيش الطويل لا تذكر الآخرة، بل لا تذكر الموت ولا القبر، فإذا يصير فكرك في الدنيا فيقسو قلبك من ذلك كما قال اللهّ تعالى ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٦]، وإنما رقة القلب وصفوه بذكر الموت والقبر وأحوال الآخرة[2].

---

(١)في مجموع الرسائل ص١٤٣.

(٢)ينظر: رسائل الغزالي ص١٤٣.

قال اللفاف: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسيه عوقب بثلاث: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة، فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه ومن حاكم ما أعدله، فكفى بالموت مفزعاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات وهاذماً للذات، وقاطعا للأمنيات.

٤. **الحرصُ على جمع الدنيا**، والاشتغال بالدنيا عن أعمال الآخرة، كما قال تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين} [آل عمران: ١٤][١].

ثالثاً: سببه:

إن تعلَّق القلب بالدنيا ومتاعها السبب المفضي لطول الأمل؛ لأنه رغبته بالعيش والتمتع يجعله راغباً بالحياة في الزمن القادم، وهذا ناتج عن الغفلة عن حقارة الدنيا وعظم نعيم الآخرة وعن قرب الأجل.

قال البركلي والخادمي: «حبُّ الدنيا الذي هو الداء المشكل الشديد عجز الأولون والآخرون عن دوائه، والغفلة عن قرب الموت، فإن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور، ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة

---

(١)ينظر: بريقة محمودية٢: ١١٦.

عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا، والاغترار بالصحة والشبا»[١].

ثالثاً: علاجه:

علاج كل مرض بإزالة أسبابه، وسبب طول الأمل: حب الدنيا والغفلة، فيكون دواء حب الدنيا بمعرقة حقيقتها كما سبق، وتذكر أحوالها.

قال الغزالي: مهما غلب على القلب ذكر الدنيا ومقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله ارتحل الشيطان وضاق مجاله[٢].

ودواء الغفلة بالمداومة على ذكر الموت وقربه ومجيئه بغتة على غفلة؛ إذ ليس له وقت معين كالمرض والشيب، وإن الصحة ودوامها، والشباب لا يمنع الموت[٣].

قال الغَزاليُّ[٤]: «واعلم أن حصن تقصير الأمل هو ذكر هجوم الموت وأخذه على غفلة وغرة فاحتفظ بهذه الجملة، فإن الحاجة ماسّة إليها ودع عنك القيل والقال من غير طائل».

---

(١)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية ص٢: ١٢٢.

(٢) ينظر: بريقة محمودية٢: ١٣٩.

(٣) ينظر: بريقة محمودية٢: ١٢٢.

(٤) في رسائله ص١٤٥.

فعن عمار ﷺ، قال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»[1]، فلا أبلغ من تذكر الموت واستحضاره في تقصير الأمل وفعل الخيرات.

رابعاً: أنواع الأمل:

ليس طول الأمر مذموماً مطلقاً، وإنما يكون مذموماً إن لم يكن في فعل الخيرات والصالحات؛ ذلك كان الأمل على ضربين:

١. **أمل العامة**، وهو مذموم، بأن يريد البقاء لجمع الدنيا والتمتع بها، فهذه معصية وضدها قصر الأمل.

٢. **أمل الخاصة**، وهو ممدحوح، بأن يريد البقاء لإتمام عمل خير فيه خطر، وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه، فإنه ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه أو في إتمامه صلاح، بل يقع في أنه لا يقوم بهذا الخير، فإذا ليس للعبد ابتداء في صلاة أو صوم أو غيرهما أن يحكم بأن يتمه؛ إذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعاً، بل يقيده بالاستثناء وشرط الصلاح ليتخلص من عيب الأمل.

وضدُّ هذا الأمل فيما قال العلماء: النية المحمودة؛ لأن الناوي بالنية المحمودة يكون ممتنعاً من الأمل فهذا حكمه.

---

(١) في مسند القضاعي ٢: ٣٠٢، وشعب الإيمان ١٣: ١٣٦.

وأما النية المحمودة: فهي الأصل الأصيل وقد ذكروا في حدها الجامع التام أنها إرادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الأعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء(١).

المطلب السادس: الأنس بالناس:

الأنسُ بالناس من متاع الدنيا، فكان داخلاً في حبِّ الدُّنيا والتَّعلق بها، فكان مذموماً؛ لما فيه من الإعراض عن الله تعالى وقضاء الوقت في غير مصلحة دنيوية أو دينية يكون له فيها الأجر والثواب.

فيكون الكلام في هذا المطلب عن معناه وسببه.

أولاً: معناه:

الأنس بالناس: هو محبة قضاء الوقت مع غيره بلا فائدة دنيوية او أخروية.

فلا يكون من الأُنس إلا إذا كان رغبة ومحبة في قضاء وقته مع الناس، ولم يكن في قضاء وقته مصلحة دنيوية بتعلم أو عمل ما، وإنما مجرد الأنس وقضاء الوقت.

وإن كان محبته لصحبة غيره للاستفادة منه لدينه بالتعلم وأخذ العبرة وقضاء حقه بالزيارة لصلة رحمة أو أداء واجب فلا يكون مذموماً.

(١) ينظر: رسائل الغزالي ص١٤٤.

قال الخادمي[١]: «الأنس بالناس والوحشة بفراقهم بدون فائدة دينية؛ إذ الأنس بالعلماء والصلحاء ممدوح، وهذا مذموم؛ لأنه ناشئ من نسيان الآخرة ومفض إلى تعطيل الأوقات الموضوعة للطاعة، وأن أكثر المعاصي كالكبر والغيبة والنميمة والرياء وحبّ رأس كلّ خطيئة يتولد من ذلك، قال تعالى: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} [الزمر: ٤٥]».

قال أبو بكر الشِّبلي: ومن علامةِ الإفلاس ـ خلو القلب عن معرفته تعالى وبعده عن جناب قدسه تعالى ولذة العبادة والذكر والفكر ـ الاستئناس بالنّاس[٢].

قال تعالى: {وكونوا مع الصادقين} [التوبة: ١١٩]، فهذا إرشادٌ إلهي أن لا يكون استئناس إلا مع الصادقين حتى نعمر أوقاتنا في الطاعات.

ثانياً: سببه:

الأنس بالناس نتيجة حبّ الدنيا ومتاعها؛ لأنها الأنس شيء من متاعها، وسبب هذا الغفلة عن حقيقة الدنيا والبعد عن ذكر الله والتنعم بقربه فراراً من أذى الناس وطلباً للنعيم المقيم في الآخرة.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٣: ١٢٩.

(٢) ينظر: بريقة محمودية٣: ١٢٩.

قال الخادمي[١]: «الأنس بذكر الله تعالى الذي هو أفضل الطاعات بالإطلاق، وأقرب القربات بالاتفاق، وبه وصل الواصلون وبتركه سقط الساقطون؛ إذ شرف الذكر على قدر شرف مذكوره.

وقالوا: اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها.

فعلى العاقل أن يجعل الذكر والطاعة كالغذاء له، وذا إنما يتحصل بتطهير القلب عما سوى الله، وتنويره بذكره إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وحفظ الجوارح والأركان عن كل ما لا ينبغي له بصرف كل إلى ما خلق له، فإن امرأ لو ذهب ساعة من عمره إلى غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة».

وقال ابن يزدانيار: إياك أن تطمع في الأُنس بالله وأنت تحبُّ الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حبِّ الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس[٢].

المطلب السابع: الشره على الطعام والجماع:

لما كان المبالغة في شهوة البطن والفرج من حب الدنيا ومنفذاً لها كان الأولى ذكره في أخوات حبّ الدنيا، قال الغزالي[٣]: «وبالجملة سبب هلاك

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٣: ١٣٠.

(٢)ينظر: الرسالة القشيرية ص١٣١.

(٣) في الإحياء٣: ٨٨.

الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج شهوة البطن، وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها، وهي أبواب النار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة».

أولاً: فضيلة الجوع وذم الشّبع:

فعن نافع، قال: «كان ابن عمر، لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلا يأكل معه فأكل كثيرا، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا علي، سمعت النبي ﷺ يقول: المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[١]: أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن، أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، وذكر المعي كفاية عن الشهوة؛ لأن الشهوة هي التي تقبل الطَّعام وتأخذه، كما يأخذ المعي وليس المعنى زيادة عدد معي المنافق على معي المؤمن.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرّ، حتى مضى لسبيله»[٢]، وهذا انصراف من النبي ﷺ عن الدنيا وملذاتها وشهواتها.

قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات.

وقال شقيقُ البلخي: العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة.

---

(١) في صحيح البخاري٧: ٧١.

(٢) في صحيح مسلم٤: ٢٢٨١.

قال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال سهل التستري: لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا... ولا أعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل، ... وضعت الحكمة والعلم في الجوع، ووضعت المعصية والجهل في الشبع،... ورأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع...، ومن جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس...، وإقبال الله تعالى على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله تعالى.

وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر، وهو العود المجوف ذو الأوتار إنما حسن صوته لخفته ورقته؛ لأنه أجوف غير ممتلئ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام[1].

وقال الغزاليُّ: «إنّ أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما .

والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات؛ إذ يتبعها شهوة الفرج، وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال، اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات

(١) ينظر: الإحياء٣: ٨٢ـ ٨٣.

وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء.

ولو ذلَّل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله تعالى ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا، وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كلّ هذا التكالب على الدنيا»[1].

ثانياً: حكم الأكل:

للأكل أحكام مختلفة بحسب مقدار الأكل والحال على النحو الآتي:

١.الفرض: وهو قدرُ ما يندفعُ به الهلاك، ويمكن معه الصلاة قائماً؛ لأنه لإبقاء البنية، وهو سببه يتوصل به إلى إقامة الفرض، فهو فرض، ولأن في تركه إلقاء النفس في التهلكة، قال تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}، وهو مأجور على ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ﷺ: «عجبت للمسلم، إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كلِّ شيءٍ حتى في اللُّقمة يَرفعها إلى فيه»[2].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٨٠.

(٢) في شعب الإيمان١٢: ٣٣٥، ومسند الطيالسي١: ١٧١.

٢.مستحب: وهو ما زاد عليه؛ ليتمكن من الصلاة قائماً ويسهل عليه الصوم؛ لأنّ الاشتغالَ بما يَتَقَوَّىٰ به علىٰ الطَّاعةِ طاعةٌ، فعن أبي هريرة ، قال : «المؤمنُ القَوي خيرٌ وأَحَبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ احرص علىٰ ما يَنْفَعُكَ، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٍ، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قَدَّرَ الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

٢.مباح: وهو أدنى الشبع بنيّة أن يَقْوَى على العبادة؛ لتزداد قُوَّةُ البَدن، ولا أَجر فيه ولا وِزْر، فعن عثمان بن عفان ، قال : «ليس لابن آدم حقّ في سوىٰ هذه الخصال، بيتٌ يسكنُه وثوبٌ يُواري عورتَه وجلف الخبز والماء»(٢).

ويحاسب فيه حساباً يسيراً إن كان من حلّ، قال تعالىٰ: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}[التكاثر:٨]، فعن أبي هريرة ، قال: «خرج رسول الله ذات يوم ـ أو ليلة ـ فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أَخرجكما، قوموا، فقاموا معه، فأتىٰ رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيتِهِ، فلَمّا رأته المرأة، قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله : أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلىٰ

---

(١) في صحيح مسلم٤: ٢٠٥٢.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٥٧١، وصححه.

رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إياك، والحلوب، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلَمّا أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النَّعيم»[1].

وعن مقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطن، بحسب ابن آدم أَكْلات يُقِمن صُلْبه، فإن كان لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلُث لنفسِهِ»[2]

٣.حرام: وهو الأكلُ فَوْقَ الشَّبع؛ لأنّه إضاعةٌ للمالِ وإمراضٌ للنَّفس، ولأنّه تبذيرٌ وإسرافٌ، فعن سلمان رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا، أطولهم جوعًا يوم القيامة»[3].

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه، قال: «أكلت لحماً كثيراً وثريداً، ثم جئت فقعدت حيال النبي ﷺ فجعلت أتجشأ فقال: أقصر من جشائك، فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة»[1].

---

(١) في صحيح مسلم٣: ١٦٠٩.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٥٦٠، وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي الكبرى٦: ٢٦٨، وصحيح ابن حبان٢: ٤٤٩.

(٣) في سنن ابن ماجة٢: ١١١٢، ومسند البزار٦: ٤٦١.

وعن ابن سيرين، قال: جاء رجل إلى ابن عمر ﷺ، فقال: ألا نضع لك جَوارش؟ قال: لأي شيء الجوارش؟، قال: شيء إذا كظك الطعام فأكلت منه سهل عليك ما تجد، قال ابن عمرُ: ما شبعت منه أربعة أشهر، وما ذاك بأني لا أكون أجده، ولكن عهدت أقواماً يجوعون مرّةً ويَشْبعون مرّةً»[٢].

ويستثنى من ذلك أن يكون زيادة الأكل للصوم في غدٍ؛ لأنّ فيه فائدةً، **أو لئلا يَستحي الضَّيف**؛ لأنّه إذا أَمْسَكَ والضَّيفُ لم يَشْبَعْ رُبَّما استحيى، فلا يَأكل حَياءً وخَجلاً، فلا بَأس بأكلِهِ فَوْقَ الشَّبع؛ لئلا يكون ممَّن أَساءَ القِرى، وهو مَذْمومٌ عَقلاً وشَرعاً، وقد أمرنا بأكرامه[٣].

ثالثاً: فوائد الجوع وآفات الشبع:

١. صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب.

قال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب، وهو يورث العلم السَّماوي.

وقال الشِّبلي: ما جعتُ لله تعالى يوماً إلا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط.

---

(١) في المستدرك٤: ٢٦٤، وصححه، والمعجم الأوسط٨: ٣٧٨.

(٢) في إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١٠٦، وحلية الأولياء١: ٣٠٠.

(٣) ينظر: الهدية ص٢٥٦، والاختيار٤: ١٧٣.

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحقّ، والشبع يمنع منه، والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة، فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة.

قال أبو يزيد البسطامي: الجوع سحاب، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة.

فالبطن والفرج باب من أبواب النار، وأصله الشبع، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة، وأصله الجوع، ومَن أغلق باباً من أبواب النار، فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة؛ لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقُرب من أحدهما بعد من الآخر.

٢.رقّةُ القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجيء على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذ به، ولا يتأثر حتى كان وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرقّ في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

قال الدارانيُّ: أحلى ما تكون إليّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني.

وقال الجنيدُ: يجعل أحدهم بينه وبين صدقه مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة.

٣.الإنكسار والذّلُّ وزوال البطر والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، ولا تنكسر النفس ولا تذلّ بشيء كما تذل بالجوع، فعنده

تسكن لربّها، وتغشع له، وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت، وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها، وما لم يشاهد الإنسان ذلّ نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «سيصيب أمتي داء الأمم، فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي»[1].

وإنما سعادته أن يكون مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر، فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطرار بالذوق.

٤. **أن لا ينسى بلاء الله تعالى وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء**، فإن الشبعان ينسى الجائع ويَنسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون، فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة، ولم يتمثل في نفسه، ولم يغلب على قلبه.

---

(١) في المستدرك ٤: ١٨٥، وصححه.

فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، وأولىٰ ما يُقاسيه من البلاء الجوع، فإن فيه فوائد جمّة سوىٰ تذكر عذاب الآخرة، وهذا أحد الأسباب الذي اقتضىٰ اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء.

٥. كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات، والقوىٰ ومادة القوىٰ والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كلّ شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

وإن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلىٰ هذه الدنيا، وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد، ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالىٰ، وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام، فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كلِّ ذلك، وإذا شبع افتقر إلىٰ فاكهة، فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

٦ .دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، قال أبو سليمان الداراني: النوم منبع الآفات، والشبع مجلبة له، والجوع مقطعة له.

٧. **تيسير المواظبة على العبادة،** فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه.

٨. **يستفيد من قلّة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض،** فإن سببها كثرة الأكل، وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش، ويحوج إلى القصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

٩. **خفة المؤونة، فإن مَن تعوَّد قلَّة الأكل كفاه من المال قدر يسير،** والذي تعوَّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً بمخنقه في كلِّ يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام، فيعصي أو من الحلال فيذلّ، وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس، وهو غاية الذلّ والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة.

قال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك، فيكون ذلك أروح لقلبي.

وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي، فتركت الشهوة، فهي خيرٌ غريم لي.

١٠.أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة، ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا[١].

رابعاً: الرياضة بالجوع:

إن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق الوسط؛ إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومن أسرار حكمة الشريعة أن كلّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى، وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومىء عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أن المقصود الوسط؛ لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثاً، والشرع مانعاً، فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإن مَن يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية، فإنه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته.

---

(١) ينظر: إحياء العلوم الدين٣: ٨٤ـ ٨٨.

والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحسُّ بثقل المعدة، ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه، فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها.

فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقي للمأكول فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام، وألم الجوع وغاية الإنسان الاقتداء بهم، وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}، ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر، وخَفَّ في نفسه وقوي على العمل مع خفته، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع.

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط، فالاعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع، كما يُبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضةً بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه، فيأمره بالجوع وهو لا يجوع، ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يمتنع هو منها؛ لأنه قد فرغ من تأديب نفسه، فاستغنى عن التعذيب.

ويدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات:

أ.أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها، فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة، وهذا هو الشرك الخفي.

ب.أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به، فيشتهر بالتعفف عن الشهوات، فقد خالف شهوة ضعيفة، وهي شهوة الأكل، وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه، وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام، فليأكل فهو أولى له.

وبالجملة مَن ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمَن هرب من عقرب وفزع إلى حية؛ لأنّ شهوة الرياء أضرُّ كثيراً من شهوة الطعام[1].

وضابطُ جواز الرياضة بترك الأكل أن لا يَضعف عن فعل العبادات، قال الرازي[2]: «ولا تَحِلّ الرياضةُ بتقليل الأكل إلى أن يضعفَ عن أداء العبادات، ولو واصل أَربعين يوماً فمات مات عاصياً»؛ لأنه قاتل لنفسه بترك

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٩٦ـ٩٩.

(٢) في تحفة الملوك ص ٢٧٢.

للأكل، وليس من الرِّفق أن يُجيعَها ويُذيبَها، ولأنّ تركَ العبادة لا يجوز، فكذا ما يُفضي إليه[١].

فعن هشام بن حسان، فقال: «إن دجاجة كان من أصحاب علي بن أبي طالب، وإنه قال: اتخذ أبو الدرداء ظلة يقيل فيها فقيل له في ذلك، فقال: إن نفسي مطيَّتي، فإن لم أرفق بها لم تبلغني»[٢].

أما تجويع النفس على وجه لا يعجز عن أداء العبادات فهو مباح، وفيه رياضة النفس وبه يصير الطعام مشتهى بخلاف الأول، فإنه إهلاك النفس، وكذا الشاب الذي يخاف الشبق لا بأس بأن يمتنع عن الأكل ليكسر شهوته بالجوع على وجه لا يعجز عن أداء العبادات[٣]، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٤].

خامساً: فضيلة تحصين الفرج:

سلط الله تعالى شهوة الوقاع على الإنسان لفائدتين:

أ.أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة، فإن لذّة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد.

---

(١) ينظر: الاختيار ٤: ١٧٣.

(٢) في شعب الإيمان ٦: ٤٠٨، والزهد لابن المبارك ص ٤٧٠.

(٣) ينظر: الفتاوى الهندية ٥: ٣٣٦.

(٤) في صحيح البخاري ٢: ٦٧٣.

ب. بقاء النسل ودوام الوجود.

وإن التزوج يحصن الفرج، وفي تركه يخشى الوقوع في بلية لا يطيقها، وزنا العين من كبائر الصغائر، وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة، وهي زنا الفرج، ومَن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه، فيتفرق عليه همه، ويتشتت عليه فكره، فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات.

وينبغي أن يكون الأنس بالله تعالى والقرب منه لا بالزوجة فحسب؛ لأن من أنس بغير الله تعالى شغل عن الله تعالى، وكلُّ ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان[1].

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[2]؛ لكثرة الرغبة بين الرجال والنساء في بعضهم البعض، فإن لم تقضى هذه الرغبة بطريقة صحيحة قضيت بطريق الفاحشة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال ﷺ: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[3]، هذا إخبار من النبي ﷺ أن شهوة الفرج من أعظم فتن الدنيا، فيجب تحصين المجتمع بالزواج والعفة بحيث لا تتبرّج النّساء ولا تختلط بالرجال إلا لحاجة.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٠١.

(٢) متفق عليه، كما في المغني٣: ١٠٣.

(٣) أخرجه مسلم، كما في المغني٣: ١٠٣.

قال الغزالي[١]: «وأعظم الشهوات شهوة النساء، وهذه الشهوة لها إفراط وتفريط واعتدال، فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش، وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين:

أ. أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع، كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام.

ب.أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق، وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، فيستسخر العقل لخدمة الشهوة، وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها».

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لكل ابن آدم حظّه من الزِّنا، فالعينان تزنيان وزناهما النَّظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِّجلان تَزنيان وزناهما المشي، والفم يَزني وزناه القبلة، والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»[٢]، فكل جوارح الإنسان له حظه من المعاصي، وهي تنفذ لبعضها البعض بحيث يرتكب الكبائر كالزنا، فعلينا نتجنبها مهما صغرت.

وقالت رابعة: الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن.

---

(١) ينظر: في الإحياء٣: ٩٩ـ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له، كما في المغني٣: ١٠٣.

وقال سعيد بن المسيب: ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء»[1].

قال الغزاليّ[2]: «إنّ هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه، ويخشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر، ففي هذه العوائق فائدة، وهي دفع الإثم، فإنّ مَن ترك الزنا اندفع عنه إثمه، بأي سبب كان تركه.

وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب لا سيما عند صدق الشهوة، وهذه درجة الصديقين».

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «مَن عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد»[3]، ولو حصل العشق فعلاً من طرف لآخر، فإن الحديث يرشدنا أنّ عليه أن يكتم ذلك ويعفّ حتى لو مات كاتماً عفيفاً فإنه شهيد بذلك؛ لأنّ في الكتمان والعفة حفظ المجتمع من الإنزلاق إلى الفاحشة وغلقاً لمداخل للشيطان.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٠٤.

(٢) في الإحياء٣: ١٠٥.

(٣) أفرد الحافظ السيد أحمد الصديق الغماري هذا الحديث بكتاب خاص في إثباته سمّاه: درء الضعف عن حديث من عشق فعفّ.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، وعد منهم: «رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين»[1]: وعدٌ بالجزاء العظيم لمن يمتنعُ عن الوقوع في الفاحشة؛ ليكون ممن يظلهم تعالى.

ﻫﻫﻫ

---

(١) في صحيح البخاري٨: ١٨٣.

المبحث الثاني
الكبر وإخوانه

يُعَدُّ الكبر أساس الشرور في بني آدم؛ لما له من الآثار السلبية التي تظهر عامة سلوك صاحبه، فكان من أُمهات الأمراض للقلب الذي يتشعَّب عنه ما لا يحصى من الأَمرض، ومن الأمراض التي تشابهه في حاله، وينفذ كلٌّ منها إلى الآخر في صفاتِهِ كالعجب والغرور وغيرها مما سنذكره في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الكبر:

الكبر لها هيئات متعددةٌ، وله حدٌّ أدنى وأعلى، ولا يكاد يخلو أحدٌ من نوع أو شيء من الكبر، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]، فيكون معناه على ذكر النووي[2]: «الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين: أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه، وقيل: هذا جزاؤه لو جازاه وقد يتكرم بأنه لا يجازيه، بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة إما أولاً وإما ثانياً بعد تعذيب بعض

---

(١) في صحيح مسلم رقم ٩١.

(٢) في شرح صحيح مسلم٢: ٩١.

أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها، وقيل: لا يدخلها مع المتقين أول وهلة».

ففي هذا المطلب نعرض لمعنى الكبر وذم الكبر وفضيلة التواضع والفرق بين التواضع والمهانة وأقسام الكبر ودرجات المتكبر عليه وأنواع المتكبر به والبواعث على التكبر وأخلاق المتكبرين وعلاج الكبر في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الكبر: خاطر في رفع النفس واستعظامها[1]، أو ارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق[2].

والتكبر اتباع ما ينافي التواضع.

فالتواضع هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن وما في معناهما، والتكبر في مقابلته الترفع عن ذلك، وهو معصية كبيرة، وحصن التواضع العام هو أن تذكر مبدأك ومنتهاك، وما أنت عليه الآن من ضروب الآفات والأقظذار.

والكبر هو الخصلة المهلكة رأساً[3].

---

(١) ينظر: ينظر: رسائل الغزالي١: ١٤٥.

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم٢: ٩١.

(٣) ينظر: رسائل الغزالي١: ١٤٥.

ثانياً: ذم الكبر:

ذمَّ الله تعالىٰ الكبر في مواضع من كتابه، وذمَّ كلَّ جبار مُتكبر، وكذا كثر الذم له عن رسول الله ﷺ في العدد من الأحاديث مما ذكر بعضها في هذا المطلب، ونقف الآن علىٰ شيء من الذم الوارد:

قال تعالىٰ: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}، بيان بأن الكبرَ مانعٌ من الهداية؛ لأنّ المتعالي يترفَّع عن قَبول الحقّ، ولا يَبحث عنه، فكيف سيصل له، وعدم الوصول للحقّ في الدُّنيا هو أَسوأ ما يُبتلىٰ به أحدٌ.

وقال تعالىٰ: {كذلك يطبع الله علىٰ كل قلب متكبر جبار}، والطبع يكون بعدم دخول الخير والهداية لهذا القلب، وهو أشدّ عقوبة ينال الإنسان، وكل هذا ناتج عن التكبر، الذي يعدُّ أضر الأخلاق بصاحبه.

وقال تعالىٰ: {واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد}: أي استفتح الكفار علىٰ الرسل ظناً منهم بأنهم علىٰ الحقّ والرسل علىٰ الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه[1].

وقال تعالىٰ: {إنه لا يحب المستكبرين}: فالحرمان من محبّةِ أشدِّ عقوبة ينالها الإنسان، فكل متكبر محروم من هذه المحبة الإلهية.

(١) ينظر: تفسير النسفي ٢: ١٦٧.

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا}: أي أضمروا الاستكبار عن الحق، وهو الكفر، والعناد في قلوبهم، {وعتوا} وتجاوزوا الحد في الظلم {عُتُوّاً كَبِيراً}، وصف العتو بالكبر، فبالغ في إفراطه: أي أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو(١).

وقال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، فالكبر لا يقف عند حدٍّ، بل يتجاوز كلَّ الحدود، بحيث لا يقف تكبر صاحبه على العباد، وإنما يكون رب العباد، فلا يخضعون له سبحانه، ولا يقوم بعبادته، فيكون مصيرهم جهنم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قذفته في النار»(٢)، فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتات بغيضان.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم»(٣)، تحذير نبويٌّ للخروج من الكبر لا الاستمرار فيه والتعالي، حتى لا يدخل صاحبه في المكتبرين من أهل النار.

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٢: ٥٣٢.

(٢) في سنن ابن داود٢: ٣٥، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٩٧.

(٣) في سنن الترمذي٤: ٣٦٢، وحسنه.

وعن أبي هرير ﷺ، قال ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى من جرَّ إزاره بطراً»[١]، وعن ابن عمر ﷺ، قال ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى مَن جرّ إزاره خيلاء»[٢]: أي كبراً وتعالياً، فإن الجرّ إن كان للكبر كان محرماً واستحقَّ فاعلُه إعراض الله تعالى عنه.

وقال أبو بكر الصديق ﷺ: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله تعال كبير[٣].

ثالثاً: فضيلة التواضع:

بعد أن اطلعنا على شيءٍ مما ورد في ذمِّ الكبر يحسن بنا نقف على شيءٍ من محاسن ضدِّه، وهو التواضع؛ لأنّ الأشياء بأضدادها تعرف وتبين.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو، إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله تعالى»[٤]، فالمتكبر تحت سخط وعذابه لقبح فعله، بخلاف المتواضع فهو تحت رحمة الله تعالى ونعيمه بحيث يرفعه ويُعلي شأنه، فاللهُ تعالى ينزل ويسقط من يتعالى، ويعلي ويرفع من يتواضع.

وقال عمر ﷺ: إنّ العبدَ إذا تواضع لله تعالى رفع الله حكمته.

---

(١) متفق عليه، كما في المغني٣: ٣٣٩.

(٢) رواه مسلم، كما في المغني٣: ٣٣٩.

(٣) ينظر: الإحياء٣: ٣٣٨.

(٤) في صحيح مسلم٤: ٢٠٠١.

وقال يوسف بن أسباط: يجزئ قليل الورع من كثير العمل، ويجزئ قليل التواضع من كثير الاجتهاد.

وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند مَن دونك في نعمة الدُّنيا، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

وقال قتادة: من أعطى مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً، ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة.

وقال الحسن: التواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبداً[1].

قال ابن عطاء الله: مَن أثبت لنفسه تواضعاً، فهو المتكبر حقاً، فالتواضع لا يكون إلا عن رفعة مع عظمة واقتدار، ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، بل الذي إذا صنع رأى أنه دون ما صنع[2].

وقال: الثوري: أعز الخلق خمسة: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني[3].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٤٢.

(٢) ينظر: بريقة محمودية ٢: ٢٣٠.

(٣) ينظر: بريقة محمودية٢: ٢٣٣.

رابعاً: الفرق بين التواضع والمهانة والضعة:

إن التوضعَ خيرٌ كامل؛ لما فيه من الفضل والعدة من الله سبحانه تعالىٰ، والسعي للتخلق به فعل الأكابر ممن يَسعون لأرفع المنازل، لكن ينبغي أن لا يقع في المهانة والضعة، فإنهما مذمومان، وهذا يقتضي معرفة الفرق بينهما وبين التواضع حتىٰ لا نقع فيهما.

فالفرق بين التواضع والمهانة: أن التواضع ما يتولَّدُ من معرفته تعالىٰ وجلالة نعوته، والمهانة الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها[١].

فمثلاً: إذلال النفس لغير المسلمين أو للإغنياء وأمثالهم يعد من المهانة لا من التواضع، فيكون هذا الفعل من صاحبه لتحصيل مكاسب الدنيا، لا لرضا الله تعالىٰ كما هو الحال في التواضع.

والفرق بين التواضع والضعة: أنّ التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضعة وضع الإنسان نفسه في مكان يزرىٰ به[٢].

فمثلاً: إذا ذهب شخصٌ لمكان بحيث يُهان فيه، فإنه من الضعة والمهانة المذمومة التي يُحقر بها صاحبُها، لا من التواضع الممدوح الذي يُرفع صاحبُه لا يخفضُه.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٢: ٢٣١.

(٢) ينظر: بريقة محمودية٢: ٢٣١.

وقال الحلبي: التملق لغير المعلم من أفعال أهل الذلة والضعة ومما يزري بفاعله ويدل على سقاطته وقلة مقدار نفسه، وليس لأحد أن يهين نفسه كما ليس لغيره أن يهينه[1].

وقال الغزالي: « إنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمّى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يُسمّى تخاسساً ومذلة، والوسط يُسمّى تواضعاً.

والمحمود أن يتواضع في غير مذلة، ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها، فمَن يَتَقَدَّم على أمثاله، فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع: أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه.

والعالم إذا دخل عليه إسكاف، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود، بل المحمود عند الله تعالى العدل، وهو أن يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه، ومَن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي، فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره، وهو لا يعرف خاتمة أمره.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٢: ١٨٧.

فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران، ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه، وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس، فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه؛ إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم.

وذلك غامضٌ في هذا الخلق، وفي سائر الأخلاق والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان، وأحدهما أفحش.

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر، والمحمود المطلق هو العدل، ووضع الأمور مواضعها كما يجبُّ»[1].

والفرق بين التواضع والخشوع: أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال، والخشوع باعتبار أفعال الجوارح[2].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٦٨ـ ٣٦٩.

(٢) ينظر: بريقة محمودية٢: ٢٣١.

خامساً: ذم التذلل:

التذلل: إدخال النفس في الذلّ: كالتحلم إدخال النَّفس في الحلم[١].

ومن أمثلته:

ـ العالم إذا دخل عليه إسكافٌ فتنحَّى له عن مجلسه وأجلسه فيه تعظيماً له ثم تقدم وسوَّى له نعله عند الخروج ومشى إلى باب الدار مثلاً تشييعاً له خلفه فقد تخاسس وتذلَّل، وإنما تواضعه للإسكاف بالقيام بحوائجه ومصالحه والبشر والرفق في السؤال عن مصلحته وسبب مجيئه أو عن جواب سؤاله وأن لا يرى نفسه خير منه، ولا يستصغره.

ـ سؤال الناس ممكن يملك قوت يومه.

ـ القيام بين يدي الظلمة وتقبيل أيديهم وثيابهم بلا ضرورة، فإن تقبيل يد العالم والسلطان العادل جائز لا بأس فيه.

وليس من التذلل مباشرة أعمال البيت وحاجاته ككنس البيت وإزالة قمامة وطبخ الطعام وحمل المتاع من السوق إلى البيت[٢].

سادساً: أقسام الكبر:

إنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر.

فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح،

---

(١) ينظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية عن العسكري ٢: ٢٦٥.

(٢) ينظر: بريقة محمودية ٢: ١٨٨ـ ١٩٣.

واسم الكبر بالخلق الباطن أحقّ، وأمّا الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه: كبر.

فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يُتصوَّر أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

ولا يَكفي أن يستعظم نفسه؛ ليكون مُتكبراً، فإنّه قد يستعظم نفسه، ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبَّر عليه، ولا يَكفي أن يستحقر غيرَه، فإنّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أن هذه الرُّؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده، وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر.

وإنما صار حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء

من العز، ولا يقدر على التواضع، وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يَسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العزّ.

ولا معنى للتَّطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبّةٍ منه.

والأخلاقُ الذَّميمةُ متلازمةٌ، والبعضُ منها داع إلى البعض لا محالة، وشرُّ أنواع الكبر ما يَمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين، قال تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}[1].

سابعاً: درجاتُ المتكبر عليه:

إنّ المتكبَّرَ عليه: هو اللهُ تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

---

(١) ينظر: الإحياء ٣: ٣٤٣.

١. **التكبر على الله تعالى**، وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان، قال تعالى: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا}.

٢. **التكبر على الرُّسل** من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للإنقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله تعالى قولهم: {أنؤمن لبشرين مثلنا}.

٣. **التكبر على الصالحين**، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهو مذموم.

قال ابن مسعود ﵁: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له: اتق الله، قال: عليك نفسك[1].

٤. **التكبر على الظالمين والفاسقين**، وهو ممدوح؛ لأن التواضع لهم من الذلة الممنوعة شرعاً.

قال الزهريُّ: التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام.

وقال أبو حنيفة: أظلم الظالمين من تواضع لمن لا يلتفت إليه.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٤٦.

وقال يحيىٰ بن معاذ: التكبر علىٰ مَن تكبر عليك بماله تواضع[(١)].

ثامناً: أنواع المتكبر به:

لا يتكبر إلا متىٰ استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلىٰ كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، **فهذه سبعة أسباب:**

١. **العلم**، وما أسرع الكبر إلىٰ العلماء، فالعالم يتعزز بعزة العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلىٰ البهائم ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأىٰ ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يخدموه شكرا له علىٰ صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه.

وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم، واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٢: ١٨٧.

أمّا في أمر الآخرة، فتكبره عليهم بأن يرىٰ نفسه عند الله تعالىٰ أعلىٰ وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف علىٰ نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يُسمّىٰ جاهلاً أولىٰ من أن يُسمّىٰ عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة.

وحجة الله علىٰ العلماء، وعظم خطر العلم فيه، وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرىٰ كلَّ الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم.

ويزاد العالم تكبراً بالعلم إن كان اشتغاله بما يُسمىٰ علماً، وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن، قال الله تعالىٰ: {إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء}.

فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتىٰ امتلأ منها امتلأ بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمىٰ صناعات أولىٰ من أن تُسمَّىٰ علوماًن بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

وإن خاض العبد في العلم، وهو خبيث الدخلة، رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه

منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وهب لهذا مثلاً، فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً.

وهذا لأنّ مَن كانت همّته الكبر، وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به، فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله، فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً.

فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ:{جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}، وقال تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}، ووصف أولياءه فقال: {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}.

٢.**العمل والعبادة**، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا، أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم، وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأمّا في الدين فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك.

وهذه آفةٌ لا ينفك عنها أحدٌ من العباد إلا من عصمه الله تعالىٰ، لكن العلماء والعباد في آفة الكبر علىٰ ثلاث درجات:

أ.أن يكون الكبرُ مستقراً في قلبه يرىٰ نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل مَن يرىٰ غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر، ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

ب.أن يظهر ذلك علىٰ أفعاله بالترفع في المجالس، والتقدم علىٰ الأقران، وإظهار الإنكار علىٰ مَن يقصر في حقِّه، وأدنىٰ ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتىٰ تقطب، ولا في الوجه حتىٰ يعبس، ولا في الخد حتىٰ يصعر، ولا في الرقبة حتىٰ تطأطأ، ولا في الذيل حتىٰ يضم، إنما الورع في القلوب.

ولو كان الله سبحانه وتعالىٰ يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}، وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر علىٰ شمائلهم.

ج. يظهر الكبر علىٰ لسانه حتىٰ يدعوه إلىٰ الدعوىٰ والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل.

فهذا كلُّه أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل.

٣.التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر مَن ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي يا هندي ويا أرمني، من أنت ومن أبوك، فأنا فلان ابن فلان.

فعن أبي بن كعب ﵁: «أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان، فمَن أنت لا أم لك»[(١)].

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[(٢)].

٤.التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس.

٥.الكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه.

وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: {فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}.

٦.الكبر بالقوة وشدة البطش، والتكبر به على أهل الضعف.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بإسناد صحيح، ورواه أحمد موقوفاً على معاذ ﵁، كما في المغني٣: ٣٥٢.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان، كما في المغني٣: ٣٥٢.

٧.التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة، وأمكن أن يعتقد كمالاً، وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبَّر به[1].

تاسعاً: البواعث على التكبر:

إنّ الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد، وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر، فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر، وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة سبب في المتكبر وسبب في المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العُجب والحقد والحسد والرياء.

أما العُجب فأنه يورث الكبر الباطن، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٤٧ـ ٣٥٢.

وأمّا الحقد فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه، فأورثه الغضب حقداً، ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له، وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذيل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له، ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته، وعلى الأنفة من قبول نصحه، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك.

وأمّا الحسد فإنّه يوجب البغض للمحسود، وإن لم يكن من جهته إيذاء، وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم، وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه، وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه، ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول:

الناس إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه[١].

عاشراً: أخلاق المتكبرين:

إن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض، فمن أخلاق المتكبر:

١. أن يحب قيام الناس له أو بين يديه.

٢.أن لا يمشي في خارج بيته سيما في أسواق مدينته إلا ومعه غيره يمشي خلفه.

٣.أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته للغير خير للزائر والمزور أو لغيره من استفاضة أنوار العلوم وانجذاب الكمالات النفسية من الملكات الحميدة والسير السنية، وهذا المسكين قد رضي أن يكون مع الخوالف حيث رجح على منفعة نفسه تلهي هواه وأجرى ميولاته الشيطانية.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٥٣ـ ٣٥٤.

٤. أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه فراراً من إيهام تساوي المنزلة معه، والغير في اعتقاده من الخسائس إلا أن يجلس ذلك الغير بين يديه بعيداً منه كالتلميذ فرضاه في ذلك الجلوس.

٥. أن يتوقى مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم.

٦. أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته.

٧. أن لا يحمل متاعه إلى بيته بنفسه.

٨. أن يستنكف عن لبس الدون من الثياب.

٩. أن يستنكف عن إجابة دعوة الفقير، وأن يحضر إلى ضيافته لا عن دعوة الغني والشريف حيث يجيب دعوتها.

١٠. أن يستنكف عن قضاء حاجة الأقرباء والرفقاء من الأهل والأولاد في السوق خصوصاً شراء الأشياء الخسيسة كالصابون والكبد والكرش والحناء.

١١. أن لا يقبل الحق عند مناظرة الأقران من صاحبه؛ لئلا يظن الناس أعلميته ويهان عليه ويسقط من نظرهم، وعدم الاعتراف بخطئه مع أنه يعلم كونه في خطإ[1].

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية ٢: ١٤٣، والإحياء٣: ٣٥٤ـ ٣٦٥.

الحادي عشر: علاج الكبر:

إنّ الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحدٌ من الخلق عن شيءٍ منه وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له، وفي معالجته مقامان:

١. استئصال أصله وقلع شجرته من مغرسها في القلب، وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلميّ، فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالىٰ، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة.

وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله أما معرفته ربه وعظمته ومجده.

وأمّا العلاج العملي، فهو التواضع لله تعالىٰ بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة علىٰ أخلاق المتواضعين.

٢. دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان علىٰ غيره.

ففي النسب فليداو قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، وأن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل.

وفي التكبر بالجمال فدواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه...

وفي التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل.

وفي الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكلُّ ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان: كالجمال والقوة والعلم، وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً.

وفي الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغيانا كطغيان المال، وقال عمر رضي الله عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم، فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل؛ لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم، ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا أن يعلم أن حجة الله تعالى على أهل العلم آكد، وأن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع.

وفي التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان؛ لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}(١).

المطلب الثاني: العُجُب:

افترق العُجُب عن الكبر بعدم شرط وجود مُتكبَّر عليه في العُجُب بخلاف العُجُب؛ لأن العُجُب للنفس أو الفعل أو القول في نفسه لا على غيره، وهو آفة عظيمة من آفات القلب.

وفي هذا المطلب نبين معنى العجب وذمه وآفته والفرق بين العجب والإدلال وعلاج العجب في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

العُجُب: هو استعظام العمل الصالح وذكر حصول شرفه بشيء دون الله تعالى من النفس أو الناس(٢).

فالمعجب مصاب بداء العظمة في تصرفاته وأقوله وصفاته وغيرها؛ لأن اعتماده فيها على نفسه لا على ربِّه، والرِّضا عن النفس من أعظم الشرور.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٥٨ـ ٣٦٥.

(٢) ينظر: طريقة محمدية٢: ٢٣٤.

قال ابن عطاء: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل الطاعة ويقظة وعفّة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه، وأي جهلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه.

فكان المعجب معتزاً بنفسه وبرأيه وآمناً لمكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأنّ له عند الله منّة وحقاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أُعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره[1].

ثانياً: ذم العجب:

إن العجبَ مذمومٌ في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا}، ذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال تعالى: {وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا}، فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً} وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل.

(١) ينظر: المستخلص ص١٨٧.

وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه.

فعن أبي ثعلبة ﵁، قال ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك نفسك»[١].

وقال ابنُ مسعود ﵁: الهالكُ في اثنتين القنوط والعجب.

وإنّما جمع بينهما؛ لأنّ السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعىٰ ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد، وقد ظفر بمراده فلا يَسعىٰ، فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب، حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما.

وقد قال تعالىٰ {فلا تزكوا أنفسكم}، قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت.

وقال زيد بن أسلم: لا تبروها: أي لا تعتقدوا أنها بارّة، وهو معنىٰ العجب[٢].

وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرّتين ثم يعارض جبار السموات[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه، كما في المغني٣: ٣٦٩.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٣٦٨ـ ٣٦٩.

(٣) ينظر: الإحياء٣: ٣٣٨.

ثالثاً: آفة العجب:

إن آفات العجب كثيرة، نذكر شيئاً منها فيما يلي:

١. **الكبر**؛ فإن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى.

٢. **نسيان الذنوب**؛ فإن العجب يدعو إلى نسيان الذنوب، وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها؛ لظنه أنه مستغن عن تفقدها، فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له.

٣. **استعظام العبادات والأعمال والتبجح بها**، ويمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها.

٤. **عدم المبالات بآفات أعماله**، فإنه إذا عجب بعمله عمي عن آفاته، ومَن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلّما تنفع، وإنما يتفقد مَن يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله تعالى بمكان، وأن له عند الله منّة وحقّاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه.

٥. **الثناء على النفس وحمدها وتزكيتها**، فإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة، ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال مَن هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي

خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره، فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلىٰ غيره بعين الاستجهال، ويصر علىٰ خطئه.

فإن كان رأيه في أمر دنيوي، فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب علىٰ مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلىٰ الحق، فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات.

٦. **فتور السَّعي لظنه أنه قد فاز**، وأنه قد استغنىٰ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه[١].

٧.**الرضا عن النفس**،والرضا عن النفس يتفرّع عنه التقصير والأمراض: كالغرور وازدراء الآخرين ودعوىٰ المقامات وغير ذلك[٢].

رابعاً: الفرق بين العجب والإدلال:

العجب: هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلىٰ المنعم، فإن انضاف إلىٰ ذلك أن غلب علىٰ نفسه أن له عند الله حقّاً، وأنه منه بمكان، حتىٰ يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٧٩.

(٢) ينظر: المستخلص ص١٨٧.

استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة.

وكذلك قد يُعطي غيره شيئاً، فيستعظمه ويمنُّ عليه، فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: {ولا تمنن تستكثر}: أي لا تدلَّ بعملك.

والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل؛ إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه، وتعجب منه كان مدلاً بعمله؛ لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق، ويتعجب من رد دعاء نفسه[1].

خامساً: علاج العجب:

الأول: علاجه على الجملة:

إن علاج كل علّة هو مقابلة سببها بضده، وعلّة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم،

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٧١.

فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب، وما لا يدخل تحت اختياره، ولا يراه من نفسه.

فالورع والتقوىٰ والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه، فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته، فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه، وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره، فهذا جهل لأن المحلّ مسخر ومجرىٰ لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه، وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته.

ثم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله، أنها من أين كانت له، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله؛ إذ أفاض عليه ما لا يستحقّ وآثره به علىٰ غيره من غير سابقة ووسيلة، فمهما برز الملك لغلمانه، ونظر إليهم وخلع من جملتهم علىٰ واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة[١].

الثاني: علاجه العجب بأقسامه على التفصيل:

إن العجب بالأسباب التي بها يتكبر، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله، **فما به العجب ثمانية أقسام:**

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٧١.

١ .**العجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته** وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه، وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال.

وعلاجه: التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب، وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

٢ .**العجب بالبطش والقوة،** كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم {من أشد منا قوة}، وقد يتكل المؤمن على قوته، فعن أبي هريرة ، قال ﷺ عن سليمان أنه قال: «لأطوفن الليلة بمائة امرأة، ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد»[1].

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء.

وعلاجه: أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

٣ .**العجب بالعقل والكياسة والتفطن** لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في المغني٣: ٣٧٤.

وثمرته: الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلىٰ قلة الإصغاء إلىٰ أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة.

وعلاجه: أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنىٰ مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه، فلا يأمن من أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا، وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالىٰ، وأن يتهم عقله وينظر إلىٰ الحمقىٰ، كيف يعجبون بعقولهم، ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم، وهو لا يدري.

فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن مَن يداهنه يثني عليه، فيزيده عجباً، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه، فيزداد عجباً.

٤ .**العجب بالنسب الشريف**: كعجب الهاشمية حتىٰ يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه، وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد.

وعلاجه: أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظنّ أنه ملحق بهم فقد جهل وإن اقتدىٰ بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل

الخوف والازدراء على: النفس واستعظام الخلق، ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة، لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل مَن لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شرّاً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى}: أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد.

ثم ذكر فائدة النسب فقال: {وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}.

٥. **العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم** دون نسب الدين والعلم، وهذا غاية الجهل.

وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله تعالى، والفساد في دين الله تعالى، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم، ولتبرأ من الانتساب إليهم، ولأنكر على مَن نسبه إليهم استقذاراً واستحقار لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد؛ لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعال على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأما العجب فجهل محض.

٦.**العجب بكثرة العدد من الأولاد** والخدم والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: {نحن أكثر أموالا وأولادا}، وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة.

وعلاجه: أن يتفكر في ضعفه وضعفهم، وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}، ثم كيف يعجب بهم، وأنهم سيفترقون عنه إذا مات، فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان، ولا يغنون عنه شيئاً، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: {يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه}.

فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك، ويهرب منك، وكيف تعجب به، ولا ينفعك في القبر والقيامة، وعلى الصراط إلا عملك، وفضل الله تعالى، فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم مَن يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

٧.**العجب بالمال**؛ كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال: {أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}، وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1].

---

(١) في صحيح مسلم٣: ١٦٤٥.

٨.**العجب بالرأي الخطأ؛** قال الله تعالىٰ: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}، وقال تعالىٰ: {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}.

وعلاجه علىٰ الجملة: أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة، وعقل ثاقب وجد وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرع لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولا يصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له.

وأنه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوىٰ واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة علىٰ المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر.

هذا حق كل من عزم علىٰ أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم علىٰ التجرد للعلم، فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه، وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلىٰ اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالىٰ، وهو عزيز الوجود جداً،

فنسأل الله تعالىٰ العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال[1].

المطلب الثالث: الغرور:

إن الغرور هو المهلكة العظمىٰ للخلق من حيث لا يشعرون؛ لما فيه من جري وراء الأوهام من زخارف الشيطان، قال الغزالي[2]: «وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات، فلا بد من معرفة مداخله ومجاريه، وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه؛ ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد، فأخذ منها حذره، وبنىٰ علىٰ الحزم والبصيرة أمره».

وأول آثار الغرور السير وراء الأوهام، وقضاء العمر فيها، ولأن أكثر الناس مبتلون بذلك فإنهم كثيراً ما يسيرون وراء السّراب ولا يشعرون، قال ابن عطاء: «ما قادك شيء مثل الوهم»، وما ذلك إلا أثر الغرور، فقد يكون طريق أقرب من طريق إلىٰ هدف، وقد يكون طريق أهدىٰ من طريق، ولكن الغرور يجعل صاحبه بمنأىٰ عن ذلك كلّه.

ومن آثار الغرور أن يرفض المغرور النصيحة، وأن يبقىٰ حيث هو في سلّم الغلط أو في سلّم الحياة لا ارتقاء ولا نهوض مع التلبّس بالغلط[3].

---

(١) ينظر: الإحياء: ٣٧٤ـ٣٧٨.

(٢) في الإحياء٣: ٣٧٨.

(٣) ينظر: المستخلص ص٢٢٠.

وفي هذاالمطلب نعرض لمعنى الغرور وذمه وأنواع المغرورين وعلاج الغرور في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

فالغرور: كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان.

وقد فسر بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر، ويقال: غررت فلاناً: أصبت غرته ونلت منه ما أريده، والغرة: غفلة في اليقظة.

قال تعالى: {وما يعدهم الشيطان إلا غرورا}[النساء/ ١٢٠]، وقال: {بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا} [فاطر/ ٤٠]، وقال: {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا}[الأنعام/ ١١٢]، وقال: {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} [آل عمران/ ١٨٥]، وقال: {وغرتهم الحياة الدنيا}[1].

والمغرور: هو الذي لم تنفتح بصيرته؛ ليكون بهداية نفسه كفيلاً، وبقي في العمى، فاتخذ الهوى قائداً، والشيطان دليلا: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا}.

وبالتالي يكون الغرور مجرد أوهام تعلَّق بها صاحبها، وهي مخالفة للواقع بحيث ظن أن الخير التمسك بالدنيا أو المال أو الجاه أو غيرها، وسار

---

(١) ينظر: مفردات القرآن ص٦٠٣.

خلف هذا الوهم من معتقدات وأفكار خاطئة حرفته عن السبيل وأردته في المهالك.

فالإنسان يعيش في أَوهام لا تُعَدُّ وخيلات لا تنتهي، ولا يمكن له الخروج منها إلا بالأخذ بالشرع الحكيم، وكثرة التوجه إلى تعالى في طلب الهداية؛ لأن الكل ضال إلا من هدى الله تعالى، وتكون الهداية بالخروج من أوهام وتبصيره بالحقيقة.

قال الغزالي[1]: «الأكياسُ هم الذين أراد الله تعالى أن يهديهم، فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم، فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء».

فكم هي الأوهام في فهم الحياة وتصورها وتحديد الغايات والأهداف وفهم نفسك وما تريك وفهم غيرك وفهم الحياة الزوجية وفهم المال وكيف التعامل معه وفهم كلّ شي حولك، فمَن لم يؤت البصيرة من ربه تكون أكثر مفاهيمه خاطئة منحرفة عن الصواب، فيكون يحيى في أوهام لا نهاية، فيغتر في كثير من الأمور التي لا قيمة لها بحيث يضيع وقته وماله وجهده فيما لا فائدة فيه.

ثانياً: ذم الغرور:

مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة

---

(١) في الإحياء٣: ٣٧٨.

لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر، والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة.

والمغترون قلوبهم: {كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور}.

وكلُّ ما ورد في فضل العلم وذم الجهل، فهو دليل على ذم الغرور؛ لأنّ الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل؛ إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل، إلا أن كلَّ جهل ليس بغرور.

فالغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمَن اعتقد أنه على خير، إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم، واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها، وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق.

فعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحمي عبده من الدنيا، وهو يحبه»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، كما في المغني٣: ٣٨٣.

وكان أرباب البصائر إذا أَقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين.

والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظنَّ أنها كرامة من الله تعالىٰ، وإذا صرفت عنه ظنَّ أنها هوان كما أخبر الله تعالىٰ عنه؛ إذ قال: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن}، فأجاب الله عن ذلك: {كلا} أي ليس كما قال: إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء، ونسأل الله التثبيت[1].

ثالثاً: أنواع المغرورين:

لما كان الاغترار أوهام وخيالات تكون في تفكير الإنسان، وهذا لا يخلو منه أحد، وهم متفاوتون في وجودهم علىٰ حسب اجتهادهم كل منهم في الوقوف الحق والوصول للهداية.

وبالتالي سيشمل الكلام عن المغترين جميع الطبقات في المجتمع، وقد فصل ذلك الغزالي وأظهر وجود الاغترار حتىٰ في طبقات العلماء والوعاظ وغيرهم، فقال[2]: «نحن نشرح أجناس مجاري الغرور، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها، ونشير إلىٰ وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإنّ ذلك وإن

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٧٨ـ ٣٨٣.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٣٧٩.

كان أكثر مما يحصى ولكن يُمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء، وفرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف: العلماء والعباد والمتصوفة وأرباب الأموال.

والمغتر من كل صنف فرق كثيرة، وجهات غرورهم مختلفة:

أ.من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام.

ب.مَن لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه.

ج.مَن يترك الأهم ويشتغل بغيره.

د. مَن يترك الفرض ويشتغل بالنافلة.

هـ.مَن يترك اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك.

قال تعالى: {فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور}.

وقال تعالى: {ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني}».

وأصناف المغرورين:

١. أهل العلم، وهم أنواع:

أ.من أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله تعالى بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله تعالىٰ مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم علىٰ الله تعالىٰ، وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمىٰ بالعادة علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلىٰ العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل، فلا قيمة له دون العمل.

والفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكىٰ نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور؛ إذ قال تعالىٰ: {قد أفلح من زكاها}، ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل، ويضيع أمر الله تعالىٰ وحدوده، فغروره أشد.

فالفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه، وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإذا لم يكن بهذه الصفة، فهو من المغرورين.

ب.من أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم، فهو مكب عليها غير متحرز عنها.

فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصل؛ إذ لا ينجو إلا مَن أتى الله بقلب سليم.

ج.من علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله تعالى من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف، قالوا: ما هذا كبر، وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين.

د.من أحكموا العلم وطهّروا الجوارح وزيّنوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس، وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من

القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان، وخبايا خداع النفس ما دقّ وغمض مدركه، فلم يفطنوا لها وأهملوها.

والعالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرىٰ أن باعثه الحرص علىٰ إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف.

وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد والتمتع بتحريك الرءوس إلىٰ كلامه والبكاء عليه، والتعجب منه والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع، وظاهر الزهد والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين علىٰ الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص.

ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله، فعساه يتشوس عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلىٰ أن يكذب في تغطية

عيبه، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة مَن اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه.

هـ.من اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها، وسموه الفقه وعلم المذاهب، ورُبّما ضيَّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات، فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم.

و.من اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان، ولا يصحّ إيمانٌ إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله تعالى وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم، ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها.

واغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل، فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله تعالى، فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في

تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله تعالى، وأفضل ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته.

ز.من اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلّموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين.

وغرور هؤلاء أشد الغرور؛ لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة، إلا وهم محبون لله تعالى، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص، إلا وهم مخلصون وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون.

فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين، وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين، وهو من المغترين المضيعين، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله، وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكلين على الله تعالى، وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب، ويرى أنّه من المخلصين وهو من المرائين.

بل يصف الإخلاص، فيترك الإخلاص في الوصف، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره؛ ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا لشدّة حرصه على الدنيا وقوّة رغبته فيها.

فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد؛ لأن المرغب في الأخلاق المحمودة، والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حبّ دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالج، وكيف سبيل تخويفه، وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله تعالى فيخافون وهو ليس بخائف.

ح. من قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظنُّ أنه إذا تميز هذا القدر عن السوقة والجندية؛ إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم، فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له، وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه.

ط.من استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمة أحدهم أن يدور في البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقد رأيت فلاناً، ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري.

وغرورهم من وجوه منها أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم، ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضاً، ولا يعملون به، ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين، وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد، وطلب العالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك، ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة، ولكنه مهم في نفسه للوصول إلا إثبات الحديث؛ إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع.

٢. أرباب العبادة والعمل، وهم أنواع:

منهم من غروره في الصلاة.

ومنهم من غروره في تلاوة القرآن.

ومنهم في الحج.

ومنهم في الغزو.

ومنهم في الزهد.

وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور، إلا الأكياس، وقليل ما هم.

٣.المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم، وهم أنواع:

فرقة منهم، وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم، وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء، وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنّوا أنهم أيضاً صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية.

وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها، بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه.

٤.أرباب الأموال، وهم أنواع:

أ.من يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها؛ ليتخلد ذكرهم ويبقى

بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وغروهم من عدم حل مالهم وغبتهم في الشهرة.

ب.من ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت هم المساجد، وغروهم للرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

ج.من ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة.

د.عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا وهم مغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة؛ لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره، فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم[1].

ويكاد الغرور يتلخّص في كلمتين هما التوهم والاعتداد فمن عرف هاتين الكلمتين يستطيع أن يرى كلّ أنواع الغرور بما في ذلك أنواع من

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٨٩ـ ٤١٠.

الغرور تراها في عصرنا وخاصة في العمل السياسي أو العسكري أو العمل العام والخدمة العامة.

فكثيراً ما يتوهّم الإنسان أنه مستشرف لساحة العمل الذي يعمل فيه، ويكون استشرافه ناقصاً، ثم يتصوّر أنّه أقدر من غيره على النجاح، وهو في الحالتين متوهم فهو مغرور، طبّق هذه المسألة على فروع كثيرة فإنّك تجدها شاملة ومن خلال ذلك تستطيع العثور على أصناف جديدة من المغترين[1].

رابعاً: علاج الغرور:

والحاصل أن الخروج من الغرور بمعرفة حقيقة الأشياء من نفسه وربه ودنياه وآخرته، وهذا يحتاج إلى لجوءٍ إلى الله تعالى في كلِّ وقت للهداية للمعرفة الصحيحة، وهمة وسعي كبير في التعلم والبحث على حقائق الأمور، فمتى حلّ الحل زال الجهل والخيال، فلم يبق مجال للغرور والأوهام التي تضيع صاحبها.

قال الغزالي[2]: «الإنسان إذا افترقت همّته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحر استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٣٢.

(٢) في الإحياء٣: ٤١٠ـ ٤١٢.

الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها.

كلُّ ذلك لأن همه أمر دنياه، وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته، فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه، فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال.

فلو أصبح همه هذا، فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

وينجو العبد من الغرور بالعقل والمعرفة.

أما العقل، فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بُدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان، فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة، فأساس السعادات كلها العقل والكياسة.

وأما المعرفة، وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أُمور، يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة، فيعرف نفسه بالعبودية والذل، وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً

هو معرفة الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه فقط، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه.

وأصل ذلك كلّه أن يغلب حب الله تعالىٰ علىٰ القلب، ويسقط حب الدنيا منه، حتىٰ تقوىٰ به الإرادة، وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة».

المطلب الرابع: الرياء:

تختلف مقاصد الناس في حياتهم في طلب المكانة والمنزلة في قلوب الناس علىٰ أصناف متعدِّدة، فمنها:

١.مَن لا يريد بحياته وعمله إلا وجه الله تعالىٰ ويجتهد في أن تكون نيَّته خالصة لوجهه تعالىٰ، ويبذل كلّ جهده في تحقيقه مقصوده، فهو ممن عرف طريقه وسعىٰ سعيه للوصول مراده، فهو من الفائزين.

٢.مَن جعل حياته لغير الله تعالىٰ واستسلم لهواه، فلا عمل له إلا إظهار نفسه وطلب المنزلة في قلوب الخلق لتحقيق مصالحه الشخصية، فجعل من العبادات والقرب وسيلةً لطلب الدنيا والعلو في الأرض، فهو من الهالكين.

ولو تعقل أحدهم أن الضرر والنفع بيد لله تعالىٰ لما سَلَك هذا المسلك، فعن ابن عباس ﵄، قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك

بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

٣.مَن يريده سبحانه ويريد رضاه ويريد الدنيا والمكانة، وهذا حال عامة الناس، فتختلط عباداته وأعماله بالرياء؛ لعدم المعرفة الصحيحة والمجاهدة الكبيرة؛ للتخلص من هذا الداء، وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ:«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٢].

وما سبق ذكره في المغرورين يُبين خطورة الرِّياء وانتشار بين الخلائق، فعلى صاحبه التعلم والعمل حتى ينجو من الهلاك.

وفي هذا المطلب نُبيِّنُ الجانب المعرفي للرياء من بيان معناه وذمّه وحكم الرياء في الأعمال وعلاج الرياء وإظهارالطاعات وكتمان الذنوب في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الرياء: هو إرادة العباد بطاعة الله تعالى.

---

(١) في مسند أحمد رقم ٢٦٦٩ وسنن الترمذي رقم ٢٥١٦، وقال: حسن صحيح.
(٢) في صحيح مسلم رقم ٢٩٨٥.

وهذا لأن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات.

واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها.

فالمرائي هو العابد.

والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم.

والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها.

فيكون طلب الجاه من الرياء، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات، فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، وإنما ما يكون بتلبيسات وأسباب محظورات، وكسب قليل من الجاه، وهو ما يسلم به عن الآفات محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال {إني حفيظ عليم}، وكثير الجاه يخشى منه؛ لأن فتنة الجاه أعظم من فتنة المال[1].

فتحصَّل أن الرِّياء طلب المكانة عند الناس لا سيما في العبادات، فيكون غاية فاعله غير الله تعالى لتحصيل الرفعة والمنزلة، وهذا مناف للخلاص

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٩٩.

والصدق مع الله تعالىٰ، وكأنّ صاحبه جعل من الخلائق آلهةً يتوجَّه إليهم بالعبادات والقُرب، وهذا أخطر ما يكون علىٰ عامله.

ثانياً: ذم الرياء:

كثرت النصوص الشرعية في التحذير من الرياء في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وغيرها، فنقف علىٰ بعضها حتىٰ يتضح الذم الشديد من الله ورسوله ﷺ لهذا الخلق الذميم:

قال تعالىٰ: {فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون}، يعنىٰ بهذا المنافقين أىٰ لا يصلونها سراً لأنهم لا يعتقدون وجوبها ويصلونها علانية رياء، وقيل: فويل للمنافقين الذين يدخلون أنفسهم في جملة المصلين صورة وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يريدون بها قربة إلىٰ ربهم ولا تأديةً لفرض، فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدون الفرائض الزكاة وما فيه منفعة[1].

وقال تعالىٰ: {والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور}، قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالىٰ: {إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا} فمدح المخلصين ينفي كلّ إرادة سوىٰ وجه الله تعالىٰ، والرياءُ ضدُّه.

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٣: ٣٧٩.

وقال تعالىٰ: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً}، حتىٰ يكون عمله خالصاً لا يريد به إلا وجه ربه، ولا يخلط به غيره، وهو نهي عن الشرك أو عن الرياء[١].

فعن جبند بن عبد الله ﷺ، قال ﷺ: «من راءىٰ راءىٰ الله تعالىٰ به، ومَن سمع سمع الله به»[٢]، تحذير نبوي بفضح المرائي، بحيث يطلع الناس علىٰ خداعه وكذبه في الرياء والسمعة.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: مَن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فهو له كله»[٣]، فعلىٰ المسلم أن يخلص بعمله لوجه الله تعالىٰ حتىٰ يقبل ولا يرد، فيكون من خسر الدنيا والآخرة.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن في ظل العرش يوم لا ظلّ إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه، فكاد أن يخفيها عن شماله»[٤]، ففيه بيانٌ لمكانة الصدق مع الله تعالىٰ، والبعد عن جميع أسباب إظهار العمل والرياء أمام الخلق، بحيث لا يطلع علىٰ أعمال أحد إلا لمصلحة.

وعن أبي موسىٰ ﷺ قال: «سُئِلَ رسول الله ﷺ عنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً ويقاتِلُ رياءً، أَيُّ ذلك في سبِيلِ اللهِ؟ فقال رسول الله ﷺ: مَن

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٣: ٣٧٩.

(٢) متفق عليه، كما في المغني٣: ٢٩٤.

(٣) أخرجه مالك وابن ماجه بسند صحيح، كما في المغني٣: ٢٩٤.

(٤) متفق عليه، كما في المغني٣: ٢٩٤.

قاتَلَ لتكون كلمةُ الله هي العُلْيَا فهو في سبيل الله»[(١)]، بيان لعدم قبول العمل إن لم يكن لوجه الله تعالىٰ، ولو كان هذا العمل بتقديم روحه، فماذا يستفيد مَن يفعل ذلك لو تعقل، فما تنفعه الحمية والشجاعة والرياء بعد موته، فلا نفع له إلا بالإخلاص لله تعالىٰ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلىٰ صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكم، ولكن ينظر إلىٰ قُلُوبكم وأَعمالِكُم»[(٢)]، فإن كان القلب محلّ نظر الخالق، فلا التفات لأي عمل إن لم يكن خالصاً لوجهه تعالىٰ.

وقال علي رضي الله عنه: للمرائي ثلاث علامات: يَكسل إذا كان وحده، ويَنشط إذا كان في الناس، ويَزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم.

وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمرّ فيرىٰ الأذىٰ في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة.

وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد علىٰ نيته ما لا يعطيه علىٰ عمله؛ لأن النية لا رياء فيها[(٣)].

وقال ذو النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامّة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال واقتضاء ثواب العمل في الآخرة[(١)].

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٧٠٢٠ وصحيح مسلم ١٩٠٤.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤.

(٣) ينظر: الإحياء٣: ٢٩٤ـ٢٩٧.

ثالثاً: حكم الرياء في الأعمال:

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل؛ إذ العمل قد تمّ على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء فما يطرأ بعده، فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمنّ إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله تعالى ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه.

وإذا تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدَّث به، فهذا مخوف، وفي الآثار والأخبار ما يدلُّ على أنه يحبط، فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول قرأت البارحة البقرة ،فقال: ذلك حظُّه منها.

وإذا تغيَّر عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل.

وإذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً، وكان قد عقد على الإخلاص، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل، وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل، وختم العبادة به حبط أجره.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٢: ٨٤.

ومثاله: أن يكون في تطوع، فتجددت له نظارة، وهو يشتهي أن ينظر إليه، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس فقد حَبِطَ أَجره، وعليه الإعادة إن كان في فريضة.

فعن جندب رضي الله عنه، قال ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن راءىٰ راءىٰ الله به»[1].

وإذا كان وراد الرِّياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعةٌ في أثناء الصَّلاة، ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم، وكان لولا حضورهم لكان يُتمها أيضاً، فهذا رياءٌ قد أثر في العمل، وانتهض باعثاً علىٰ الحركات، فإن غلب حتىٰ انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب، وصار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضىٰ ركن من أركانها علىٰ هذا الوجه؛ لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال: لا يفسد العبادة نظراً إلىٰ حالة العقد، وإلىٰ بقاء قصد أصل الثواب، وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي إلىٰ الإحباط في أمر هو أهون من هذا، وقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس، يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه، قال: قد اختلف الناس في هذا، فصارت فرقة إلىٰ أنه محبط؛

---

(١) متفق عليه، كما في المغني ٣: ٣٠٨.

لأنه نقض العزم الأوَّل، وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل بخاتمته.

ثم قال: ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء.

والأقيس أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل، بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين، وإنّما انضاف إليه السرور بالاطلاع، فلا يفسد العمل؛ لأنه لم ينعدم به أصل نيته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال.

ولا ينبغي أن يفسد الصلاة ولا يبعد أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه.

وإن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة، وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضا كان

يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها؛ إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وهاهنا لا باعث ولا إجابة.

وإذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يُصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصىٰ بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، فله ثواب بقدر قصده الصَّحيح، وعقابٌ بقدر قصده الفاسد، ولا يحبط أحدُهما الآخر

وإن كان في صلاة تَقبل الفساد بتطرق خلل إلىٰ النية، فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصىٰ من وجه وأطاع من وجه؛ إذ اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال: صلاته فاسدة، والاقتداء به باطل حتىٰ إن من صلىٰ التراويح، وتبين من قرائن حاله أن يصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلىٰ لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلىٰ هذا بعيد جداً، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوِّعه فتصحُّ باعتبار ذلك القصد صلاته، ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأمّا إذا كان في فرض واجتمع الباعثان، وكان كلُّ واحدٍ لا يستقل، وإنَّما يحصل الانبعاث بمجموعها، فهذا لا يسقط الواجب عنه؛ لأنّ الإيجابَ لم ينتهض باعثاً في حقِّه بمجردِه واستقلاله.

أمّا إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة، مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة، ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يقطع بصحّة صلاته وسقوط الفرض به؛ لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره، بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد من القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملاً عليه، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة، فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه.

والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه، ومقتضى فتاوي الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات[1].

رابعاً: علاج الرياء:

إنّ الرياء محبط للأعمال، وسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه، فجدير بالتَّشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة، وتحمُّل المشاقّ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدةٌ يضطر إليها العباد كلُّهم؛ إذ الصَّبيُّ يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٠٧ـ ٣١٠.

فيرىٰ الناس يتصنع بعضهم لبعض، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة، ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله، وقد انغرس الرياء في قلبه وترسَّخ فيه، فلا يقدر علىٰ قمعه إلا بمجاهدة شديدة، ومكابدة لقوّة الشهوات، فلا ينفك أحدٌ عن الحاجة إلىٰ هذه المجاهدة.

ولكنها تشقّ أولاً وتخفُّ آخراً، وفي علاجه مقامان:

١.قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه:

وأصله حبُّ المنزلة والجاه، وإذا فصل رجع إلىٰ ثلاثة أصول، وهي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطَّمع فيما في أيدي الناس، فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه: «أن أعرابيا قال: يا رسول الله الرجل يُقاتل حمية، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه، والرجل يقاتل للذكر، فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١)، ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب، وقوله: والرجل يُقاتل ليرىٰ مكانه، وهذا هو طلب لذّة الجاه والقدر في القلوب، وقوله: الرَّجل يُقاتل للذكر، وهذا هو الحمد باللسان.

٢.دفع ما يخطر منه في الحال:

وليس يخفىٰ أن الإنسان إنّما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنِّه أنه خيرٌ له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال، ولكنه

---

(١) متفق عليه، كما في المغني٣: ٣١٠.

ضار في المآل، سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة.

ومهما عرف العبد مضرَّة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالىٰ، وما يتعرض له من العقاب العظيم، والمقت الشديد، والخزي الظاهر، حيث يُنادىٰ علىٰ رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي.

وأما الطَّمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أن الله تعالىٰ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومَن طمع في الخلق لم يخل من الذلِّ والخيبة، وإن وصل إلىٰ المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله تعالىٰ برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته.

فإذا تقرَّر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها، فترت رغبته وأقبل علىٰ الله تعالىٰ قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره، ويقل نفعه، ويَكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله تعالىٰ عن سره حتىٰ يبغضه إلىٰ الناس، ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله تعالىٰ، ولو أخلص لله تعالىٰ لكشف الله تعالىٰ لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم، ولا نقصان في ذمهم.

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتىٰ يقنع قلبه بعلم الله أو إطلاعه علىٰ عباداته، ولا تنازعه النفس إلىٰ طلب علم غير الله تعالىٰ به، فلا يسقط في الدنيا التي هي منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها(١).

خامساً: إظهار الطاعات:

إن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة والإقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء.

قال الحسن: قد علم المسلمون إنّ السِّرَّ أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ السر والعلانية، فقال: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم.

وبيانه فيما يلي:

الأول: إظهار العمل قسمان:

١. **إظهار في نفس العمل كالصدقة في الملأ**؛ لترغيب الناس فيها، فعن جرير بن عبد الله ﵁، قال: «جاء ناس من الأعراب إلىٰ رسول الله ﷺ عليهم الصوف، فرأىٰ سوء حالهم قد أصابتهم حاجة، فحثَّ الناس علىٰ الصدقة، فأبطئوا عنه حتىٰ رئي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتىٰ عرف السرور في وجهه، فقال

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣١٠ـ ٣١٢.

ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»[١].

والغازي إذا هم بالخروج فاستعدَّ وشدَّ الرحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له؛ لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به، فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء.

وأمّا ما يُمكن إسراره كالصدقة والصلاة، فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة، فالسرُّ أفضل؛ لأنّ الإيذاءَ حرامٌ.

ومهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتمّ الإخلاص على وجه واحد في الحالتين، فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه، ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

أ. أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدي به أو يظن ذلك ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما

---

(١) في صحيح مسلم ٤: ٢٠١٩.

يقتدي به أهل محلته، وإنما العالِم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة، فغير العالِم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلىٰ الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة علىٰ من هو في محل الاقتداء به.

ب.أن يراقب قلبه، فإنه ربّما يكون فيه حبُّ الرياء الخفي، فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنّما شهوته التجمل بالعمل، وبكونه يقتدي به، وهذا حال كلّ من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين، وقليل ما هم، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك، وهو لا يشعر، فإن الضعيف.

٢.أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشدّ؛ لأنّ مؤنةَ النُّطق خفيفة علىٰ اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفس لذّةٌ في إظهار الدَّعاوىٰ عظيمة، إلا أنّه لو تطرَّق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون.

والحكم فيه أن مَن قوي قلبه، وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوىٰ عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند مَن يرجو الاقتداء به، والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت النية، وسلمت عن جميع الآفات؛ لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير.

قال سعد بن معاذ ﵁: ما صليت صلاة منذ أسلمت، فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة، فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة، وما هو مقول لها، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنّه حقّ.

وقال عمر ﵁: ما أُبالي أصبحت على عسر أو يسر؛ لأني لا أدري أيهما خير لي.

وقال ابنُ مسعود ﵁: ما أصبحت على حال، فتمنيت أن أكون على غيرها[1].

الثاني: عدم ترك الطاعات خوفاً من الرياء:

إن مَن الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحقُّ فيما يُترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات وهو أن الطاعات تنقسم إلى ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو، فإنها مقاساة ومجاهدات، وإنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه، وإلى ما هو لذيذ، وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣١٧ـ ٣١٩.

وبالجملة فالمراتب ثلاث:

١. **الولايات**؛ والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة.

٢. **الصوم الصلاة والحج والغزو**؛ وقد تعرَّض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله تعالى بأدنى قوة.

٣. **التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس**؛ والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة.

فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء ومناصب العلم بينهما، ومن جرَّب آفات منصب العلم عَلِم أنه بالولاة أشبه، وأنّ الحذر منه في حق الضعيف أسلم[١].

الثالث: النشاط للعبادة بسبب رؤية الخلق:

إنّ الرَّجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٢٢ـ٣٢٨.

كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع، فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط.

فهذا ربَّما يُظَنُّ أنّه رياءٌ، وأن الواجبَ ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق، بل له تفصيل؛ لأنّ كلَّ مؤمن راغب في عبادة الله تعالى، وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق، ويمنعه الاشتغال، ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة.

فرُبَّما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة أو تندفع العوائق، والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتد رغبته عن الخير.

وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته إياهم، وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهمّ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله تعالى، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء أو ربما يُفارقه النوم؛ لاستنكاره الموضع أو سبب آخر، فيغتنم زوال النوم وفي منزله ربّما يغلبه النوم ورُبّما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً، فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشقّ عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه، فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث، فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم.

والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل، ويقول لا تعمل، فإنك تكون مرائياً إذا كنت لا تعمل في بيتك، ولا تزد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم، ونسبتهم إياه إلى الكسل لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسق من أعينهم، فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان: صل فإنك مخلص، ولست تصلى لأجلهم، بل لله، وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم، وهذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر.

فإذا عرف أنَّ المُحرِّك هو الرِّياء، فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة؛ لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق، وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يُصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب، وهو في ذلك الموضع بعينه، هل كانت نفسه تسخو بالصلاة، وهم لا يرونه، فإن سخت نفسه فليصل، فإن باعثه الحق.

وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء[١].

الرابع: القناعة بعلم الله في جميع الأوقات:

إن أولى ما تلزم قلبك في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله تعالى إلا مَن لا يخاف إلا الله تعالى، ولا يرجو إلا الله تعالى، فأمّا مَن خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله.

فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان؛ لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشّاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء، وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك، فما في الخلق مَن يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه، فيجهل الناس محلك، وينكرون قدرك، ويحرمون الاقتداء بك.

ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة، ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله تعالى وإحباط للعمل العظيم[٢].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣٣٠.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٣٣٢.

سادساً: كتمان الذنوب:

إن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، كما قال عمر ﵁ لرجل عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية، قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه.

وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أُبالي أن يَطلع النَّاس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط.

إلا أنّ هذه درجة عظيمة لا يَنالها كلُّ واحد، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه، وهو يخفيها، ويَكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد رُبَّما يَظنُّ أنّه رياءٌ محظورٌ، وليس كذلك، بل المحظور أنه يستر ذلك ليري النَّاس أنه ورعٌ خائف من الله تعالى، مع أنه ليس كذلك، فهذا هو ستر المرائي.

وأمَّا الصَّادق الذي لا يرائي، فله ستر المعاصي، ويصحُّ قصدُه فيه، ويصحُّ اغتمامُه باطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه:

١. **أن يفرح بستر الله عليه**، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره، وخاف أن يهتك ستره في القيامة.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما قضى الله في بقضاء قط فسرَّني أن يكون قضي لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله تعالى.

٢.**أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها**، فهو وإن عصىٰ الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبّة ما أَحبه الله تعالىٰ، وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة الله تعالىٰ لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببهز

٣.**أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى**، فإن الطبع يتأذىٰ بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة.

٤.**أن يكون ستره ورغبته فيه**؛ لكراهته لذم الناس من حيث يتأذىٰ طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام، ولا الإنسان به عاص، وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلىٰ ما لا يجوز حذراً من ذمهم، وليس يجب علىٰ الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به.

٥.**أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به**، وهذا من الإيمان، وعلامته: أن يكره ذمه لغيره أيضاً، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره، بخلاف التوجع من جهة الطبع.

٦.**أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه**، وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته، وإن كان ممن يؤمن شرّه، وقد يخاف شرّ من يُطلع علىٰ ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذراً منه.

٧. **مجرد الحياء**، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل، فيستحي من القبائح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود.

٨. **أنّ يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدي به**، وهذا العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة، وهو القدوة ويختصّ ذلك بالأئمة أو بمن يقتدي به[1].

سابعاً: حقيقة الإخلاص:

إن كلَّ شيء يتصوَّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويُسمّىٰ الفعل المصفَّىٰ المخلص إخلاصاً، قال تعالىٰ: {من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين}، فإنّما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث، ومن كلِّ ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك إلا أن الشرك درجات.

فالإخلاص في التوحيد يُضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضدُّه يتواردان علىٰ القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات.

وقد قال تعالىٰ: {أنا أغني الشركاء عن الشركة}.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٣١٩ـ ٣٢١.

وبالجملة كلّ حظٍّ من حظوظ الدُّنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب قلّ أم كَثُر إذا تطرَّق إلى العمل تكدَّر به صفوه، وزال به إخلاصُه، والإنسانُ مرتبطٌ في حظوظه منغمسٌ في شهواته، قلَّما ينفك فعلٌ من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس.

فلذلك قيل: مَن سَلِم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا، وذلك لعزّة الإخلاص، وعُسِر تنقية القلب عن هذه الشَّوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى.

وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون في باعثٍ سواه، وهذا لا يُتصوَّر إلا من محبٍّ لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحبِّ الدنيا في قلبه قرارٌ حتى لا يحبّ الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام؛ لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل، فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده؛ لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له هم إلا الله تعالى.

فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة، وكان له درجة المخلصين فيه، ومَن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدودٌ عليه إلا على الندور.

قال أبو عثمان: الإخلاص نسيان روية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط.

وقال المحاسبي: الإخلاص: هو إخراج الخلق عن معاملة الرب.

وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه؛ إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً[1].

وحثَّ القرآن الكريم في آياته عديدة عليها، ومنها:

قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}.

وقال تعالى: {ألا لله الدين الخالص}.

وقال تعالى: {إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله}.

وقال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٣٧٩: ٣٨٦.

وقال سري السقطي: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو.

وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد.

ولكن الإخلاص عزيز، ويقال: العلم بذرٌ، والعمل زرعٌ، وماؤه الإخلاص.

وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً، ومنعه ثلاثاً: أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها.

وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط.

وقال الجنيد: إن لله عباداً عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمرُ كلُّه يرجع إلى أصلين: فعل منه بك وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل، فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين[1].

ثامناً: مكانة النية:

قال تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}، والمراد بتلك الإرادة هي النية.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣٧٨ـ ٣٧٩.

وقال تعالى: {إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما}، فجعل النية سبب التوفيق.

قال عمر ﷺ: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وقال داود الطائي: البرُّ همته التقوى، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل، كما تتعلمون العمل.

وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير[1].

وإن النية والإرادة والقصد عبارات على متوارده معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب.

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ،ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[2].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣٦٤.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٣٧٣.

تاسعاً: فضيلة الصدق:

قال تعالى: {رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}، فهو مما مدح الله تعالى به، ولو مكانته ورفعته لما أثنى عليه سبحانه.

وعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(١)، فالصدق طريق الخير والمنجي في الدنيا والآخرة بخلاف الكذب فهو المهلك لصاحبه.

وقال ابن عباس ﵄: أربع مَن كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر.

وقال بشر ابن الحارث: مَن عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك، والحقُّ سيفك، والله تعالى غاية طلبك.

وقال محمد بن علي الكناني: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان، على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول(٢).

---

(١) متفق عليه، كما في المغني ٤: ٣٨٦.

(٢) ينظر: الإحياء ٤: ٣٨٧.

المطلب الخامس: حب الجاه:

حبّ المال من حب الدنيا، قال الغزالي[1]: «إن الجاه والمال هما ركنا الدنيا»، لكن لما كان فيه دعوة للظهور والتعالي والتفاخر على الآخرين كان ألصق بالكبر وأخواته، وهو قريب في طلبة المنزلة من الرياء، وبينهما تعلق ظاهر.

وفي هذا المطلب بيان لمعنى الجاه وذمِّه وذم الشهرة ومدح الخمول وعلاج الجاه في النقاط الآتية:

أولاً: معنى الجاه:

الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها له.

ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص، إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه

فكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير: أي يقدر عليهما؛ ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس: أي يقدر على أن يتصرَّف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه.

---

(١) في الإحياء٣: ٢٧٩.

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده، وفي اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها.

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة، فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، فيكون سخرة له، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام، وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب[1].

ثانياً: ذم الجاه:

قال تعالى: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا} جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدَّار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٧٩.

فقال تعالى: {ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}، وهذا أيضاً متناول بعمومه لحبِّ الجاه، فإنه أعظم لذّة من لذّات الحياة الدُّنيا وأكثر زينة من زينتها[١].

فعن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف على أُمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»[٢]، والشهوة الخفية حب الجاه والمدح والثناء.

وإنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجدِّ لسلوك سبيل الآخرة، فإنّهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح.

فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات، وتحمله مشاق العبادات.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٧٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه، كما في المغني٣: ٢٧٤.

أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه، وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات.

فهو يظنُّ أن حياتَه بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله تعالى، ومجتنب لمحارم الله تعالى، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد، وتصنعا للخلق، وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبّ الرئاسة، وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٧٤ـ ٢٧٥.

ثالثاً: ذم الشهرة ومدح الخمول:

إن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم بل المحمود الخمول، إلا من شهرة الله تعالىٰ لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه، فعن البراء بن مالك رضي الله عنه، قال ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين[١] لا يؤبه له لو أَقسم علىٰ الله تعالىٰ لأَبره منهم»[٢].

قال علي رضي الله عنه: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك؛ لتذكر وتعلم واكتم واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار.

وقال إبراهيم ابن أدهم: ما صدق الله تعالىٰ من أحب الشهرة.

وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله تعالىٰ عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه.

وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة، والثياب الرديئة؛ إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً.

وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك.

وقال الفضيل: إن قدرت علىٰ أن لا تعرف فافعل.

---

(١) تثنية طمر وَهو الثوب الخلق، و«لا يؤبَهُ لهُ»: أي لا يبالى به، ولا يلتفت إليه لحقارته، قوت المغتذي على جامع الترمذي للسيوطي٢: ١٠٣٣.

(٢) أخرجه مسلم، كما في المغني٣: ٢٧٥.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

والمذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد، فليس بمذموم، وفيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم، فيهلك معهم، وأمّا القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى؛ ليتعلقوا به، فينجيهم ويثاب على ذلك[1].

رابعاً: علاج حبّ الجاه:

إنّ مَن غلب على قلبه حبَّ الجاه صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتَّودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يَزال في أَقواله وأفعاله مُلتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النِّفاق وأصل الفساد ويجرّ ذلك لا محالة إلى التّساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب.

وحبُّ الجاه إذاً من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإن طبع جُبل عليه القلب كما جُبل على حب المال، وعلاجه مركب من علم وعمل:

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٧٥ـ٢٧٨.

أمّا العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة علىٰ أشخاص الناس، وعلىٰ قلوبهم، فإن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كلُّ مَن علىٰ بسيط الأرض من المشرق إلىٰ المغرب فإلىٰ خمسين سنة لا يبقىٰ الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال مَن مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له.

فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، فمن نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا يلتفت إلىٰ الدنيا.

وأما من حيث العمل فإسقاط الجاه علىٰ قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها، حتىٰ يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذّة القبول ويأنس بالخمول، ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق، فيفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس.

ومَن أَحبّ الجاه والمنزلة، فهو كمَن أحبّ المال، بل هو شرٌّ منه، فإن فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أَحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرىٰ وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصىٰ المشرق؛ لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنىٰ

عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة، وقطع الطمع[1].

المطلب السادس: حبُّ المدح والثناء:

مرضُ المدح والثَّناء بين النّاس يُشبه حبَّ الجاه، وهو مَنفذٌ لتحقيقِهِ وموصلٌ إليه، والعكسُ بالعكس، ففي مدح الشَّخص يتحقق له الجاه، وبتحقق الجاه يمدحه الناس ويثنون عليهم.

لكن بينهما خصوص وعموم كما سيظهر من تعريفه وبيان سببه المدح وعلاج حب المدح وكراهة الذم في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

حب المدح: وهو تعلُّق القلب بإرضاء الناس مطلقاً في أقواله وأفعاله للثناء عليه.

وبالتالي يتطلع في كلِّ تصرفاته إلى مدح النَّاس لعمله والثناء عليه، ويحرص حرصاً شديداً على عدم الوقوع في ذمهم لتصرفاته، فيكون غايتُه ومقصوده رضا الخلق لا رضا ربّ الخلق.

والناس متفاوتون في رغبة مدح وذمهم، قال الغزالي: «**وللناس أربعة أحوال في المدح:**

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٨٧ـ٢٨٨.

١. **أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم** ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

٢. **أن يمتعض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته،** ويفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

٣. **أن يستوي عنده ذامه ومادحه،** فلا تغمه المذمة ولا تسرُّه استثقالاً، وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزةٍ ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطري له أشدُّ نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه.

٤. **الصدق في العبادة أن يكره المدح،** ويمقت المادح إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، مضرة له في الدين، ويحب الذام؛ إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه، ومهد إليه حسناته».

ثانياً: سبب حب المدح:

إن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

١. **شعور النفس بالكمال**؛ لأن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ، فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها.

٢. **إن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح**، وأنه مريد له ومعتقد فيه، ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته، وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له، ولا يقدر على شيء فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة.

٣. **إن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كلّ مَن يَسمعه** لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله، ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ، فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

٤. **إن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح**، إما عن طوع وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا

جرم تكون لذّته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد[١].

ثالثاً: علاج حبّ المدح:

إن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس، وحبِّ مدحهم، فصار حركاتهم كلُّها موقوفةً على ما يُوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فيجب معالجته، وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم، وهي:

١. **استشعار الكمال بسبب قول المادح**، فطريقك فيه: أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا، فإن كنت متصفاً بها، فهي إمّا صفةٌ تستحقُّ بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية.

فإن كانت من الأعراض الدنيوية، فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلّةِ العقل، فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها.

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها؛ لأنّ الخاتمةَ غيرُ معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح؛ لأنه يقرب عند

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٧٨ـ ٢٨٧.

الله تعالى زلفى، وخطر الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح؛ لأنه يقرب عند الله تعالى زُلفى، وخطر الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكلِّ ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور.

٢. **دلالة المدح على تسخير قلب المادح**، وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب، ومعالجته بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله تعالى، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله تعالى، فكيف تفرح به.

٣. **الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح**، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به، كما نقل ذلك عن السلف؛ لأنّ آفة المدح على الممدوح عظيمة.

قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكَّن الشيطان من أن يدخل في بطنه[1].

رابعاً: علاج كراهة الذم:

إن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه، والقول الوجيز فيه: أن مَن ذمك لا يخلو من أحوال:

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٨٨ـ ٢٨٩.

١. **أن يكون قد صدق فيما قال**، وقصد به النصح والشفقة، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه، فإنه غاية الجهل.

٢. **أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت**، فأنت قد انتفعت بقوله؛ إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك؛ لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته، وكلُّ ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة.

فينبغي أن تفرح به؛ لأن تنبيهك بقوله غنيمة وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه، فينبغي أن يغتنمه.

٣. **أن يكون كاذباً، فإن كان صادقاً وقصده النصح، فجناية منه على دين نفسه**، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به.

٤. **أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى**، فينبغي أن لا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أ.**أنك إن خلوت من ذلك العيب، فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه**، وما ستره الله تعالىٰ من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالىٰ؛ إذ لم يطلعه علىٰ عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

ب.**أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك**، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكلُّ مَن اغتابك فقد أهدىٰ إليك حسناته، وكل مَن مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلىٰ الله تعالىٰ، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله تعالىٰ.

ج.**أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله تعالى**، وأهلك نفسه بافترائه، وتعرض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله تعالىٰ عليه، فتشمت به الشيطان، وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه[1].

❧❧❧

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٩٠ـ ٢٩٢.

المبحث الثالث
الغضب وإخوانه

يشتمل هذا المبحث على الغضب والحقد والحسد في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: الغضب:

لا يخلو إنسانٌ عن غضب، والله عز وجل يغضب، ورسول الله ﷺ كان يغضب، فأصل الغضب لا يعتبر عيباً، ولا يعتبر وجوده مرضاً، ولكن هناك غضب في الباطل لا يصحّ، وهناك غضب ظالم فهذا الذي لا يصح، وهناك تسرّع في الغضب وبطء في الفيء فذلك لا يصح، وهناك تصرّفات أثناء الغضب لا يقرّها شرع أو عقل فهذا لا يصح، ومن ههنا كان الكلام في الغضب يحتاج إلى تفصيل، فمن المعلوم أنّه لا يستحق السيادة إلا حليم.

والغضب في غير محلّه لا تستقيم معه حياة اجتماعية، ولا علاقات صحيحة، ولا يحتاج الإنسان إلى تفكير كثير حتّى يدرك مثل هذه الأمور، فغضبة واحدة قد تفسد علاقة بين جار وجار وزوج وزوجة وبين شريك

وشريك، وأخ وأخ، فغضبة واحدة قد تفسد جماعة بأسرها فتصدّع صفّها، أو تعرقل أعمالها أو تشلّ نموّها.

ونموذج الكمال في الرضا والغضب هو رسول الله ﷺ، وكان من أخلاقه أنّه لا يغضب لنفسه، وكان من وصفه أنّه لا تزيده شدّة الجهل عليه إلا حلماً، وكان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله فلا يقوم لغضبه شيء وهذا الذي يطالب به كل الخلق للقضاء على المنكر(١).

أولاً: معناه:

الغضب: هو غليان دم القلب بطلب الانتقام.

وهذا لأن قوة الغضب محلها القلب، وإنّما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها، وفيه لذّتها ولا تسكن إلا به.

والناس في هذه القوَّة على درجات ثلاث:

١. **التفريط**: وهو أن يفقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له، ولذلك قال الشافعي: مَن استغضب فلم يغضب فهو حمار، فمَن فقد قوّة الغضب والحمية أصلاً، فهو ناقص جداً، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية فقال: {أشداء

(١) ينظر: المستخلص ص٢٣٢ـ٢٣٣.

على الكفار رحماء بينهم}، وقال لنبيه ﷺ: {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم}، وإنما الغلظة والشدّة من آثار قوَّة الحمية، وهو الغضب.

٢.**الإفراط**: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر.

وأثره في اللسان انطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

وأثره على الأعضاء الضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه، فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض.

وأثرة في القلب مع المغضوب عليه، فالحقدُ والحسدُ وإضمارُ السوء والشماتةُ بالمساءات والحزنُ بالسرور والعزمُ على إفشاء السر وهتكُ الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح.

والطريق للخلاص من نار الغضب محو حَبِّ الدُّنيا عن القلب، وذلك بمعرفة آفات الدُّنيا وغوائلها.

وما لا يُمكن محوه يُمكن كسرُه وتضعيفُه، فيَضعفُ الغضب بسببه ويهون دفعه[1].

٣.الاعتدال: وهو أن تعتدل عنده هذه القوة، فيكون قادراً على التحكم بها والسيطرة عليها، بحيث يستخدم الغضب في محلِّه عند انتهاك حرمات الله أو معاقبة مُقصِّر بقدره أو الترغيب بخير بما لا يخرج عن طبائع العقلاء

ثانياً: ذم الغضب:

بعد أن عرفنا معنى الغضب والمذموم منه يلزمنا الوقوف على بعض ما وردَ من الذم فيه على النحو الآتي:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل وأقلل، قال: «لا تغضب ثم أعاد عليه، فقال: لا تغضب»[2]، لما كان الغضبُ مدخلاً للعديدة من الشُّرور والأخلاق الذميمة، ومخرجاً لصاحبه عن طبعه، وموقعاً له المهلكات كان نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن فعله حفظاً لصاحبه من ذلك.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله قال: «لا تغضب»[3]؛ لأن فعل الغضب يوقع في المحرمات، فكان في غضب الله تعالى.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٦٧ـ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري، كما في المغني٣: ١٦٥.

(٣) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، كما في المغني٣: ١٦٥.

وعن أبي الدرداء ﷺ: دُلني على عمل يدخلني الجنة قال: «لا تغضب»[١]، فحفظ النفس عن الغضب والتشفي لها، يكون سبيلاً لرضا الله تعالى ودخول الجنة.

وقال جعفر بن محمد: «الغضب مفتاح كل شر».

وقال وهب بن منبه: «للكفر أربعة أركان: الغضب، والشهوة، والخرق، والطمع».

قال بعضهم: إياك والغضب، فإنّه يُصيرك إلى ذلك الاعتذار.

وقال ابنُ مسعود ﷺ: انظروا إلى حلم الرَّجل عند غضبه.

وقال ابنُ وهب: للكفر أربعة أركان: الغضب والشهوة والخرق والطمع[٢].

ثالثاً: الأسباب المهيجة للغضب:

إنّ علاج كلّ علّة حسم مادتها وإزالة أسبابها، فلا بُدّ من معرفة أسباب الغضب، وهي الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأَجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن، كما في المغني٣: ١٦٥.
(٢) ينظر: الإحياء٣: ١٦٧.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك.

والمزاح تزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه، والهزل تزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة، والهزء تزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك.

والتعيير فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب.

وشدّةُ الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعزّ الاستغناء وترفعاً عن ذلِّ الحاجة، وكلُّ خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقّة وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها؛ لترغب النَّفس عنها، وتنفر عن قبحها.

ومن أشدِّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية، وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه، وتستحسنه وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر، فيهيج الغضب إلى القلب بسببه وتسمية هذا عزةً نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح.

بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلي عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء[1].

رابعاً: علاج الغضب بعد هيجانه:

يُعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل:

أما العلم فهو ستة أمور:

١.أن يتفكر في الأخبار فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدّة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام، وينطفيء عنه غيظه.

قال مالك بن أوس ابن الحدثان: غضب عمر ﷺ على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، فكان عمر يقول: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، فكان يتأمل في الآية، وكان وقافاً عند كتاب الله مهما تلي عليه كثير التدبر فيه، فتدبر فيه وخلى الرجل.

وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى: {والكاظمين الغيظ} فقال لغلامه: خل عنه.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٧٢ـ ١٧٣.

٢. **أن يخوف نفسه بعقاب الله**، وهو أن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة.

٣. **أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام**، وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوِّف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب، وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه؛ لأنه متردِّدٌ على حظوظه العاجلة، يُقدِّم بعضها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل، وما يعينه على الآخرة، فيكون مثاباً عليه.

٤. **أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب**، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

٥. **أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام**، ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس، فيقول لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم

القيامة، والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين، فمهما كظم الغيظ، فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله.

فما له وللناس وذلّ من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله من معارف الإيمان، ينبغي أن يكرره على قلبه.

٦.أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله تعالى، ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أمر رسول الله ﷺ إن يقال: عند الغيظ.

وكان ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها، وقال: يا عويش قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي»[1].

فيستحبُّ أن تقول ذلك، فإن لم يزل بذلك، فاجلس إن كنت قائماً واضجع إن كنت جالساً، واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك

---

(١) أخرجه ابن السني في اليوم والليلة١: ٤٠٤، كما في المغني٣: ١٧٤.

ذلّ نفسك، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون، فإن سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة[١].

خامساً: فضيلة الحلم:

إن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأنّ كظم الغيظ عبارة عن التَّحلُّم: أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ، إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً، فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التَّحلُّم وكظم الغيظ تكلفاً.

فعن أبي هريرة ﷺ إن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، ويجهلون علي، وأحلم عنهم، قال: إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»[٢].

قال عمر ﷺ: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم».

وقال علي ﷺ: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٧٣ـ ١٧٤.

(٢) رواه مسلم، كما في المغني٣: ١٧٧.

وقال الحسنُ: اطلبوا العلم، وزينوه بالوقار والحلم .

وقال معاويةُ: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم.

وقال معاويةُ لعمرو بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه، قال أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه.

وقال الأحنفُ بنُ قيس: لست بحليم ولكنني أتحلم.

وقال بعضُ العلماء: الحلم أرفع من العقل؛ لأنّ الله تعالى تسمَّى به[1].

سادساً: تجنب الانتصار والتشفي:

إن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي، وإنّما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به.

وأما السبُّ فلا يقال بمثله، فعن سليم بن جابر ﵁، قال ﷺ: «إن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك، فلا تُعيِّره بشيء تعلمه منه، دعه يكون وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبنَّ شيئاً»[2].

وإنما نهى رسول الله عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه، ولكنه لا يعصى به.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٧٦ـ ١٧٩.

(٢) في صحيح ابن حبان٢: ٢٧٩.

والنميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين حرام بالاتفاق.

والرخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق، ولكن الأفضل تركه، فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يُمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب لعلّه أيسر من الشروع في الجواب، والوقوف على حدّ الشرع فيه[1].

خامساً: فضيلة الرفق:

إن الرِّفق محمودٌ ويُضادُه العنفُ والحدّة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسَّلامة، وقد يكون سبب الحدّة الغضب، وقد يكون سببها شدّةُ الحرص واستيلاؤه بحيث يدهش عن التَّفكر، ويَمنع من التَّثبت، فالرِّفق في الأُمور ثمرةٌ لا يُثمرها إلا حسن الخلق، ولا يُحسن الخلق إلا بضبط قوَّة الغضب وقوَّة الشَّهوة وحفظهما على حدِّ الاعتدال.

ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه، فعن عائشة رضي الله عنها: «إن الله تعالى رفيق يحبّ الرفق»[2].

وقال وهبُ بنُ منبه: «الرِّفق ثنى الحلم».

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨٠.

(٢) أخرجه مسلم، كما في المغني٣: ١٨٥.

وقال أبو عون الأنصاري: ما تكلم الناس بكلمة صعبة، إلا وإلىٰ جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها.

وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بُدّ منه، فإن مع كلّ إنسان شيطاناً.

واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه.

وقال الحسنُ: المؤمنُ وقاف متأن، وليس كحاطب ليل.

فهذا ثناءٌ أهل العلم علىٰ الرِّفق؛ وذلك لأنه محمودٌ ومفيدٌ في أكثر الأحوال، وأغلب الأمور والحاجة إلىٰ العنف قد تقع[1].

المطلب الثاني: الحقد:

إنّ الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التَّشفي في الحال رجع إلىٰ الباطن واحتقن فيه، فصار حقداً.

ونتحدث في هذا المطلب عن معنىٰ الحقد وأثاره وفضيلة العفو والإحسان في المطالب الآتية:

أولاً: معناه:

الحقد: وهو ما يلزم في القلب من استثقال وبغض ونفار لشخص فيدوم ويبقىٰ[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨٥ـ١٨٦.

وأَقلُّ درجات الحقد أن تحترزَ من آفاته، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله تعالى به، ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى، والمعاونة على المنفعة له أو بترك الدعاء له والثناء عليه، أو التحريض على برِّه ومواساته.

وللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة:

١. أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان، وهو العدل، وهو منتهى درجات الصالحين.

٢. أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل، وهو اختيار الصديقين.

٣. أن يظلمَه بما لا يستحقه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل[٢].

ثالثاً: آثار الحقد:

إن الحقدَ ثمرةُ الغضب، والحقدُ يثمر ثمانية أمور:

١. **الحسد**، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها وتسرُّ بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

٢. أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أَصابه من البلاء.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨١.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ١٨١.

٣.أن تهجرَه وتصارمَه وتنقطعَ عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

٤.أن تعرض عنه استصغاراً له.

٥.أن تتكلَّم فيه بما لا يحلُّ من كذب وغيبة وإفشاء سرٍّ وهتك ستر وغيره.

٦.أن تحاكيه استهزاءً به وسخرية منه.

٧.إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

٨.أن تمنعه حقَّه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة، وكلُّ ذلك حرام.

فلما حَلَفَ أبو بكر ﵁ أن لا ينفق على مسطح، وكان قريبه؛ لكونه تكلَّم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى: {ولا يأتل أولوا الفضل منكم} إلى قوله: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}، فقال أبو بكر: نعم نحبُّ ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه.

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة في للنفس، وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين، وهو من فضائل أعمال المقربين.

فهذا كلُّه مما يُنقصُ درجتك في الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم، وثواب جزيل وإن كان لا يعرضك لعقاب الله تعالى[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨١.

ثالثاً: فضيلة العفو والإحسان:

إن معنى العفو أن يستحقَّ حقّاً، فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ، قال تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، وقال تعالى: {وأن تعفوا أقرب للتقوى}

قال إبراهيم التيمي: إن الرَّجل ليظلمني فأرحمه، وهذا إحسان وراء العفو؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم، وأنه يُطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب.

وقال بعضُهم: إذا أراد الله تعالى أن يُقرِّب عبداً، قيَّض له مَن يظلمَه.

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز، فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه، فقال له عمر: إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها.

وقال يزيد بن ميسرة: إن ظللت تدعو على من ظلمك، فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة، فيسعكما عفوي.

وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه: كِلُّ الظالم إلى ظلمه، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه، إلا أن يتداركه بعمل.

وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم حتىٰ إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتىٰ إذا قدر عفا.

وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة، يعني الحقد والغضب.

وقال الفضيل: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إلي في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه، فجعل يَبكي فقلت: أعلىٰ الدنانير تبكي، فقال: لا، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله تعالىٰ، فأشرف عقلي علىٰ إدحاض حجته، فبكائي رحمة له[1].

المطلب الثالث: الحسد:

إن الحسد مفسد للطاعات الباعث علىٰ الخطيئات المورث للتعب والهمّ في غير فائدة، بل مع كلّ وزر، والموجب عمىٰ القلب وكفىٰ بالحاسد إضلالاً وخسراناً أنه عدو لنعمة اللهّ تعالىٰ ومعاند لإرادته وساخط لقضائه.

وفي مطلب الحسد بيان لمعناه وذمه والفرق بينه وبين الغبط ومراتب الحسد وأسبابه والمنافسة وعلاجه في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الحسد: إرادة زوال نعمة اللهّ تعالىٰ عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح.

فإن لم ترد زوالها ولكن أردت لنفسك مثلها فهي غبطة.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨٢ـ ١٨٤.

وضد الحسد النصيحة، وهي إرادة بقاء نعمة اللهّ تعالى على أخيك المسلم فيما له فيه صلاح.

وحصن النصيحة المانع من الحسد: هو ذكر ما أوجبه اللهّ من موالاة المسلمين، وحصن هذا الحصن هو ذكر ما عظم اللهّ تعالى من حقه ورفع قدره وما له عند اللهّ تعالى من الكرامات في العقبى، وما لك من الفوائد الدينية والدنيوية دنيا وأخرى[1].

ثانياً: ذم الحسد:

إن الحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرعه، والغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى، وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[2]، بيان لعقوبة شديدة للحاسد بضياع حسناته حتى يجتنبه؛ لما فيه من الضرر البالغ على المسلمين.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله تعالى إخواناً»[3]، فالحسد من الإخلاق الذميمية المنافية لما أمرنا به من المحبة والإخاء في الدين.

---

(١) ينظر: رسائل الغزالي ص١٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه، كما في المغني٣: ١٨٧.

(٣) في الموطأ٥: ١٣٣٣، وصحيح البخاري٨: ١٩.

وعن الزبير رضي الله عنه، قال ﷺ: «دبّ إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء»(١)، فالحسدُ مرضٌ اجتماعيٌّ يَفتك بالمجتمع إن شاع فيه، فعلينا مُعالجته حفاظاً على مجتمعاتنا.

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأَخيك فيعافيه الله تعالى ويبتليك»(٢)، وتكون هذه الشماتة نتيجة الحسد والحقد، وهذا تحذير نبوي من هذا السلوك المنحرف.

قال بعضُ السلف: أوَّل خطيئة هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته، فأبى أن يسجد له، فحمله على الحسد والمعصية.

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على الدنيا، وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار.

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قلّ فرحه، وقل حسده.

وقال معاوية: كلُّ النَّاس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنّه لا يرضيه إلا زوالها.

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ، وحسب الحسود ما يلقى.

---

(١) أخرجه الترمذي، كما في المغني٣: ١٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، كما في المغني٣: ١٨٧.

وقال أعرابي: ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من حاسدٍ، إنه يَرَىٰ النعمة عليك نقمة عليه.

وقال الحسن: يا ابن آدم لِمَ تحسد أخاك، فإن كان الذي أَعطاه لكرامته عليه، فلم تحسد من أكرمه الله تعالىٰ، وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلىٰ النار.

وقال بعضهم: الحاسدُ لا يَنال من المجالس إلا مذمةً وذلاً، ولا يَنال من الملائكة إلا لعنةً وبغضاً، ولا يَنال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا يَنال عند النزع إلا شدةً وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحةً ونكالاً[1].

ثالثاً: الفرق بين الحسد والغبط:

لا حسد إلا علىٰ نعمة، فإذا أنعم الله تعالىٰ علىٰ أَخيك بنعمة، فلك فيها حالتان:

١. أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تُسمَّىٰ حسداً، فالحسدُ حدُّه كراهة النعمة، وحُبُّ زوالها عن المنعم عليه.

وهو حرام بكلِّ حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها علىٰ تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرُّك كراهتُك لها، ومحبتك لزوالها، فإنَّك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته.

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨٧ـ ١٨٩.

وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرّة، وإلى هذا أشار القرآن بقول: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها}، وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان.

وقال تعالى: {ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم}، فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد.

وقال تعالى: {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء}، وهذا حسداً منهم على نعم الإيمان.

وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى: {إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم} فلمّا كرهوا حبّ أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه.

وقال تعالى: {ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا}: أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وقال تعالى في معرض الإنكار: {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله}، فالحسود يريد منع نعم وفضله على العباد، فهو معترض على الحق.

وقال تعالى: {كان الناس أمة واحدة} إلى قوله {إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم} قيل في التفسير حسداً.

٢.أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تُسمَّىٰ غبطة، وقد تختصُّ باسم المنافسة، وقد تُسمَّىٰ المنافسة حسداً، والحسد منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني.

وهي ليست بحرام، بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، وقد يستعمل لفظ: «الحسد» بدل «المنافسة» و«المنافسة» بدل «الحسد»،

والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة، والذي يدلُّ علىٰ إباحة المنافسة قوله تعالىٰ: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون}، وقال تعالىٰ: {سابقوا إلىٰ مغفرة من ربكم}، وإنّما المسابقة عند خوف الفوت.

فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك، فعن ابن عمرو رضي الله عنهما، قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالىٰ علماً، فهو يعمل به ويعلمه الناس»[1].

فلا حرج علىٰ من يغبط غيره في نعمة، ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه، ولم يكره دوامها له، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحب أن يكون مثله؛ لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية، وذلك حرام.

(١) متفق عليه، كما في المغني٣: ١٩١.

وإن كانت النِّعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها.

وإن كانت نعمة يتنعَّم بها على وجهٍ مباح، فالمنافسة فيها مباحة، وكلُّ ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به في النعمة، وليس فيها كراهة النعمة[1].

رابعاً: مراتب الحسد أربع:

١.أن يحبَّ زوال النعمة عنه، وإن كان ذلك لا ينتقل إليه، وهذا غاية الخبث.

٢. أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثل: رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره، وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها، وهو حالاً من الأولى في الذم.

٣.أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما، وهو مذموم.

٤.أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم تحصل، فلا يحب زوالها عنه، وهذا الأخير، هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٨٩ـ ١٩١.

وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع، ولكنه مذموم؛ لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض}، فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم[1].

خامساً: أسباب الحسد والمنافسة:

إن المنافسة سببها حبُّ ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً، فسببه حبّ الله تعالى وحبّ طاعته، وإن كان دنيوياً، فسببه حبُّ مباحات الدنيا والتنعم فيها، وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة:

١. **العداوة والبغضاء**، وهذا أشدُّ أسباب الحسد، فإن من آذاه شخصٌ بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التَّشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفَّى بنفسه أحبُّ أن يتشفَّى منه الزمان، ورُبَّما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى.

فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمةٌ ساءه ذلك؛ لأنّه ضدُّ مراده، ورُبَّما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٩٢.

وبالجملةِ فالحسدُ يَلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنّما غايةُ التقي أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه، فأمّا أن يبغض إنساناً ثمّ يَستوي عنده مسرَّته ومساءته، فهذا غيرُ ممكن، وهذا مما وصف الله تعالىٰ الكفار به أعني الحسد بالعداوة إذ قال تعالىٰ: {وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤهم} الآية.

وكذلك قال: {ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر}، والحسدُ بسبب البغض رُبَّما يُفضي إلىٰ التَّنازع والتَّقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

٢.**التعزز**؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفَّع عليه غيره، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبَّر عليه، وهو لا يُطيق تكبُّره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبَّر، بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يَرضى بالترفُّع عليه.

٣.**الكبر**؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو رُبّما يتشوف إلىٰ مساواته أو إلىٰ أن يرتفع عليه، فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.

٤. **التعجب**؛ كما أخبر الله تعالىٰ عن الأمم السالفة؛ إذ قالوا: {ما أنتم إلا بشر مثلنا}، وقالوا: {أنؤمن لبشرين مثلنا} {ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون}، فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالىٰ بشرٌ مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم مَن هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبُّر وطلب رئاسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب.

٥. **الخوف من فوت المقاصد**، وذلك يختصُّ بمتزاحمين علىٰ مقصود واحد، فإن كان واحدٌ يحسدُ صاحبه في كلِّ نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم علىٰ مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في التزاحم علىٰ نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلىٰ مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد علىٰ نيل المرتبة من قلب الأستاذ.

٦. **حبّ الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود**؛ وذلك كالرَّجل الذي يُريد أن يكون عديم النّظير في فنٍّ من الفنون إذا غلب عليه حبُّ الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنِّه، وأنه لا نظير له، فإنّه لو سمع بنظير له في أقصىٰ العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر علىٰ المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوىٰ محض الرياسة بدعوىٰ الانفراد.

٧.خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنّك تجد من لا يشتغل برئاسة وتكبر، ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالىٰ، فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله علىٰ عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

فهذه هي أسباب الحسد، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوىٰ قوَّة لا يقدر معها علىٰ الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة، وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلَّما يتجرد سبب واحد منها.

وأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما علىٰ غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما.

ومن اشتد حرصه علىٰ الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فإن الدنيا هي التي تضيق علىٰ المتزاحمين[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٩٢ـ ١٩٥.

سادساً: علاج الحسد:

إن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوىٰ أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه علىٰ المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما.

ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك، وصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة.

أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالىٰ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته، وهذه جناية علىٰ حدقة التوحيد، وقذىٰ في عين الإيمان وناهيك بهما جناية علىٰ الدين.

وقد انضاف إلىٰ ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين، وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالىٰ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب، كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل والنهار.

وأمّا كونه ضرراً عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالىٰ عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكلّ بلية تنصرف

عنهم، فتبقىٰ مغموماً محروماً متشعب القلب ضيِّق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك، فتنجزت في الحال محنتك، وغمك نقداً، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك.

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضىٰ الفطنة إن كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالىٰ من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوىٰ ولا فائدة.

أما أنه ضرر علىٰ المحسود في دينه ودنياه فواضح؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالىٰ من إقبال ونعمة، فلا بُدّ أن يدوم إلىٰ أجل غير معلوم قدره الله سبحانه، فلا حيلة في دفعه، بل كُلُّ شيءٍ عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب.

ومهما لم تزل النعمة بالحسد، لم يكن علىٰ المحسود ضررٌ في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة، ولعلَّك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي، وهذا غاية الجهل، فإنّه بلاءٌ تشتهيه أولاً لنفسك، فإنّك أيضاً لا تخلو عن عدو يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالىٰ عليك نعمة، ولا علىٰ أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً؛ لأن الكفار يحسدون المؤمنين علىٰ الإيمان، قال تعالىٰ: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم}.

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك، ولا تزول عنك بحسد غيرك، فهذا غاية الجهل والغباوة.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح، أما منفعته في الدين، فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة، كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فكأنك أردت زوال النعمة عنه، فلم تزل نعم كان الله عليه نعمة؛ إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء، وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين، ولا عذاب أشدَّ مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة، وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك، ولكن في عذاب الحسد؛ لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً[1].

٭٭٭

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ١٩٦ـ١٩٧.

المبحث الرابع
الهوى وإخوانه

لما كان الهوىٰ عامّة أمراض القلب ترجع للهوىٰ ذكرتُ الأمراض التي لا ترجع لحبّ الدينا والكبر والغضب وإخوانهم تحت الهوىٰ، وهذه الأمراض ذكرها البركلي في «الطريقة المحمدية».

قال سعيد حوىٰ [(١)]: «إذا تأمّلت أمراض الحياة البشرية كلها: الكبر والعجْب والحسد وحب الجاه والدنيا والزنا والفواحش والغيبة والنميمة، وكا ما يخطر علىٰ بالك من أمراض فإنّك تجد وراءه شيئاً واحداً هو اتّباع الهوىٰ ، ولخطورة اتّباع الهوىٰ قال تعالىٰ: ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض﴾ [المؤمنون: ٧١]».

فيشتمل هذا المبحث علىٰ اتباع الهوىٰ وسوء الظن والعجلة والفظاظة والغلظة والوقاحة والغش والمداهنة والعناد ومكابرة الحق واليش والخفة والصلف والتمرد والإباء والنفاق والجزبرة والبلادة والغباوة والحماقة والخمود في النقاط الآتية:

---

(١) في المستخلص ص٢٦١.

أولاً: اتباع الهوى:

الهوى في الأصل: هو ميل النفس الخاطئ.

ولأنّ الدافع لاتّباع الهوى هو النفس درج على ألسنة السالكين: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[١].

قال تعالى: {فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا} [النساء: ١٣٥]: أي مخافة أن تعدلوا عن الحق، فإن اتباع الهوى من مظانّ الجور الذي حقُّه أن يخاف ويحذر[٢].

قال الجنيد: النفس هي الداعية إلى المهالك المعينة للأعداء المتبعة للهوى المتهمة بأصناف الأسواء.

قال تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} [النازعات: ٤٠]: أي الميل إليه بمقتضى الجبلة البشرية، فإن الإنسان مجبول على حب الهوى للاختيار من الله، فانظر كيف جعل الله مخالفة النفس بترك هواها علة عادية وسببا شرعيا لقصر مقامه على الجنة؛ ولهذا كانت مخالفة النفس رأس العبادة.

قال في «القشيرية»: «وقد سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: ذبح النفس بسيوف المخالفة».

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٦١.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود٢: ٢٤٢.

قال ذو النون: مفتاح العبادة الفكر وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوىٰ ومخالفتها ترك شهواتها.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة علىٰ سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة فمن أطلق عنانها، فهو شريكها معها في فسادها، قال تعالىٰ: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه} [الجاثية: ٢٣] بحيث لا يعبد إلا ما تهواه نفسه بأن أطاعه، وبنىٰ عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلا.

وقال بكر الطمستاني: النعمة العظمىٰ الخروج عن النفس؛ لأن النفس أعظم حجابا بينك وبين الله تعالىٰ.

وقال سهل: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوىٰ[١].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله تعالىٰ»[٢]، فإن محاسبته لها وعدم تركها هملا إنما ينشأ عن تفكره في الدنيا وزوالها وفي نفسه وانتقالها كأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل، فيحاسب نفسه فيمنعها عما لا ينبغي[٣].

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٣: ٢: ٧١ـ ٧٣.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٦٣٨، وحسنه.

(٣) ينظر: دليل الفالحين ٢: ٢٩٧.

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا[١].

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه[٢].

قال ابن العربي: كان مشايخنا يحاسبون أنفسهم على أفعالهم وأقوالهم ويقيدون في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم، فإن استحق استغفاراً استغفروا، وإن شكراً فشكروا، ثم ينامون، فزدناً عليهم في هذا الباب الخواطر، فكنا نقيد ما تحدث به نفوسنا ونهتم به ونحاسبها عليه؛ لقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا[٣].

وإن للنفس صفتين: انهماك في الشهوات وامتناع عن الطاعات، فإذا جمحت عند ركوب الهوى يجب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها بسوط خلاف الهوى، وجهد العوام في توفية الأعمال وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال[٤].

ثانياً: سوء الظن:

وهو سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين بمجرد الوهم أو الشك بفسادهم

---

(١) في سنن الترمذي ٤: ٦٣٨.

(٢) في سنن الترمذي ٤: ٦٣٨.

(٣) ينظر: بريقة محمودية ٢: ٧٤.

(٤) ينظر: بريقة محمودية ٢: ٧٧.

وفسقهم من غير علم أو ظن[١].

قال تعالىٰ: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم} [الحجرات: ١٢]: أي كونوا علىٰ جانب منه، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن ظن حتىٰ يعلم أنه من أي قبيل[٢].

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[٣]: أي احذروا اتباع الظن او احذروا سوء الظن بمن لا يساء الظن به من العدول، والظن تهمة تقع في القلب بلا دليل، فإن الظن أكذب حديث النفس؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان[٤].

وعن جابر ﵁، قال ﷺ قبل وفاته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[٥]، هذا تحذير من القنوط وحث علىٰ الرجاء عند الخاتمة، ومعنىٰ حسن الظن بالله تعالىٰ أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً، ويكونان سواء.

وقيل: يكون الخوف أرجح فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص علىٰ

---

(١) ينظر: طريقة محمدية٢: ٢٥٤.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود٢: ٢٩٧.

(٣) في موطأ مالك ٥: ١٣٣٣، وصحيح البخاري٤: ٤.

(٤) ينظر: التيسير١: ٤٠٣.

(٥) في صحيح مسلم٤: ٢٢٠٥.

الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له[١].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن حسن الظن بالله تعالى من عبادة الله»[٢]: أي حسن الظن به من جملة حسن عبادته، فهو مطلوب محبوب، لكن مع ملاحظة مقام الخوف، فيكون باعث الرجاء والخوف في حق الصحيح، أما المريض فالأولى في حقه الرجاء مطلقاً[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله جل وعلا يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله»[٤]: أي إن ظن خيراً، فله مقتضى ظنه، وإن أني أفعل به شراً، فله ما ظنه، فالمعاملة تدور مع الظن[٥].

ثالثاً: العجلة:

العَجَلَةُ: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه.

وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن حتى قال تعالى: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ}، وقال تعالى:{وَلا تَعْجَلْ

---

(١) ينظر: تعليق البغا على البخاري٤: ٢٢٠٥.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٥٩٦، والمستدرك٤: ٢١٦، وقال: **هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.**

(٣) ينظر: التيسير بشرح الجامع١: ٣١٨.

(٤) في صحيح ابن حبان٢: ٤٠٥.

(٥) ينظر: التيسير٢: ١٨٨.

بِالْقُرْآنِ}، وقال تعالى: {وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ}، وقال تعالى: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ}، فذكر أنّ عَجَلَتَهُ ـ وإن كانت مذمومة ـ، فالذي دعا إليها أمر محمود، وهو طلب رضا الله تعالى، وقال تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ}، وقال تعالى: {وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا}(١).

وحد العجلة: المعنى الراتب في القلب الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر دون التوقف، وضدها الأناة، وهي المعنى الراتب في القلب الباعث على الاحتياط في الأمور والتأني في اتباعها والعمل بها(٢).

والعجلة لها ثلاث صور:

أ.العجلة في حصول المرام بسرعة قبل وقته كمن يريد حفظ القرآن ويعجل في حصوله.

ب. العجلة في شروع عمل بمجرد خطوره في قلبه بلا تأمل في أن له فيه رشداً وصلاحاً أو لا: كمن يرى رجلاً يقف دراهم لقراءة القرآن فيعجل بمثله بلا طلب وتفتيش من علماء الآخرة.

ج. العجلة في إتمام العمل بدون توفية حقه: كمَن يشرع في الصلاة أو التلاوة، فيعجل في الإتمام بدون توفية كل جزء حقّه بعدم رعاية الآداب(٣).

---

(١) ينظر: مفردات القرآن للراغب٢: ٢.

(٢) ينظر: رسائل الغزالي ص١٤٤ـ ١٤٥.

(٣) ينظر: بريقة محمودية٣: ٦٢.

والاستعجال خصلة مفوتة للمقاصد موقعة في المعاصي؛ لأن أصل العبادة وملاكها الورع، والورع أصله النظر البالغ في كلّ شيء والبحث التام عند كل شيء هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل.

فإذا كان الرجل مستعجلاً في الأمور غير متأن متثبت متبين لم يقع منه نظر وتوقف في الأمور كما يجب ويسارع إلى أكل كل طعام، فإنه يقع في الحرام والشبهة، وإلى كل كلام فإنه يقع في الزلل، وكذلك في كل أمر يفوته الورع، وأي خير في عبادة بلا ورع، فحقٌّ على العبد أن يهتم لإزالة هذه الآفة(١).

فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «التأني من الله تعالى والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله تعالى، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد»(٢): أي الشيطان يحمل على العجلة بوسوسته؛ لأنها تمنع من التثبت والنظر في العواقب، وذلك وقع في المعاطب، وذلك من كيد الشيطان ووسوسته(٣).

وعن ابن عباس ﵄، قال ﷺ للأشج: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة»(٤)، فالأناة تربصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل(٥).

---

(١) ينظر: رسائل الغزالي ص١٤٤ـ ١٤٥.

(٢) **رواه أبو يعلى ورواته رواة الصحيح، كما في الترغيب٣: ٢٨٠.**

(٣) ينظر: التيسير١: ٤٢٦.

(٤) **رواه مسلم، كما في الترغيب٣: ٢٨١.**

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم١: ١٨٩.

وقال معاوية: «إن التفهم في الخبر زيادة ورشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئاً»(١).

رابعاً: الفظاظة وغلظة القلب:

والفظُّ: السَّيء الخلق، الجافي الطبع.

والغليظ القلب: القاسيه؛ إذ الغلظة مجازٌ عن القسوة وقلّة التسامح، كما كان اللين مجازاً في عكس ذلك(٢).

قال الله تعالىٰ: {ولو كنت فظا} سيئ الخلق {غليظ القلب} قاسيه بحيث لا تلين لأحد {لانفضوا}: أي تفرقوا {من حولك} [آل عمران: ١٥٩] وفي صدر الآية قال تعالىٰ {فبما رحمة من الله لنت لهم}.

فعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه»(٣)، وذلك أن الرفق به انتظام خير الدارين واتساق أمرهما، وفي العنف ضد ذلك(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي علىٰ الرفق، ما لا يعطي علىٰ العنف، وما لا يعطي علىٰ ما سواه»(١).

---

(١) في الفقيه والمتفقه٣: ٢٩٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير٤: ١٤٦.

(٣) متفقٌ عليه، كما في الترغيب١: ٢٠٧.

(٤) ينظر: دليل الفالحين٥: ٩٣.

وعن جرير بن عبد الله ﷺ، قال ﷺ: «مَن يحرم الرفق، يُحرم الخير كله»[٢]، أي يحرم بأن لا يوفق له بل يكون فيه العنف والشدة، فإنه يحرم الخير الناشيء عن الرفق[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ:«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٤].

خامساً: الوقاحة:

وهي قلة الحيا وضدها الحياء، وهو انحصار النفس خوف ارتكاب القبائح أو خوف ترك الجميل أو خوف لحوق العيون[٥].

والوقاحة مذمومة بكل لسان، إذ هي انسلاخ من الإنسانية، وحقيقتها لجاجة النفس في تعاطي القبيح.

ومداواةُ اكتساب الحياء حقُّ الإنسان إذا همَّ بقبيح أن يتصور أجلَّ مَن في نفسه حتى كأنه يراه، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه، فعن معاذ بن

---

(١) رواه مسلم، كما في الترغيب١: ٢٠٨.

(٢) رواه مسلم، كما في الترغيب١: ٢٠٨.

(٣) ينظر: دليل الفالحين٥: ٩٣.

(٤) رواه مسلم، كما في الترغيب١: ٢٠٨.

(٥)ينظر: طريقة محمدية٣: ٧١.

جبل رضي الله عنه، قال ﷺ: «واستحيِ من الله استحياء رجل ذي هيبة من أهلك»(١).

ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال، ولا من الذين لا يميزون، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد.

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة: البشر: وهم أكثر من يستحي منه، ثم نفسه، ثم اللهَّ تعالىٰ، ومن استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره، ومن استحيا منهما ولم يستحِ من اللهَّ تعالىٰ فلعدم معرفته بالله تعالىٰ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته، ومن لا يعرف اللهَّ تعالىٰ، فكيف يستعظمه، وكيف يعلم أنه مطلع عليه.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، ولتذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»(٢): أي أورثه ذلك الفعل الاستحياء منه تعالىٰ فارتقىٰ إلىٰ مقام المراقبة الموصل إلىٰ درجة المشاهدة.

---

(١) في مسند البزار رقم ٢٦٤٢.

(٢) في سنن الترمذي ٤: ٦٣٧، والمستدرك ٤: ٣٥٩، وصححه.

قال بعضهم: فمن استحيا من الله حق الحياء ترك الشهوات وتحمل المكاره والمشاق، حتى تصير نفسه مدموغة، فعندها تظهر محاسن الأخلاق وتشرق أنوار الأسماء في قلبه ويغزر علمه بالله، فيعيش غنياً به ما عاش[١].

وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}، تنبيهًا على أن العبد إذا علم أن اللهَّ يراه استحيا من ارتكاب الذنب، وقد سئل الجنيد عما يتولد منه الحياء من اللهَّ تعالى، فقال: رؤية العبد آلاء الله عليه، ورؤية تقصيره في شكره[٢].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الإيمانُ بضع وستون شعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان»[٣]، الحياء رؤية الآلاء: أي النعم ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء.

قال القاضي عياض: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأنه قد يكون تخلقاً واكتساباً كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر ومانعاً من المعاصي[٤].

---

(١) ينظر: التيسير ١١: ١٤٦.

(٢) ينظر: مكارم الأخلاق ١: ٢٠٧ـ٢٠٨.

(٣) في صحيح البخاري ١: ١١.

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٢: ٥.

سادساً: الغِش والغلّ:

وهي عدم تمحيص النُّصح بأن لا يجتنب من إصابة الشرّ للغير نفساً أو مالاً أو غيرهما، وإن لم يرد الشرَّ ابتداء وقصداً: كمَن يريد إزالة متاع معيب له فيكتم عيبه فيبيعه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»[١]: أي من متابعينا وعلى منهاج شرعنا؛ لأن وصف المصطفى وطريقته الزهد في الدنيا والرغبة عنها وعدم شرر الطمع.

قال الطيبي: لم يرد به نفيه عن الإسلام، بل نفي خلقه عن أخلاق المسلمين: أي ليس هو على سنتنا وطريقتنا في مناصحة الإخوان.

فيجب على كل بائع إظهار عيب متاعه أو أن يخبر به إن كان العيب خفياً لا يمكن إظهاره[٢].

فعن أنس رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو قال: لأخيه ما يحب لنفسه»[٣].

قال أبو الزناد: ظاهر الحديث التساوي، وحقيقته التفضيل، لأن الإنسان يحب أن يكون أفضل الناس، فإذا أحب لأخيه مثله، فقد دخل هو في جملة المفضولين، ألا ترى أن الإنسان يجب أن ينتصف من حقه ومظلمته،

---

(١) في صحيح مسلم١: ٩٩.

(٢) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٢٠ـ ١٢١.

(٣) في صحيح مسلم١: ٦٨.

فإذا كمل إيمانه وكانت لأخيه عنده مظلمة أو حق، بادر إلى إنصافه من نفسه، وآثر الحق، وإن كان عليه فيه بعض المشقة.

وقال الفضيل بن عياض: إن كنت تريد أن يكون الناس كلهم مثلك، فما أديت لله النصيحة، كيف وأنت تود أنهم دونك.

وقال بعض الناس: المراد بهذا الحديث كف الأذى والمكروه عن الناس، ويشبه معناه قول الأحنف بن قيس، قال: كنت إذا كرهت شيئًا من غيري لم أفعل بأحد مثله[1].

سابعاً: الفتنة:

وهي إيقاع الناس في الاضطراب أو الاختلال والاختلاف والمحنة والبلاء بلا فائدة دينية، وهو حرام؛ لأنه فساد في الأرض وإضرار بالمسلمين وزيغ وإلحاد في الدين[2].

قال تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات} [البروج: ١٠]: أي محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد بهم إما أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين المطرحون في الأخدود، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق[3].

---

(١) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال١: ٦٥.

(٢) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: : ١٢٣ـ ١٢٤.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود٩: ١٣٧.

فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»[(١)]، وهي نوعان فتنة الشبهات وفتنة الشهوات[(٢)].

قال المناوي: الفتنة: كلُّ ما يشق على الإنسان وكلُّ ما يُبتلي الله تعالى به عباده[(٣)].

سابعاً: المداهنة:

وهي الفتور والضعف في أمر الدين كالسكوت عند مشاهدة المعاصي والمناهي مع القدرة على التغيير بلا ضرر ديني أو دنيوي له أو لغيره[(٤)].

وقيل: معاشرة الفُسّاق وإظهار الرضا بما هم عليه من غير إنكار عليهم، وقيل: بذلُ الدين لصلاح الدُّنيا[(٥)].

وضده الصلابة في أمر الدين، قال تعالى: {يجاهدون}:أي بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم {في سبيل الله} ابتغاء رضا الله {ولا يخافون لومة لائم} [المائدة: ٥٤][(١)].

---

(١)قال النجم: رواه الرافعيُّ في أحاليه، وعند نعيم بن حماد في كتاب الفتن عن ابن عمر ﵁ بلفظ: «أَن الفتنةَ راتعةٌ في بلادِ الله – جل جلاله – تطأ في خطامها لا يحّل لأَحد أن يوقظها، ويل لَمَن أَخَذَ بخطامها» كما في كشف الخفاء٢: ١٠٨، وفي التدوين في تاريخ قزوين١: ٢٩١ عن أَنس ﵁ مرفوعاً.

(٢) ينظر: التيسير: ١٨٠.

(٣) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: : ١٢٣ـ ١٢٤.

(٤)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٢٧.

(٥)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٢٧.

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه في العشرة من غير مقارفة المداهنة؛ إذ المداراة من المداري صدقة له والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه.

والفصل بين المداراة والمداهنة: هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلق المرء بخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه، فهذا هو المداهنة؛ لأن عاقبتها تصير إلى قل ويلازم المداراة؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله ومن لم يدار الناس ملّوه[٢].

والمداراة الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الأغلاط عليه، والمداهنة معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه.

وقال الغَزَالي: «الناس ثلاثة: أحدهم: مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثل الداء لا يحتاج إليه لكن العبد قد يبتلى به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته إلى الخلاص منه.

---

(١)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٢٧.

(٢)ينظر: روضة العقلاء١: ٧٠.

والفرق بين المداهنة والمداراة: أن المدارة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً فمباحة وربما استحسنت، والمداهنة بذل الدين لصلاح الدنيا[1].

وقال سهلُ التستري: لا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره[2].

ثامناً: الطيش والخِفة:

وهو حركة في الأعضاء بما يخالف المروءة.

قال البركليُّ والخادميُّ[3]: «وتلك الخِفّة في الأعضاء ناشئ من السَّفه وخِفّة العقل.

ويظهر ذلك في الأعضاء في الرأس والعين والأذن يلتفت يميناً وشمالاً برأسه، وينظر بعينه لكل جاء وذاهب ومتحرك، ويريد أن يسمع كلَّ قول.

ويظهر في اللسان بأن يكثر الكلام والاستفسار عما لا يهم في الدِّين والدنيا، والاستعجال في السؤال والجواب بلا تأمل وقبل تحري المناط.

ويظهر في اليد بالتحريك الكثير بلا داع وحك العضو وتسوية العمامة واللحية والثوب بلا حاجة، بل لمجرد الخفة وعبثها، وهو اللعب الذي ليس فيه لذّةٌ ولا فائدة.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٣: ١٢٨.

(٢) ينظر: آداب العشرة ص٣٩.

(٣) في بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٢.

ويظهر في القدم بالمشي فيما لا حاجة فيه وتحريكه، أو يظهر في سائر الأعضاء بالتمدد وتحريك الكتفين ونحو ذلك».

تاسعاً: العناد ومكابرة الحق:

وهو إنكار الحقّ بعد العلم به.

وهو ناشئ من الرياء أو الحقد أو الحسد أو الطمع[١].

فعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «إنّ أبغضَ الرِّجال إلى الله تعالى الألد الخصم»[٢]، وهو المعوج عن الحق المولع بالخصومة والماهر بها والألد في اللغة الأعوج[٣].

وضدُّه قبول الحقّ، وهو من آثار الإيمان وصفات الصالحين وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «المؤمنون هينون» من الهون، بمعنى السكينة والوقار، وفسَّرَ الهين بسهولته في أمر دنياه ومهمات نفسه[٤].

عاشراً: التَّمرد والإباء:

وهو عدم قبول العِظة وعدم الإطاعة لمن هو فوقه سواء كان ولي أمر أو عالم أو والد أو أستاذ لا من نحو غني أو ظالم.

---

(١)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية ٣: ١٣١.

(٢) في صحيح البخاري٣: ١٣١.

(٣)ينظر: تعليق البغا على البخاري٣: ١٣٢.

(٤)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية ٣: ١٣٢.

وسببه: الكبر والعجب والرياء والحقد والحسد والطمع واتباع الهوىٰ[١].

فعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها، قال ﷺ: «بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدىٰ ونسي الجبار الأعلىٰ، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلىٰ، بئس العبد عبد عتا وطغىٰ ونسي المبتدأ والمنتهىٰ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوىٰ يضله، بئس العبد عبد رغب يذله»[٢].

الحادي عشر: الصَّلَف:

وهو تزكية النفس بالثناء عليها بالمحاسن والخلاص عن المعايب وإظهار القدرة علىٰ الأمور الشاقة والإخبار عن الأمور الغريبة من التواريخ الماضية المستغربة أو الأمور التي ستحدث بالتكهن أو بالرمل ونحوها مع عدم المبالاة من الكذب والتصديق.

وقيل: إن الصلف والتصلف عبارة عن الدعاوىٰ الباطلة كإظهار القدرة علىٰ الأمور الصعبة والأخبار العجيبة، والغرض منه تمدح النفس وجلب القلوب، وترغيب الناس علىٰ حسب اقتضاء المقامات.

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٣.

(٢) في سنن الترمذي٤: ٦٣٢، والمستدرك٤: ٣٥١، وصححه.

وذلك قد ينشأ من الكبر والكذب والعجب كإخبار الأغنياء ببذل المال في وجوه الخير فوق الحد والأمراء بالصلابة والشجاعة والسياسة والعلماء بالعلوم والفنون والمشايخ بالرياضات والكشف والكرامات(١).

الثاني عشر: النفاق:

وهو عدمُ موافقة الظاهر للباطن، والقول للفعل، هذا هو نفاق العمل، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(٢).

ونفاق الاعتقاد هو إظهار الإيمان وإبطال الكفر، وهو المراد من المنافق في القرآن وأشد أنواع الكفر، وإن جرى عليهم أحكام الإسلام، قال تعالى: {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} [الفتح: ١١](٣).

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا»(٤).

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل»(٥).

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٣.

(٢) في صحيح البخاري١: ١٦، وصحيح مسلم١: ٧٨.

(٣) ينظر بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٤.

(٤) ينظر: صحيح البخاري١: ١٨.

(٥) ينظر: صحيح البخاري١: ١٨.

وقال الحسن: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق، وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول تعالى: {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} [آل عمران: ١٣٥](١).

قال أناس لابن عمر ﵄: إنا ندخل على سلطاننا، فنقول لهم خلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: «كنا نعدها نفاقاً»(٢).

الثالث عشر: الجربزة:

وهي ملكة إدراك تدعو إلى اطلاع ما لا يمكن معرفته كالمتشابهات وبحث القدر(٣)، أو استعمال الدهاء في الأمور الدينية، صغيرها وكبيرها(٤).

وعلاجُه: تأمل قوله تعالى {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} [الإسراء: ٨٥] {وما يعلم تأويله إلا الله} [آل عمران: ٧](٥).

وقال الغَزاليُّ(٦): «الدهاء هو جودة استنباط ما هو أبلغ في إتمام ما يظن صاحبه أنه خير، وليس بخير في الحقيقة، ولكن فيه ربح خطير، فإن كان

---

(١) ينظر: صحيح البخاري١: ١٨.

(٢) في صحيح البخاري٩: ٧١.

(٣)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٤.

(٤) ينظر: مكارم الأخلاق١: ١٦٧.

(٥)ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٤.

(٦)في ميزان العمل ص٢٧٥.

الربح خسيساً سمي جربزة، فالفرق بين الدهاء والجربزة، يرجع إلى الحقارة والشَّرف».

الرابع عشر: البلادة والغباوة والحماقة:

وهي ملكة يقصر صاحبها عن إدراك الخير والشر والنفع والضر، وضدهما الذكاء والفطنة.

وعلاجه: السعي والجد والمواظبة في التعلم.

قال أبو حنيفة لأبي يوسف: كنت بليداً أخرجتك مواظبتك من البلادة حتى صار إماماً ثانياً مع كونه على البلادة بناء على الجد والسعي(١).

ولا شك في أنا أبي يوسف كان من أذكياء العالم كما شهد له كبار علماء الأمة، ومحمل كلام أبي حنيفة أنك لم تكن عالماً وباجتهاد وسعيك أصبحت أعلم علماء الأرض.

فالظاهر من كلامهم أن كسل في الإنسان يمنع من الاجتهاد والنشاط، والغباء يطلق في استعمالهم على الجهل، فيزال بالعلم.

❧ ❧ ❧

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٤.

الفصل الثالث
مقامات وأحوال القلب

إن الكلام عن المقامات والأحوال أمر خفي ودقيقٌ حار به العلماء، واضطرب به عبارات العظماء، واختلط مسائله على الأذكياء، ونحاول في هذا الفصل أن نكشف النقاب عنه بقدر الاستطاعة، ومن أفضل قيل في معنى الحال والمقام ما ذكره الغَزَاليُّ[1]: «وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يُسمّى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال».

ونعرض ما في هذا الفصل في المباحث الآتية:

المبحث الأول: في معنى الحال والمقام.

والمبحث الثاني: في التوبة والورع.

والمبحث الثالث: في الرجاء والخوف.

والمبحث الرابع: في الزهد والفقر.

والمبحث الخامس: في الصبر والشكر.

والمبحث السادس: في التوكل والرضا.

والمبحث السابع: في المراقبة والمحاسبة المحبة.

---

(١) في الإحياء ٤: ١٤٢.

المبحث الأول
معنى الحال والمقام

إن بيان المقصود بكلٍّ من الحال والمقام شيء تعزّ معرفته إلا عند أهل الشأن، فنفصل ما يتعلَّق بمعنى كلٍّ منهما في عبارة علماء التَّزكية في مطلب على حدة بذكر نقول مختلفة ومتعدِّدة عن أهل المعرفة، ثم بيان تحقيق المقام لكلٍّ منهما عند السهروردي، فإنه أجاد وأفاد في كشف اللثام في بيانهما، فكان كلامه مستحقاً للنقل؛ لأنه خلاصةٌ نافعةٌ بعد تهذيبه واختصاره.

المطلب الأول: الأقوال في الحال والمقام:

أولاً: معنى الحال:

وهو ما يحلُّ في القلوب.

قال الجنيد: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم[1].

ويظهر أثره على الجوارح قبل التمكين، من شطح ورقص وسير وهيام؛ وهو أثر المحبة؛ لأنها تحرك الساكن أولاً، ثم تسكن وتطمئن ؛ ولذا قيل فيها:

---

(١) ينظر: اللمع ص٦٦ـ٦٧.

أولها جنون ، ووسطها فنون ، وآخرها سكون، وقد يكتسب الحال بنوع: كحضور حلق الذكر واستعمال السماع.

وقد يطلب اكتسابه بخرق عوائد النفس حين يعتريها برودة وفتور وفرق وحزن وكسل، فينبغي أن يتحرك في تسخينها بما يثقل عليها من خرق العوائد.

وقد يطلق الحال على المقام، فيقال: فلان صار عنده الشهود مثلاً حالاً[١].

وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات، وهي مثل المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك.

قال الجنيدُ: لا يوصل إلى رعاية الحقوق إلا بحراسة القلوب، ومن لم يكن له سرٌّ فهو مصرٌ، والمصرُّ لا تصفو له حسنةٌ.

وقال مالك بن دينار: مضغت القرآن عشرين سنة، ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة[٢].

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٤٨ـ ٤٩.

(٢) ينظر: اللمع ص٦٦ـ٦٧.

قال الغَزاليُّ(١): «إن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنّما يُسمّىٰ الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يُسمّىٰ حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال».

قال القشيري(٢): الحال عند القوم: معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من غير المجهود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله.

وسئل ذو النون المصري عن العارف، فقال: كان ههنا فذهب.

وقال بعض المشايخ: الأحوال كالبروق، فإن بقي فحديث نفس.

وقالوا: الأحوال كاسمها يعني أنها كما تحل بالقلب تزول في الوقت.

وأشار قوم إلىٰ بقاء الأحوال ودوامها، وقالوا: إنها إذا لم تدم ولم تتوال، فهي لوائح وبواده، ولم يصل صاحبها بعد إلىٰ الأحوال، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمىٰ حالاً.

وهذا أبو عثمان الحيري، يقول: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالي في حال فكرهته أشار إلىٰ دوام الرضا، والرضا من جملة الأحوال».

---

(١) في الإحياء ٤: ١٤٢.

(٢) في الرسالة القشيرية ص١٥٤.

ثانياً: معنى المقام:

وهو ما يتحقَّقه العبدُ بمنازلةٍ واجتهاد من الأدب، وما يتمكن فيه من مقامات اليقين بتكسب وتطلب، فمقام كلٍّ أحدٍ موضع إقامته.

فالمقامات تكون أولاً أحـوالاً حيث لم يتمكن المريد منها؛ لأنها تتحوَّل ثم تصير مقامات بعد التمكين كالتوبة مثلاً تحصل ثم تنقص حتى تصيـر مقاماً، وهي التوبة النصوح، وهكذا بقية المقامات.

وشرطه ألا يرتقي مقاماً حتى يستوفي أحكامه، فمَن لا توبة له لا تصح له إنابة، ومن لا إنابة له لا تصح له استقامة، ومَن لا ورع له لا يصح له زهد، وهكذا.

وقد يتحقق المقام الأول بالثاني إذا ترقى عنه قبل إحكامه، إن كان له شيخ كامل، وقد يطوي عنه المقامات، ويدسه إلى الفناء إن رآه أهلاً بتوقد قريحته ورقة فطنته.

فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

هذا معنى المقام بفتح الميم، وأما المُقام بالضم فمعناه: الإقامة ولا يكمل لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الحقّ تعالى فيه.

وفي «الحكم»: من علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله تعالى في البداية.

وقال أيضاً: من كانت بالله تعالىٰ بدايته كانت إليه نهايته[١].

ومهما بلغ المقام الذي وصل إليه الولي، فإنه لا يَصِل لمقام الأنبياء؛ لعلو مقامهم ورفعة حالهم الذي لا يتحصَّل بالاكتساب، قال الغَزالي: «وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء»[٢].

وهذه المقامات علىٰ رفعتها إلا أنها لا تُخرج صاحبها من الابتلاء والفتنة، فلكلِّ مقام مداخلُه التي يَدخلها الشيطان عليه، فيجب أن يكون صاحب المقام علىٰ حذر من ذلك، قال الغَزاليّ[٣]: «وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم».

المطلب الثاني: تحقيق الحال والمقام:

حقَّق السّهروردي معنىٰ الحال والمقام والفرق بينهما بما لا مثيل، فقال[٤]:

«قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، ووجود الاشتباه لمكان تشابههما في نفسهما وتداخلهما، فتراءىٰ للبعض الشيء حالاً، وتراءىٰ للبعض مقاماً، وكلا الرؤيتين صحيح؛ لوجود تداخلهما.

---

(١) ينظر: :معراج التشوف ص٤٩.

(٢) ينظر: الإحياء٣: ٣٨٢.

(٣) ينظر: الإحياء٣: ٤٠٦.

(٤) في عوارف المعارف ص٢٦٤ـ٢٦٨.

ولا بُدَّ من ذكر ضابط يُفرَّق بينهما، على أنَّ اللفظ والعبارة عنهما مشعرٌ بالفرق، فالحال سُمِي حالاً؛ لتحوِّله، والمقام مقاماً؛ لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً، مثل: أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس، ثمّ تعود، ثم تزول، فلايزال العبد ـ حال المحاسبة ـ يتعاهد الحال، ثمّ يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة، وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة، فتصير المحاسبة وطنه ومستقرّه ومقامه، فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة، ثم يُنازله حال المراقبة، ممن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال، ثم يحول حال المراقبة؛ لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله تعالى عبده بالمعونة، فتصير المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً.

ولا يستقرّ مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرَّت مراقبتُه وصارت مقامه، ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً يحول بالاستتار ويظهر بالتَّجلي، ثم يصير مقاماً وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار.

ثمّ مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال إلى أعلى منه: كالتحقيق بالغناء والتخلص إلى البقاء، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين، وحقّ اليقين نازل يخرق شغاف القلب، وذلك أعلى فروع المشاهدة.

وهذه الحالة التي خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه، وهي حق اليقين، هي أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها.

ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب؛ إذ يكون تراباً ثم طيناً ثم لبناً ثم آجراً.

فالمشاهدة هي الأول والأصل، يكون منها الغناء كالطين ، ثم البقاء كاللين ، ثم هذه الحالة، وهي آخر الفروع.

ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة، وهي أشرف الأحوال، وهي محض موهبة لا تكتسب سُميت كلُّ المواهب من النوازل بالعبد أحوالاً؛ لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه، فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب، وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب؛ إذ المكاسب محفوفة بالمواهب، والمواهب محفوفة بالمكاسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد.

ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب، وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب.

فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرفها، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماوياً، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي.

قال بعضهم: الحال هو الذكر الخفي، وهذا إشارة إلى شيء مما ذكرناه.

وسمعت المشايخ بالعراق يقولون : الحال ما من الله، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما من العبد، فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا: هذا ما من الله حالاً إشارة منهم إلى أن الحال موهبة.

وقال بعضُ مشايخ خراسان: الأحوال مواريث الأعمال.

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا تكون إلا إذا دامت، فأما إذا لم تدم فهي لوائح وطوالع وبوادر، وهي مقدمات الأحوال، وليست بأحوال.

والشخص في مقامه يعطى حالاً من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي إليه، فبوجدانه ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلك، فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال.. حتى التوبة.

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام، وفي الزهد حال ومقام، وفي التوكل حال ومقام، وفي الرضا حال ومقام، وفي المحبة حال ومقام.

ولا يزال العبد يتتوب بطروق حال التوبة.. حتى يتوب.

وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد ينازله حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا، وتقبح له الإقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم، فيزهد ويستقر زهده، ويصير الزهد مقامه.

ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل.

وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا، ويصير ذلك مقامه.

ولا بد للمقامات من زائد الأحوال، فلا مقام إلا بعد سابقة حال، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال.

وأما الأحوال، فمنها ما يصير مقاماً، ومنها ما لا يصير مقاماً.

والسر فيه ما ذكرناه: أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن، فلما كان في الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد، وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاماً، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومواهبة غير متناهية، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى، ومكالمة موسى، وخلة إبراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك؛ لأن مواهب الله لا تنحصر، وهذه أحوال الأنبياء ولا تُعطى الأولياء، ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد، وتطلبه، وعدم قناعته بما فيه من أمر الحق تعالى.

فاعلم أن مواهب الحقّ لا تنحصر، والأحوال مواهب ، وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها، والله المنعم المعطي».

المطلب الثالث: أمهات المقامات:

أرجع السهروردي المقامات إلى أربعة مقامات ترجع إليها كافة المقامات، وهي الإيمان والتوبة والزهد والعبودية، وهذه التحقيق الباهر منه

ينبغي أن يخصّ على حدة؛ ليتمكن الدارس من فهم فكرة المقامات وتسلسلها رغم تعارض عبارات العلماء فيها، فيكون كلامه كأساس لما يأتي بعده.

قال السهرورديّ(١): «التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمَن لا أرض له لا بناء له، ومَن لا توبة له لا حال له ولا مقام له.

وإني بمبلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها، فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء، بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة.

ثم رأيتها في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التي جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات، ويكاشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت، فأحد الثلاث بعد الإيمان:

١. التوبة النصوح.

٢. الزهد في الدنيا.

٣. تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهراً وباطناً من الأعمال القلبية.

---

(١) في عوارف المعارف ص٢٦٩ـ ٢٨٠.

ثم يستعان علىٰ إتمام هذه الأربعة بأربعة أُخرىٰ بها تمامها وقوامها، وهي: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس.

واتفق العلماء الزاهـدون والمشايخ علىٰ أن هذه الأربع بها تستقرّ المقامات وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالىٰ وحسن توفيقه.

وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج في صحة هذه، ومَن ظفر بـهـا فقـد ظفر بالمقامات كلها بعد الإيمان:

١. التوبة، وهي في مبدأ صحتها تفتقر إلىٰ أحوال، وإذا صحت تشتمل علىٰ مقامات وأحوال، ولا بد في ابتدائـها مـن وجـود زاجـر ووجدان الزاجر حال؛ لأنه موهبة من الله تعالىٰ علىٰ ما تقرَّر أن الأحـوال مواهب، وحـال الزاجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافي: مالي أراك مهموماً؟ قال: لأني ضال ومطلوب، ضللت الطريق والمقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطرق إلىٰ المقصد لطلبـت، ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر.

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً بالبصرة يشتكي عينيه، وهما يسيل منهما الماء، فقلت: تمسح عينيك؟ فقال: لا؛ لأن الطبيب زجرني، ولا خير فيمن لا ينزجر.

فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى، ولابدّ وجودها للتائب، ثم بعد الانزجار يجـد العبد حال الانتباه.

قال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكـر ذنبـه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى اقشعر.

وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير، فإذا إنتبه العبد من رقدة غفلتـه أداه ذلـك الانتباه إلى التيقظ، فإذا تيقَّظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب، وإذا طلـب عـرف أنه على غير سبيل الحقّ، فيطلب الحقّ، ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ.

قال فارس: أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار، وقيل: التيقظ تبيـان خـط المسلك بعـد مشاهدة سبيل النجاة.

فإذا تمت يقظته ثقل بذلـك إلى مقام التوبة، فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة.

ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة.

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات.

ويعلم العبد أن الله تعالىٰ أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه؛ لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه، كي لا يستعبده الهوىٰ وتسترقه الدنيا.

فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلىٰ مواطن العبودية لأداء حق الربوبية، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلىٰ صلاة أخرىٰ.

ويسدُّ مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار؛ لأن كل كلمة وحركة علىٰ خلاف الشرع تنكت في القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة، والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق علىٰ أجزاء وقته إلىٰ الصلاة الأخرىٰ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته، ووقته منوراً معموراً بنور صلاته.

وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة.

قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته.

وسئل الواسطي: أي الأعمال أفضل؟ قال: مراعاة السر، والمحاسبة في الظاهر، والمراقبة في الباطن ويكمل أحدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة.

قال المرتعش: المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق في كل لحظة ولفظة.

وقال إبراهيم بن أدهم: إذا صدق العبد في توبته صار منيباً؛ لأن الإنابة ثاني درجة التوبة.

وقال أبو سعيد القرشي: المنيب الراجع عن كلِّ شيء يشغله عن الله إلى الله تعالى.

قال بعضهم: الإنابة الرجوع منه إليه ، لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفي الإنابة.

والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه.

والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر.

والصبر ينقسم إلى : فرض، وفضل.

فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات.

ومن الصبر الذي هو فضل: الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، وكتمان المصائب والأوجاع، وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنح والكرامات، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر ـ فرضاً وفضلاً ـ كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفي الخواطر.

فإذن حقيقة الصبر كائنة في التوبة كينونة المراقبة في التوبة، والصبر من أعز مقامات الموقنين، وهو داخل في حقيقة التوبة.

ومن الصبر: الصبر على النعمة، وهو أن لا يصرفها في معصية الله تعالى.

وهذا أيضاً داخل في صحة التوبة، وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء.

ومن الصبر: رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب، والصبر عن محمدة الناس، والصبر على الخمول.

والتواضع والذّل داخل في الزهد، وإن لم يكن داخلاً في التوبة.

وكلّ ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية، والأحوال وجد في الزهد.

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس، وطمأنينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة، فالنفس إذا تركت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية، وقلـة الصـبر مـن وجـوه الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها. والتوبة النصوح تلين النفس، وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلىٰ اللين؛ لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ ميزانها المتأججـة بمتابعـة الهـوىٰ، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه، وتطمئن في مجاري الأقدار.

قال أبو عبد الله البناجي: لله عبـاد يستحيون من الصبر، ويتلقفون مواضع أقـداره بالرضا تلقفا القضـاء.

والرضا ثمـرة التوبة النصوح، وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح، فإذن تجمع التوبة النصوح: حال الصبر، ومقام الصبر، وحال الرضا، ومقام الرضا.

والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان في صلب التوبة النصوح؛ لأن خوفه حمله علىٰ التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه مـا خـاف فالرجاء والخوف يتلازمان في قلب المؤمن، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم في التوبة.

فإذن جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة: حال الزجـر، وحال الانتباه، وحال التيقظ، ومخالفة النفس، والتقوىٰ، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة والصبر والرضا، والمحاسبة، والمراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف، والرجاء.

وإذا صحَّت التوبة النصوح، وتركت النفس انجلت مرآة القلب، وبان قبح الدنيا فيحصل الزهد.

والزاهد يتحقق فيه التوكل؛ لأنه لا يزهد في الموجود إلا لاعتماد الموعود، والسكون إلىٰ وعد الله تعالىٰ هو عين التوكل.

وكلما بقي علىٰ العبد بقية في تحقيق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهد الدنيا.

فإذا صحّ زهد العبد صح توكله أيضاً؛ لأن صدق توكله مكنه من زهده في الموجود، فمن استقام في التوبة، وزهد في الدنيا، وحقق هذين المقامين استوفي سائر المقامات، وتكون فيها، وتحقق بها.

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرىٰ: أن يتوب العبد، ثم يستقيم في التوبة حتىٰ لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً، ثم يرتقي من تطهير الجوارح عن المعاصي إلىٰ تطهير الجوارح عما لا يعني، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلىٰ الباطن، وتستولىٰ المراقبة علىٰ الباطن: وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ، ثم خواطر الفضول، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح، وتستقيم توبته. قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: {فاستقم كما أمرت ومن تاب معك}، أمره الله تعالىٰ بالاستقامة في التوبة أمراً له ولأتباعه وأمته.

ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب في النادر؛ إذ ابتلي بذنب ينمحي أثر الذنب من باطنه في ألطف ساعة؛ لوجود الندم في باطنه على ذلك، والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً، فإذا تاب توبة نصوحاً، ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غدائه لعشائه ، ولا في عشائه لغدائه، ولا يرى الادخار، ولا يكون له تعلق هم بغد.

فقد جمع في هذا الزهد والفقر، والزهد أفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة؛ لأن الفقير عادم للشيء اضطراراً، والزاهد تارك للشيء اختياراً.

وزهده يحقق توكله، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، وحبس النفس الله يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه، ويجمع بالتوبة والزهد كلّ المقامات.

والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها، وهو دوام العمل؛ لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع، وهو دوام العمل، وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد، المستقيمين في التوبة تخلفوا عن كثير من سنيّ الأحوال؛ لتخلفهم عن هذا الرابع.

ولا يراد الزهد في الدنيا، إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى.

والعمل لله: أن يكون العبد لا يزال ذاكراً أو تالياً، أو مصلياً أو مراقباً، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي، أو مهم لا بد منه طبيعي، فإذا استولى

العمل القلبي على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكمل الفضل، وما آلى جهداً في العبودية.

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل الله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتي، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى؛ لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية، وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها؛ لأن ترك التدبير فناء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحقّ، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق، وهو العبد ما بقي عليه من الاعوجاج ذرة، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله تعالى متمسكة بالاستكانة والافتقار، متحقِّقة بحديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»[1].

---

(١) في سنن أبي داود٤: ٣٢٤، وسنن النسائي الكبرى٩: ٢١٢، وصحيح ابن حبان٣: ٢٥٠.

المبحث الثاني
التوبة والورع

سبق أن التوبة أول المقامات والرتب بعد الإيمان بالله تعالى، والورع ملتصق بها حتى يمكن تحقيقها، قال الطوسي: «التوبة تقتضي الورع»(١)، والإنابة والأوبة من أنواع التوبة.

فنعرض في هذا المبحث للتوبة والورع في المطالب الآتية:

المطلب الأول: التوبة:

إن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولأبينا آدم عليه السلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة نعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم.

---

(١) ينظر: اللمع ص٦٨ـ ٦٩.

ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر، وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة، فقد زلت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين(١).

قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١]، وهذا خطابٌ للكلِّ بأن يتوبوا إلى الله تعالى من جميع المعاصي؛ لأنها بها الفلاح الدنيوي والأخروي.

أولاً: معناها:

التوبة: الرجوع عن كلِّ فعل قبيح ، إلى كل فعل مليح، أو عن كل وصف دنيء إلى التحقق بكل وصف سني، أو عن شهود الخلق إلى الاستغراق في شهود الحق.

قال يوسف السوسي: أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة(٢).

وقال سهل التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال(١).

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٢٧.

وقال: التوبة ترك التسويف[٢].

وقال أيضاً: التوبة لا تنسى ذنبك.

وقال النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى[٣].

فتحصَّل أنّ التوبة بأن تكون جميع أفعالنا على وفق ما أَراد الله تعالى، بحيث تصبح كلّ الأفعال لله تعالى خالصة، ومعلوم أن هذا عسير جداً، وتحصيله يحتاج إلى مجاهدةٍ مستمرةٍ إلى الممات، وبالتالي سنبقى في كلِّ لحظات حياتنا تائبين إلى الله تعالى من معاصينا، مستحضرين لذنوبنا، نادمين عليها، متوجهين إلى ربنا؛ ليتقبل منّا استغفارنا وإنابتنا إليه جلّ جلاله.

ثانياً: مكانتها:

فالتوبة أول منزلة من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة فِي لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب: أي رجع، فالتوبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه[٤].

وكلُّ المقامات تفتقر إلى التوبة، فالتوبة تفتقر إلى توبة أُخرى بعد نصوحها، والخوف يفتقر إليها بحصول الأمن والاعتزاز، والرجاء بحصول القنوط والإياس، والصبر بحصول الجزع، والزهد بخواطر الرغبة، والورع

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣.

(٢) ينظر: الرسالة القشيرية ص٢١١.

(٣) ينظر: اللمع ص٦٨ـ ٦٩.

(٤) ينظر: الرسالة القشيرية ص٢٠٧.

بتتبع الرخص أو خـواطر الطمع، والتوكل بخواطر التدبير والاختيار والاهتمام بالرزق، والرضا والتسليم بالكراهية، والتبري عند نزول الأقدار، والمراقبة بسوء الأدب في الظاهر، وخواطر السوء في الباطن، والمحاسبة بتضييع الأوقات في غير ما يقرب إلى الحق، والمحبة بميل القلب إلى غير المحبوب، والمشاهدة بالتفات السر إلى غير المشهود، أو باشتغاله بالوقوف مع شيء من الحس وعدم زيادة الترقي في معاريج الأسرار[1].

فلا بُدّ أن نكون في توبة مستمر، فما من مقام يخلو عن التوبة حتى يحققه صاحبه ويصل إليه ويستقرّ فيه.

ثالثاً: شرطها:

يشترط للتوبة حتى تصح ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم على أَن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي، فهذه الأركان لا بُدّ منها حتى تصحّ توبته.

ومن أهل التحقيق من قال: يكفي الندم في تحقيق ذلك؛ لأنّ الندم يستتبع الركنين الآخرين، فإِنَّهُ يستحل تقدير أَن يَكُون نادما على ما هو مصر على مثله أَو عازم على الإتيان بمثله[2].

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «الندم توبة»[3].

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨ ـ ٢٧.

(٢) ينظر: الرسالة القشيرية ص٢٠٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده، كما في المغني ٤: ٣.

قال تعالىٰ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [التحريم: ٨]، فالتوبة النصوح: يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وعدم الإصرار بالجنان، ومهاجرة سيء الخلان[١].

وقال الواسطي: التوبة النصوح لا تبقي علىٰ صاحبها أثراً من المعصية سرّاً ولا جهراً، ومَن كانت توبته نصوحاً لا يُبالي كيف أَمسىٰ وأَصبح.

وقال الجنيد: التوبة علىٰ ثلاثة معان: أولها: الندم، والثَّانِي: العزم علىٰ ترك المعاودة إلىٰ ما نهىٰ اللهُ عنه، والثالث: السعي في أداء المظالم[٢].

وأما ردُّ المظالم ففرضٌ مستقلٌّ تصحُّ بدونه، كما تصحُّ من ذنبٍ مع الإصرار علىٰ آخر من غير نوعه[٣].

رابعاً: أنواعها:

توبة العامة من الذنوب، وتوبة الخاصة من العيوب، وتوبة خاصة الخاصة من كل ما يُشغل السرَّ عن حضرة علام الغيوب[٤].

قال ذو النون: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨ ـ ٢٧.

(٢) ينظر: الرسالة القشيرية ص٢٠٨.

(٣) ينظر: معراج التشوف ص٢٨ ـ ٢٧.

(٤) ينظر: معراج التشوف ص٢٧.

وقال أبو على الدقاق: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة وأوسطها الإنابة وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتها، فكلُّ مَن تاب لخوف العقوبة، فهو صاحب توبة، ومَن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومَن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أَو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة.

والتوبة صفة المؤمنين، قال تعالى: {وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ} [النور: ٣١].

والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال تعالى: {وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق: ٣٣].

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوابٌ} [ص: ٣٠] (١).

فالإنابة أخصُّ من التوبة ؛ لأنها رجوع يصحبه انكسار ونهوض إلى السِّير ، وهي ثلاثة مراتب: رجـوع من الذنب إلى التوبة ، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الفرق إلى الجمع على الله تعالى(٢).

فتحصّل أن للناس مراتبٌ في التوبة تبدأ من العصاة بترك المعاصي وتنتهي بالأنبياء بالتزام أوامر الله تعالى.

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية ص٢١١.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٢٨.

خامساً: خوف الذنوب وتكفيرها:

إنّ التوبة ترك الذنب، ولا يُمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، فمعرفة الذنوب إذن واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل(١).

وفعل الطاعات مُكفِّرٌ للذُّنوب؛ لقوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]، فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (٢).

وتكفير الطاعات للذنوب يختص بالصغائر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»(٣)، فالكبائر فلا بُدّ لها من توبة خاصة بها.

والمؤمن يخاف من ذنوبه كيف ما كانت، حتى التي لم يتعمدها والتي سيفعلها في المستقبل، والنبي ﷺ يعلمنا ذلك من خلال دعائه الذي كانوا يدعو به، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال ﷺ: «رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزْلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٦.

(٢) في مسند أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧، وقال: حسن صحيح.

(٣) في صحيح مسلم رقم ٢٣٣.

أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»(١).(٢)

سادساً: وجوبها على الفور:

تجب التوبة على الفور فلا يُستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها، فمَن لم يتركها، فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد برواية أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٣).

فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم، ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: {إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}(٤).

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٦٠٣٥.

(٢) ينظر: التزكية على منهاج النبوة.

(٣) متفق عليه، كما في المغني ٤: ٧.

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين ٤: ٧ـ٨.

سابعاً: وجوبها في الأشخاص والأحوال:

إن ظاهر الكتاب قد دلَّ على هذا؛ إذ قال تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا}؛ إذ التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان؛ إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة؛ إذ لا يثبت أحدهما للآخر؛ لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة.

ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان، واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة، وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث، قال {لأحتنكن ذريته إلا قليلا}.

وإن كمل العقل وقوي كان أول شغله، قمع حنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان

إلىٰ طريق الله تعالىٰ، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة علىٰ عقله، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة علىٰ غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه علىٰ مساعدة الشهوات ضرورياً في حقِّ كل إنسان نبياً كان أو غبياً.

وكُلُّ من بلغ كافراً جاهلاً، فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنىٰ الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلىٰ قالب حدود الله تعالىٰ في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال[1].

ثامناً: قبولها:

فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالىٰ ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وعلموا أنّ القلبَ خُلِق سليماً في الأصل، وكُلُّ مولود يُولد علىٰ الفطرة، وإنَّما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٩.

وعلموا أنّ نار النَّدم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار.

فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكلّ قلب زُكِي طاهر فهو مقبول، كما أن كلَّ ثوب نظيف فهو مقبول، فإنّما عليك التزكية والتطهير، وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: {قد أفلح من زكاها}.

ومَن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يُستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يُستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره، ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين، بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه؛ إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره، وهو لا يعرف قلبه.

فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان: تبت، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه: قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع

أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية.

فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات}، وقال تعالى: {غافر الذنب وقابل التوب} إلى غير ذلك من الآيات.

فعن أبي موسى ، قال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار»[(١)].

قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى: {إنه كان للأوابين غفوراً} في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين[(٢)].

تاسعاً: أقسام الذنوب:

إن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات

---

(١) رواه مسلم، كما في المغني ٤: ١٣

(٢) ينظر: الإحياء ٤: ١٣ ـ ١٤.

سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار.

١. الصفات الربوبية؛ فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة، حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق، ولم يعدوها ذنوباً، وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي.

٢. الصفة الشيطانية؛ يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

٣. الصفة البهيمية؛ يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

٤. الصفة السبعية؛ يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال.

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة، وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية، وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق، فهذه أمهات الذنوب ومنابعها.

ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن(١).

عاشراً: أقسام التائبين:

١. أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات، مهما لم يكن في رتبة النبوة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة التوبة النصوح، واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

٢. أن يتوب من سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمدٍ وتجريدِ قصدٍ، ولكن يُبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمَّر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة؛ إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ١٦.

وهذه أيضاً رتبة عالية، وهي أغلب أحوال التائبين؛ لأن الشر معجون بطينة الآدمي، قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات، فذلك في غاية البعد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى؛ إذ قال تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة}، فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه، فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم}، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه، فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1].

٣.أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة؛ لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرّها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم، ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم، فهذه النفس

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده، كما في المغني ٤: ٤٤.

هي التي تُسمَّىٰ النفس المسولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا}.

فأمره من حيث مواظبته علىٰ الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو، فعسىٰ الله تعالىٰ أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة، ويقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشىٰ أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل؛ لأنه مهما تعذر علىٰ المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره علىٰ أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين، فيضعف الرجاء في حقه وإذا يسرت له أسباب المواظبة علىٰ التحصيل دلّ علىٰ أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين.

٤.أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف علىٰ فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته، فهذا من جملة المصرِّين، وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ويخاف علىٰ هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله تعالىٰ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنىٰ حتىٰ مات علىٰ التوحيد، فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه[1].

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٤٣ـ ٤٥.

الحادي عشر: الإصرار على المعاصي والمناهي:

الإصرار: وهو دوام قصد المعاصي والمناهي ولو صدرت منه أحياناً أو مرّة.

ولو تخلل الندامة بينهما والرجوع عنها، فليس بإصرار ولو صدرت في يوم واحد سبعين مرّة.

قال في المناوي: إن رحمته لا نهاية لها ولا غاية، فذنوب العالم كلها متلاشية عند حلمه وعفوه؛ إذ لو بلغت ذنوب العبد إلى الغاية ثم استقال منها بالاستغفار غُفِرت له؛ لأنه طلب الإقالة من كريم، والكريم محلُّ الإقالة، لكن بشرط مقارنة عدم الإصرار الذي هو توبة نصوح، وأمّا مع الإصرار فمجرد ادعاء.

وضدُّ الإصرار: الإنابة والتوبة، وهي الرجوع عن قصد المعصية والعزم على أن لا يعود إليها تعظيماً لله تعالى وخوفاً من عقابه، لا لغرض دنيوي كالضرر لنفسه أو لماله[1].

المطلب الثاني: الورع:

أولاً: معناه:

الـورع: كفُّ النفس عن ارتكاب ما تكره عاقبته.

قال الخراز: الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق من مثاقيل الذر، حتى لا

---

(١) ينظر: بريقة محمودية وطريقة محمدية٣: ١٣٦.

يكون لأحدهم قبلك مظلمة ولا دعوىٰ وطلبة[١].

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفه[٢].

وقال حسان بن أبي سنان: ما رأيت شيئا أهون من الورع دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك[٣].

وقال ابنُ سيرين: ليس علي شيءٌ أَهون من الورع، فإن رابني شيء تركته[٤].

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك تركته[٥].

وقال يحيىٰ بن معاذ: الورع الوقوف علىٰ حد العلم من غير تأويل.

وقال الخواص: الورع أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالىٰ.

وقال معروف الكرخي: الورع احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

---

(١) ينظر: اللمع ص٧٠ـ٧١.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٣) ينظر: صحيح البخاري٣: ٥٣.

(٤) ينظر: اللمع ص٧٠ـ٧١.

(٥) ينظر: القشيرية ص٢٣٤ـ ٢٣٥.

وقال الشّبلي: الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين[١].

فتحصَّل أنّ الورعَ تركُ الشبهات تجنباً للوقوع في المُحرَّمات أو أكل حقوق العباد، والتوبةُ تقتضي الورع؛ لأنّ التوبةَ موافقة أمر الله تعالى، ولا بُدّ في تحقيقه من الورع؛ لما فيها من احتياط وتجنب طرق المعاصي.

ثانياً: أنواعه:

إن ورع العامة ترك الحرام المتشابه، وورع الخاصّة ترك كلّ ما يُكدر القلب ويجد منه كزارة وظلمة، ويجمعه قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٢]، وورع خاصة الخاصة: رفض التعلق بغير الله تعالى، وسدُّ باب الطَّمع في غير الله تعالى، وعكوف الهم على الله تعالى، وعدم الركون إلى شيء سواه[٣].

وهذا هو الورع الذي هو ملاك الدين كما قال الحسن البصري حين سئل عن ملاك الدين؟ فقال: الورع، قيل له: وما فساد الدين؟ قال: الطمع.

فالورع الذي يقابل الطمع كلّ المقابلة، هو ورع خاصة الخاصة، وجزء منه يعدل آلافاً من الصلاة والصيام، ولذا قال في «التنوير»: «وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده، وإنما يدلّ على نوره

---

(١) ينظر: عوارف المعارف ص٢٨١ـ ٢٨٢.

(٢) فعن أبي الحوراء السعدي في سنن الترمذي٤: ٦٦٨، وصححه.

(٣)ينظر: معراج التشوف ص٢٩ـ ٣٠.

وفهمـه غناه بربِّه، وانحياشـه إليه بقلبه، والتَّحرزُ من رقِّ الطمع والتحلي»، يعني ورع الخاصة أو خاصة الخاصة[1].

قال يحيي بن معاذ: الورع علىٰ وجهين ورع في الظاهر، وهو أن لا يتحرّك إلا لله تعالىٰ، وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالىٰ.

قال أبو سليمان الداراني: الورعُ أول الزُّهد كما أنّ القناعة طرف من الرِّضا[2].

وقال عمر ﷺ: لا ينبغي لمن أخذ بالتقوىٰ ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا.

وقال الشبلي: الورع دليل الخوف، والخوف دليل المعرفة، والمعرفة، دليل القربة[3].

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٩ـ ٣٠.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٣) ينظر: عوارف المعارف ص٢٨١ـ ٢٨٢.

المبحث الثالث
الرجاء والخوف

إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كلِّ مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كسود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف[1].

آخر الطوسي ذكر الخوف والرجاء في الأحوال بعد حال المحبة، لكن الغَزاليّ ذكرهما قبل الصبر، فقال: «والصبرُ لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء؛ لأنّه أوَّل مقامات الدين اليقين الذي هو عبارةٌ عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضَّرورة يهيج الخوف من النار، والرجاء للجنة، والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤: ١٤٢

حفَّت بالمكاره، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف»[١].

وسبق كلام الشهروردي أن الخوف والرجاء متحققان في التوبة النصوح، فقال: «والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان في صلب التوبة النصوح»؛ لذلك آثرت تقديمهما لصراحة كلام الغزاليّ في ذلك بحيث يذكران قبل الصبر.

والخوف والرجاء متلازمان، قال الطوسي[٢]: «والرجاء مقرون بالخوف»

وفي هذا المبحث نتناول الخوف والرجاء في مطلبين:

المطلب الأول: الخوف:

إن الخوف مقام شريف يدركه مَن وفَّقه الله تعالى لسلوك طريق رضاه، فهو ملازم لسائر المقامات، وهو الدافع على فعل عامة الخيرات، وهو المبعد عن سائر الشرور والأهوال.

وفي بيان الخوف في هذا المطلب نتناول معناه وفضيلته وأنواعه وعلامات سوء الخاتمة في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الخـوفُ: انزعاج القلب من لحوق مكروه أو فوات مرغوب[١].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٦٧.

(٢)ينظر: اللمع ص٨٩ـ ٩٩.

قال بشر الحافي: الخوف ملك لا يسكن إلا في قلب متق[٢].

وقال ابن خبيق: الخائف عندي من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال ابن الجلاء: الخائف عندي الذي لا يخاف غير الله تعالى[٣].

والخوف من الله تعالى أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما في الدنيا وإما في الآخرة، وقد فرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال تعالى: {وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٧٥][٤].

وإن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الإستقبال.

ومَن أنس بالله وملك الحقّ قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدَّوام لم يبق له التفات إلى المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء، فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٥١ـ ٢٥٣.

(٣) ينظر: اللمع ص٨٩ـ ٩٩.

(٤) ينظر: القشيرية ص٢٥١ـ ٢٥٣.

وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف.

وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب، بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات[1].

فتحصل أنّ الخوف استيلاء عقاب الله تعالى على القلب عند كل مخالفة أو تقصير في جنابه الكريم، بحيث لم يبق خوف لسواه، فصار هذا الخوف دافعاً له لفعل الخير ومانعاً له من فعل الشر.

ثانياً: فضيلته:

ورد الخوف في آياته وأحاديث عديدة تُبيِّن لنا مقامه وفضله، ومنها:

قال تعالى: {وإياي فارهبون} [البقرة: ٤٠] ومدح المؤمنين بالخوف فقال تعالى: {يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: ٥٠][2].

وقال تعالى: {يدعون ربهم خوفا وطمعا} [السجدة: ١٦]، فذكر سبحانه أن من كمال الدعاء أن يكون فيه خوف منه تعالى.

وقال تعالى: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٩]، تحذير لنا من مكر الله تعالى حتى نخاف، ومن لا يخاف فهو من الخاسرين.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٥٥.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٥١ـ٢٥٣.

فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال أنس: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين»(١)، وفي رواية أبي ذر ﷺ، قال ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت(٢) السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»(٣)، ففيه تخويف وترغيب نبوي للناس من ربِّ العزّة حتى يستقيموا على أَمره ويلتزموا شرعه.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»(٤)، استعاذة من غضب الله تعالى وعقابه، وهذا يقتضي الخوف الشديد منه سبحانه، فعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»(٥).

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٤٣٤٥ وصحيح مسلم نحوه رقم ٢٣٥٩، والخنين: صوت من يبكي إذا اشتد بكاؤه وظهر صوت من أنفه.

(٢) الأطيط: صوت الرحل والقتب وشبههما، والمقصود أنه صدر منها صوت عظيم.

(٣) في سنن الترمذي رقم ٢٣١٢ وقال: غريب حسن، ونحوه أحمد رقم ٢١٥٥٥.

(٤) في سنن الترمذي رقم ٣٥٢٨ وقال: حسن غريب، وأبو داود رقم ٣٨٩٣، والنسائي رقم ١٠٦.

(٥) في صحيح مسلم رقم ٤٨٦ ، وهذا اللفظ للترمذي رقم ٣٥٦٦ وابن خزيمة رقم ٦٥٥.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «من خاف[١] أدلج[٢]، ومن أدلج بلغ المنزل[٣]، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[٤]، بيان نبوي أن الخوف يقرب صاحبه إلىٰ الخير ويبعده عن الشر، فينال جنة الرضوان.

وعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «... فوالذي لا إله غيره ؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة[٥] حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[٦]، إرشاد نبوي لدوام الخوف من الله تعالىٰ حتىٰ لا تنزلق بنا أنفسنا إلىٰ التهلكة.

قال ابن عجيبة[٧]: «وثمرته: النهوض إلىٰ الطاعة، والهروب من المعصية، فإظهار الخوف مع التقصير دعوىٰ».

---

(١) أي خاف البيات بعيداً عن بيته ودياره، والكلام هنا كناية عن خوف العذاب في الآخرة.

(٢) أي سار من أول الليل، وهو كناية عن التشمير في الطاعة وإرضاء الله تعالىٰ.

(٣) أي داره، وهو كناية عن بلوغ الجنة.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ وحسنه، والحاكم رقم ٧٨٥١ وصحح إسناده.

(٥) وفي رواية صحيحة: «فيما يرىٰ للناس».

(٦) في صحيح البخاري رقم ٣٠٣٦ وصحيح مسلم رقم ٢٦٤٣.

(٧) في معراج التشوف ص٢٨.

ثالثاً: أنواعه:

إن خوف العامة من العقاب وفوت الثواب، وخوف الخاصّة من العتاب وفوت الاقتراب، وخوف خاصة الخاصة من الاحتجاب بعروض سوء الأدب(١).

قال أبو علي الدقاق: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة فالخوف من شرط الإيمان وقضيته قال الله تعالى: {وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٧٥] والخشية من شرط العلم قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨] والهيبة من شرط المعرفة قال الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه} [آل عمران: ٢٨].

وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على ضربين رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب(٢).

رابعاً: علامات سوء الخاتمة:

ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في إتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨.
(٢) ينظر: القشيرية ص٢٥١ـ٢٥٣.

يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحبُّ أَعني حبُّ الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله تعالى، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك.

من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة، فقد ختم له بالسُّوء وهلك هلاكاً مؤبداً، والسبب الذين يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، هو غلبة حب الدنيا والركون إليها، والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى.

فمَن وجد في قلبه حبّ الله أغلب من حب الدنيا، وإن كان يحب الدنيا أيضاً، فهو أبعد عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى؛ إذ لا يحبه إلا من عرفه، ولهذا قال تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره}.

والأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل، وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية، فإن كنت تعلم أن ذلك

محال أو عسير، فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك؛ ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك[١].

المطلب الثاني: الرجاء:

الرجاء يُشبه الخوف في حاله؛ لأنه يُقارنه، قال الطوسي[٢]: «والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض».

فكان الرجاء أحد حالتين يكون عليهم القلب في مقاماته، وهما الخوف والرجاء، قال ابن عجيبة[٣]: «والخوف والرجاء للقلب كجناحي الطير، لا يطير إلا بهما، ورُبّما يرجح الرجاء عند العارفين، والخوف عند الصالحين».

ولا بُدّ أن يبقى مستحضراً في القلب، فهو علامةُ الصحّة والشّفاء وصدق السّعي إلى الله تعالى، قال الغَزَالي[٤]: «إن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين».

ونبين في هذا المطلب الرجاء من حيث معناه وفضيلته وأنواعه وذم اليأس من رحمة الله تعالى في النقاط الآتية:

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٧٣ـ١٧٨.

(٢) ينظر: اللمع ص٩١ـ ٩٢.

(٣) في معراج التشوف ص٢٨.

(٤) في الإحياء٤: ١٤٢ـ١٤٣.

أولاً: معناه:

الرجاء: سكون القلب إلى انتظار محبوب بشرط السعي في أسبابه، وإلا فأُمنيةٌ وغرورٌ[١]، أو تعلُّق القلب بمحجوبٍ سيحصل في المستقبل[٢].

والراجي في الله تعالى هو عبد تحقَّق في الرجاء، فلا يرجو من الله شيئاً سوى الله تعالى[٣].

فالرجاء: هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بُدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك إنظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها، فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتقاء فاسم التمني أصدق على انتظاره؛ لأنه انتظار من غير سبب، وعلى كل حال، فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه[٤].

ثانياً: فضيلته:

إن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف؛ لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحداهما

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٥٩.

(٣) ينظر: اللمع ص٩١ـ ٩٢.

(٤) ينظر: الإحياء ٤: ١٤٢ـ ١٤٣.

خوفاً من عقابه، والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت، قال تعالى: {لا تقنطوا من رحمة الله} فحرم أصل اليأس(١).

قال تعالى: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت} [العنكبوت: ٥]: أي يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملهما، فَإِنَّ أَجَلَ الله المضروب للثواب والعقاب، لأَتٍ لا محالة فالييادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله(٢).

فعن جابر ﵁ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يُشرك به شيئاً دخل النار»(٣)، ففيه أملٌ كبيرٌ لكل مسلم بدخول الجنة طالما أنه اختار الإسلام ديناً وبقي محافظاً عليه.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا؛ لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»(٤)، تنبيهٌ على بقاء الرجاء في رحمة الله تعالى بالمغفرةِ وإن عصيت وارتكبت الذنوب، بشرط التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إن عبداً أصاب

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٤٤.

(٢) ينظر: تفسير النسفي٢: ٦٦٥.

(٣) في صحيح مسلم رقم ٩٣، ونحوه في صحيح البخاري رقم ١١٨١ وصحيح مسلم رقم ٩٢.

(٤) في صحيح مسلم رقم ٢٧٤٩.

ذنباً، وربما قال أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ، وربما قال: أصبت، فاغفر لي، فقال ربه: عَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت أو أصبت آخرَ فاغفره، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، وربما قال: أصاب ذنباً، قال: قال رب أصبت أو قال: أذنبتُ آخرَ فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثلاثاً، فليعمل ما شاء»(١).

وعن ابن عمر ﵄، قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢): أي مالم تخرج روحه، فباب الله تعالى مفتوح لقبول التوبة من عباده.

وعن أنس ﵁: «أنه ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»(٣)، بيان أن القلب الصحيح ما اشتمل على الخوف والرجاء، وأنه مَن كان حاله هكذا كانت له النجاة عند الله تعالى.

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٧٠٦٨، وصحيح مسلم نحوه رقم ٢٧٥٨، يرويه حديثاً قدسياً.

(٢) في سنن الترمذي رقم ٣٥٣٧ وقال: حسن غريب، وابن حبان في صحيحه رقم ٦٢٨، والحاكم في المستدرك رقم ٧٦٥٩ وصحح إسناده.

(٣) في سنن الترمذي٣: ٣٠٢، وسنن النسائي الكبرى٤: ٢٧٤، وحسنه الهيتمي كما في الزواجر١: ١٤٩.

ثالثاً: أنواعه:

رجاء العامة حسن المآب بحصول الثواب، ورجاء الخاصة حصول الرضوان والاقتراب، ورجاء خاصة الخاصة التمكين من الشهود وزيادة الترقي في أسرار الملك الودود(١).

فالرجاء يتمُّ من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة.

وبيانه: أنّ كلَّ ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فينقسم إلى موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمّي ذكراً وتذكراً، وإن كان من خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمي وجداً؛ لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال، وغلب ذلك على قلبك سمى انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب، وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء(٢).

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ١٤٢ـ١٤٣.

رابعاً: ذم اليأس من رحمة الله تعالى:

وهو تذكر فوات رحمته وفضله؛ لغلبة ذنبه ومبالغة فرطاته، وقطع القلب عن ذلك بأن يخرج عن قلبه رجاء الرحمة[١].

قال تعالى: {إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون} [يوسف: ٨٧]: أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه[٢]؛ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه في نعمته فييأس من رحمته[٣].

وقال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨]: أي ما دون الشرك وإن كان كبيرة مع عدم التوبة، والحاصل أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأن وعد غفران ما دونه لمن لم يتب: أي لا يغفر لمن يشرك، وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب، وهو مذنب[٤].

وقال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} [الزمر: ٥٣] : القنوط: اليأس من الخير، قال تعالى: {فلا تكن من القانطين}[الحجر: ٥٥]،

---

(١) ينظر: طريقة محمدية٣: ١٠٨.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود٤: ٣٠٢.

(٣) ينظر: تفسير النسفي٢: ١٣١.

(٤) ينظر: تفسير النسفي١: ٣٦٤.

قال: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}[1].

وقال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: ١٥٦] : أي من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا[2].

وقال البغوي: «إن أفضل العبادات حسن الظن بالله تعالى، يقول الله لعباده أنا عند ظنك بي»[3].

قال الهيتمي[4]: «عدَّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه، وهو ظاهر، لما فيه من الوعيد الشديد».

---

(١) ينظر: مفردات القرآن١: ٦٨٥.

(٢) ينظر: تفسير النسفي١: ٦٠٩.

(٣) ينظر: الزواجر١: ١٤٩.

(٤) في الزواجر١: ١٤٩.

المبحث الرابع
الزهد والفقر

إنّ الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضلّ مَن ضلَّ، وبمكرها زلَّ مَن زلَّ، فحبُّها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات رأس القربات.

والبغضُ لها والزُّهد فيها رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا، والبعد منها، لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد، ويُسمَّى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويُسمّى ذلك زهداً، ولكل واحدٍ منهما درجةٌ في نيل السَّعادات وحظٌّ في الإعانةِ على الفوز والنجاة[1].

ونتحدَّث في هذا المبحث عن مطلبين في الزهد والفقر؛ لتعلقهما ببعضهما، قال الطوسي[2]: «والزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره»، وهذا على النحو الآتي:

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٩٠.

(٢)ينظر: اللمع ص٧٢ـ ٧٣.

المطلب الأول: الزهد:

إن الزَّهدَ أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله تعالى، والمنقطعين إلى الله تعالى، والراضين عن الله تعالى، والمتوكلين على الله تعالى، فمَن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصحّ له شيء مما بعده؛ لأنّ حبَّ الدنيا رأس كلِّ خطئة، والزُّهد في الدنيا أساس كل خير وطاعة(١).

وسيكون الكلام في هذا المطلب عن معنى الزهد وفضيلته وأنواعه ودرجاته وعلاماته في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الزهد: خلو القلب من التَّعلُّق بغير الرَّبّ، أو برودة الدنيا من القلب وعزوف النفس عنها(٢).

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء.

وقال أبو عثمان: الزهد أن تترك الدنيا ثم لا تبالي بمن أخذها.

وقال ابن الجلاء: الزهد والنظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

---

(١)ينظر: اللمع ص٧٢ـ ٧٣.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٣٠.

وقال ابنُ خفيف: علامة الزهد وجود الرّاحة في الخروج عن الملك.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك ما يشغل عن الله تعالىٰ.

وقال الجنيد: الزهد خلو اليد من الملك والقلب من التتبع.

وقال بشر الحافي: الزهد ملك لا يسكن إلا في قلب مخلىٰ[١].

وهذه عبارة عجيبة في توضيح معنىٰ الزهد بترك ما في الدنيا والتعلق بها بالقلب وإن كانت مملوكة في اليد، فكان الزهد قتل حبّ الدنيا الذي يُعَدُّ رأس كلّ خطيئة وأساسُ كلّ شرّ، فمن زهد في الدنيا أراح نفسه وغيره، وخرج من غم الدنيا وهمومها، وأقبل علىٰ المولىٰ بصدق وحقّ.

ثانياً: فضيلته:

قال تعالىٰ: {مَن كان يريد حرث الآخرة} سمىٰ ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً، {نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦ} بالتوفيق في عمله أو التضعيف في إحسانه أو بأن ينال به الدنيا والآخرة، {وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ الدنيا}: أي من كان عمله للدنيا ولم يؤمن بالآخرة، {نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا}: أي شيئاً منها؛ لأن من للتبعيض وهو رزقه الذي قسم له لا ما يريد ويبتغيه، {وَمَا لَهُۥ فِى الآخرة مِن نَّصِيبٍ} وماله نصيب قط في الآخرة وله في الدنيا نصيب[٢].

---

(١) ينظر: القشيرية ص٢٤٢ـ ٢٤٣.

(٢) ينظر: تفسير النسفي٣: ٢٥١.

وقال تعالىٰ: {ولا تمدنّ عينيك إلىٰ ما متعنا به أزواجاً منهم}: أي نظر عينيك ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك أن يبادر الشيء بالنظر ثم بغض الطرف، {زَهۡرَةَ الحياة الدنيا} زينتها وبهجتها، {لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ}؛ لنبلوهم حتىٰ يستوجبوا العذاب(١).

وقال تعالىٰ: {فخرج علىٰ قومه في زينته} إلىٰ قوله تعالىٰ: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن}، فنَسب الزهد إلىٰ العلماء، ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء.

وقال تعالىٰ: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا}، وجاء في التفسير علىٰ الزهد في الدنيا.

وقال تعالىٰ: {إنا جعلنا ما علىٰ الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا}، قيل: معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

وقال تعالىٰ: {الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة} فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة علىٰ الحياة الدنيا.

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٢: ٣٩٠.

فعن عائشة رضي الله عنها: «ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لِمَ قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله ﷺ الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرّتين في يوم»[١].

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفىٰ به ذنباً أن الله تعالىٰ يُزهدنا في الدنيا، ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان: أَشتهي أن أرىٰ عالماً زاهداً، فقال: ويحك تلك ضالة لا توجد.

وقال إبراهيم ابن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتىٰ ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود، والحزن علىٰ المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت علىٰ المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحبُّ إلىٰ الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلىٰ آخر الدهر أبداً سرمداً.

---

(١) في الترمذي، وقال: حديث حسن، وللشيخين: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا» حتىٰ قبض، كما في المغني ٤: ٢٢٢.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيءٍ من الدنيا أَقبل، ولا يأسفون على شيءٍ منها أَدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل، فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه(١).

ثالثاً: أنواعه:

إن زهد العامة ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء، وزهد الخاصة ترك ما يشغل عن التقرب إلى الله في كلِّ حال، وزهد خاصة الخاصة ترك النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات.

وحاصل الجميع برودة القلب عن السِّوى، وعن الرغبة في غير الحبيب، وهو سبب المحبة كما روى سهل الساعدي رضي الله عنه، قال ﷺ: «ازهد في

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢١٩ـ ٢٢٤.

الدنيا يحبك الله تعالى»[١]، وهو سبب السير والوصول؛ إذ لا سَير للقلب إذا تعلق بشيء سوى المحبوب[٢].

والزهاد هم الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم.

قال رويم: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، هذا زهد المتحققين؛ لأن في الزهد في الدنيا حظا للنفس؛ لما في الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس، فمن زهد في قلبه من هذه الحظوظ فهو مُتحقِّقٌ في الزهد[٣].

وقال سهل: أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم.

وقال السري: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، ويجمع هذا: الحظوظ المالية، والجاهية، وحب المنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء.

وقال الشبلي: الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء[٤].

---

(١) في سنن ابن ماجة٢: ١٣٧٣، والمستدرك٤: ٣٤٨، وصححه.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٣٠.

(٣)ينظر: اللمع ص٧٢ـ ٧٣.

(٤) ينظر: معارف العوارف ص٢٨٣.

رابعاً: درجاته:

إن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث:

١ .**أن يزهد في الدنيا، وهو لها مشته وقلبه إليها مائل**، ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزُّهد في حقِّ من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أولاً نفسه ثم كيسه، والزاهد أولاً يذيب كيسه، ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنّه رُبَّما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

٢ . **يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها** بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع، ويلتفت إليه، فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظنُّ في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

٣.**أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلا يرى زهده**؛ إذ لا يرى أنه ترك شيئاً؛ إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمَن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى

ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلىٰ جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد[1].

خامساً: علاماته:

قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل علىٰ مَن أحبَّ المدح بالزهد، فكم من الرَّهابين مَن ردوا أنفسهم كل يوم إلىٰ قدر يسير من الطعام، ولازموا ديراً لا باب له وإنّما مَسرّة أحدهم معرفة الناس حاله، ونظرهم إليه ومدحهم له.

فذلك لا يدلُّ علىٰ الزهد دلالة قاطعة، بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتىٰ يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا، بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك علىٰ الناس؛ ليهدىٰ إليهم مثل لباسهم؛ لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلىٰ الفقراء، فيحتقروا فيعطوا كما تعطىٰ المساكين، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم، وأنهم علىٰ السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم، وهم خارجون منها.

وقال أبو سليمان: مَن شغل بنفسه شُغل عن الناس، وهذا مقام العاملين، ومَن شغل بربه شُغل عن نفسه، وهذا مقام العارفين، والزاهد لا بُدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه، وعند

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٢٢٥ـ٢٢٦.

ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعزّ بلا رياسة[1].

سادساً: طريقه تحصيله:

إنّ الزُّهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات؛ لأنّ أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أُقيم مقام الحال؛ إذ به يظهر الحال الباطن، وإلا فليس القول مراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً.

والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل.

أما الحال فنعني بها ما يُسمّى زهداً، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكلُّ مَن عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره، فإنّما عَدَلَ عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢٤١ـ ٢٤٢.

فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد، ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمَن يزهد في الدنيا.

فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلىٰ الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوىٰ الرغبة في البيع والمعاملة، حتىٰ إن مَن قَوي يقينُه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالىٰ: {إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}، ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالىٰ: {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به}.

فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلىٰ هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقىٰ، وقد يعلم ذلك مَن لا يقدر علىٰ ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه، وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلىٰ أن يختطفه الموت، ولا يبقىٰ معه إلا الحسرة بعد الفوت، وإلىٰ تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالىٰ: {قل متاع الدنيا قليل}، وإلىٰ تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير} فنبَّه علىٰ أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢١٦ـ٢١٨.

المطلب الثاني: الفقر:

إن الفقر بلاء من الله تعالى واختبار للمؤمنين في الصبر والرضا، قال الغزالي[1]: «كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات؛ لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل، فكتمانه أسلم عن الآفات، ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد».

ونتحدَّث في هذا المطلب عن معنى الفقه وأحوال الفقراء وفضيلة الفقر والفقراء وآداب الفقراء وحرمة السؤال لغير ضرورة في النقاط الآتية:

أولاً: معناها:

الفـقر: وهو نقض اليد من الدنيا، وصيانة القلب من إظهار الشكوى.

ونعت الفقير الصادق ثلاثة أشياء: صيانة فقره، وحفظ سره، وإقامة دينه[2].

والفقير: من لا يملك شيئاً، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً، ولا ينتظر من أحد شيئاً، وإن أعطي شيء لم يأخذ، فهذا مقام المقربين[3].

---

(١) في الإحياء٤: ٢٩٢.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٤٤.

(٣)ينظر: اللمع ص٧٤ـ٧٥.

وإن الفقرَ عبارةٌ عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يُسمّىٰ فقراً، إن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً.

فكل موجود سوىٰ الله تعالىٰ فقير؛ لأنه محتاج إلىٰ دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالىٰ وجوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غير، فهو الغني المطلق، ولا يُتصوَّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غنيٌّ واحدٌ، وكلُّ مَن عداه، فإنَّهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام، وإلىٰ هذا الحصر الإشارة بقوله تعالىٰ: {والله الغني وأنتم الفقراء}، هذا معنىٰ الفقر مطلقاً[1].

وقال جعفر الخُلدي: خدمت ست مائة شيخ، فما وجدت من شفىٰ قلبي من أربع مسائل حتىٰ رأيت رسول الله ﷺ في النوم ، فقال لي : اسأل عن مسائلك ؟ فقلت: يا رسول الله ما العقل ؟ أدناه ترك الدنيا، وأعلاه ترك التفكر في ذات الله تعالىٰ ـ أي التفكر في كنه الربوبية منهي عنه؛ إذ لا يدرك، وأما التفكر في أسرار الربوبية وأنوار صفاتها، فلا عبادة أعظم منها ـ.

فقلت: وما التوحيد؟ فقال: كل ما أتي به الوهم أو جلاه الفهم، فربنا عز وجل مخالف لذلك ـ أي الوهم لا يدرك إلا حس الكائنات، فهو قصير، والفهم بلا ذوق لا يدرك أسرار التوحيد؛ لأنها خارجة عن الوهم ودرك العقل ـ .

فقلت: وما التصوف؟ فقال: ترك الدعاوي ، وكتمان المعاني.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٩.

فقلت: وما الفقر؟ فقال: هو سرٌّ من أسرار الله تعالى يودعه فيمن يشاء من عباده، فمن كتمه فهم من أهله، وزاده الله تعالى منه، ومَن باح به نفاه الله تعالى عنه ـ أي يكون من السابقين: ويزيده تعالى من أسراره وأنواره، وهي حلاوة المعاملة والمعرفة ـ[1].

وقال المسوخي: الفقير الذي لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها[2].

ثانياً: أحوال الفقراء:

كلُّ فاقد للمال نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقِّه، وله أحوال:

١. أن يستوي عنده وجود المال وفقده، فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاها مائة ألف درهم من العطاء، فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمَن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضرُّه؛ إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يده غيره وينبغي أن يُسمَّى صاحب هذه الحالة المستغني؛

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٤٤.

(٢) ينظر: عوارف المعارف ص٢٨٧.

لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنىٰ يفارق اسم الغني المطلق علىٰ الله تعالىٰ.

٢. أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذىٰ به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله، وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

٣. أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذىٰ بها، ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة، يُسمّىٰ راضياً.

٤.أن يكون وجود المال أحبُّ إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلىٰ تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نُسميه قانعاً؛ إذ قنع نفسه بالموجود، حتىٰ ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

٥.أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلىٰ طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

٦.أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه: كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويُسمىٰ صاحب هذه الحالة مضطراً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلّما تنفك هذه الحالة عن الرغبة[1].

---

(١) ينظر: الإحياء: ٤: ١٩١.

قال الشبلي: أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر بباله أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدق في فقره[1].

ثالثاً: فضيلة الفقر والفقراء:

قال تعالى: {للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض} [البقرة: ٢٧٣]: قيل: هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد، وكانوا يخرجون في كلِّ سرية بعثها رسول الله ﷺ[2].

وقال تعالى: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم} ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وعن أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»[3]: أي اجمعني في جماعتهم، بمعنى اجعلني منهم لكن لم يسأل مسكنة ترجع للقلة، بل للإخبات والتواضع والخشوع، قال السهروردي: لو سأل الله أن يحشر المساكين في زمرته لكان لهم الفخر العميم والفضل العظيم فكيف وقد سأل أن يحشر في زمرتهم[4].

---

(١) ينظر: اللمع ص٧٤ـ٧٥.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم١: ٢٦٥.

(٣) في سنن الترمذي رقم ٢٣٥٢، والمستدرك رقم ٧٩١١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم٨: ٢٢٨.

وعن حارب بن وهب ﵁، قال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظٍ[١] مستكبر»[٢]، وعدٌ للفقراء بالجنة؛ لأنهم من الضعفاء، وأنه يستجاب دعوتهم.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يدخل فقراء أُمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»[٣]، بيان لفضل الفقر أنه طريق إلى الجنة إن صبر ورضي.

قال أبو هريرة ﵁: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب، رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن، كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال يحيى بن معاذ: حبُّك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين[٤].

---

(١) العتل: الشديد الغليظ الفظ الجافي اللئيم، الجواظ: الجموع المنوع، ينتفخ بما ليس عنده.
(٢) في صحيحي البخاري رقم ٤٦٣٤ وصحيح مسلم رقم ٢٨٥٣.
(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح، كما في المغني ٤: ١٩٣.
(٤) ينظر: الإحياء ٤: ١٩٣ـ١٩٨.

وإن الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر، وقال ابن عطاء الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر[١].

قال بشر بن الحرث: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر.

وقال ذو النون: علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر[٢].

قال الخواص: الفقر رداء شريف، ولباس المرسلين، ورداء الصالحين، وتاج المتقين، وزين المؤمنين، وغنية العارفين، ومنبه المريدين، وحصن المطيعين، وسجن المذنبين...[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء»[٤]: أي احذري ذلك فإنه من مبادئ الطمع ولئلا تزدري نعمة الله تعالى عليك[٥].

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»[١]، سوى ﷺ بين هدي الإسلام والرضا بالعيش فقيراً إرشاداً لمكانة الفقر.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢٠١.
(٢)ينظر: اللمع ص٧٤ـ٧٥.
(٣)ينظر: اللمع ص٧٤ـ٧٥.
(٤) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه، كما في المغني٤: ١٩٩.
(٥) ينظر: التيسير١: ٣٧١.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً»[٢]: لمكانة الفقر وفضله كان في دعاء النبي ﷺ.

وعن أنس ﵁، قال ﷺ: «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا»[٣]؛ لما في الغنى من مخاطر، فإن كل أحد يتمنى أن يكون فقيراً في الدنيا.

قال عمر ﵁: إن الطمع فقر، واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

وقال أبو الدرداء ﵁: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظلّ فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك[٤].

رابعاً: آداب الفقير:

إن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله، ينبغي أن يُراعيها، فأما أدب باطنه، فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله، وإن كان كارهاً للفقر

---

(١) رواه مسلم، كما في المغني ٤: ١٩٩.

(٢) رواه مسلم، كما في المغني ٤: ١٩٩.

(٣) أخرجه ابن ماجة، كما في المغني ٤: ١٩٩، ومسند أحمد ٢٠: ١٣٠.

(٤) ينظر: الإحياء ٤: ١٩٩ـ ٢٠٠.

كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها، ولا يكون كارهاً فعل الحجام، ولا كارهاً للحجام.

وأما أدب ظاهره، فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره، قال تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف}.

وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة.

وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأمّا في الأعمال فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه، قال علي: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل.

وأما أدبه في أفعاله لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني(١).

خامساً: حرمة السؤال لغير ضرورة:

الأصل فيه التحريم؛ لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

١. إظهار الشكوى من الله تعالى؛ إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه، وهو عين الشكوى.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٢٠٦.

٢.أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالىٰ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه، فإن فيه عزّه فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلىٰ المسئول.

٣.أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالباً؛ لأنه ربّما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء، فهو حرام علىٰ الآخذ وإن منع ربما استحيا وتأذىٰ في نفسه بالمنع؛ إذ يرىٰ نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة[١].

ومَن له قوت يومه لا يَحِلُّ له السؤال؛ لأنه يذل نفسه بغير ضرورة، وهو حرام[٢]، فعن حذيفة ﵁ قال ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[٣].

وأما إذا دفع إليه فيُباحُ له الأخذ وإن كان له قوت يوم، بل قوت أيام كثيرة ما لم يملك نصاب الحرمان للزكاة، فلا يحل له الإخذ عندئذ[٤].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢١٠.

(٢) ينظر: المنحة ٣: ٣٠٩.

(٣) في سنن الترمذي ٤: ٥٢٢، وحسنه، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٣٢، ومسند أحمد ٥: ٤٠٥.

(٤) ينظر: الهدية ص٢٥٨.

والسائل في المسجد إذا كان لا يتخطَّى رقاب الناس، ولا يمرُّ بين يدي المصلين، ولا يسأل الناس إلحافاً يباح إعطاؤه، وإن كان يفعلُ واحدةً من هذه الثلاثةِ كره إعطاؤه؛ لأنه إعانة على أذى الناس، وإغراء المساكين على ذلك الفعل المكروه حتى قيل من أعطاه فلساً يكفره سبعين فلساً[1].

وبعد الكلام عن الزهد والفقير نتكلم عن الصبر؛ لبنائه عليه، قال الطوسي[2]: «والفقر يقتضي مقام الصبر».

❧❧❧

---

(١) ينظر: هدية الصعلوك ص٢٥٨.

(٢) في اللمع ص٧٤ـ٧٥.

المبحث الخامس
الصبر والشكر

إنّ الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، كما وردت به الآثار، وشهدت له الأخبار وهما وصفان من أوصاف الله تعالىٰ، واسمان من أسمائه الحسنىٰ؛ إذ سمىٰ نفسه صبوراً وشكوراً، فالجهلُ بحقيقة الصبر والشكر جهلٌ بكلا شطري الإيمان، ثمّ هو غفلةٌ عن وصفين من أَوصاف الرحمن، ولا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ القرب من الله تعالىٰ إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان، وعن إدراك ما به الإيمان[1].

وسيكون الكلام في هذا المبحث عن الصبر والشكر في مطلبين:

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٦٠.

المطلب الأول: الصبر:

إن تذكر أنّ الدنيا دار بلاء معين على ذلك، فعن سعد بن مالك ﵁، قال ﷺ: «الأنبياء أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل»(١)، فهذا البلاء شامل لكل البشر لا سيما أهل الإيمان منهم لتمحيص إيمانهم وتطهيرهم من ذنوبهم، فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(٢).

وإن كثيراً من مشاكل الحياة وأعبائها حلها الصبر لا تناول الأدوية على اختلاف أنواعها، قال الخواص: هرب أكثر الخلق من حمل أثقال الصبر فالتجئوا إلى الطب والأسباب واعتمدوا عليها كأنها لهم أرباب(٣).

أولاً: معنى الصبر:

الصبر: حبس القلب على حكم الرب(٤).

قال رويم: الصبر ترك الشكوى(٥)، فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٦).

---

(١) في صحيح ابن حبان ٢٩٠١.

(٢) في سنن الترمذي رقم ٢٣٩٦، وحسنه، وصحيح ابن حبان رقم ٢٩١١.

(٣)ينظر: اللمع ص٧٦ـ ٧٧.

(٤)ينظر: معراج التشوف ص٢٨ـ ٢٩.

(٥) ينظر: القشيرية ص٣٢٣.

(٦) في سنن الترمذي رقم ٢٣٩٦، وحسنه.

وقال ذو النون: الصبر: هو الاستعانةُ بالله تعالىٰ[1]، وهذا ما أُمرنا به في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ «واستعن بالله ولا تعجز»[2]، واستحبّ لنا ندعو الله تعالىٰ به، فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»[3].

ثانياً: فضيلة الصبر:

قال تعالىٰ: {واصبر وما صبرك إلا بالله} [النحل: ١٢٧].

وقد وصف الله تعالىٰ الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلىٰ الصبر وجعلها ثمرة له، فقال تعالىٰ: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا}، وقال تعالىٰ: {وتمت كلمة ربك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا}، وقال تعالىٰ: {ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، وقال تعالىٰ: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} وقال تعالىٰ: {إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب}.

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال تعالىٰ: {واصبروا إن الله مع الصابرين}، وعَلَّق النصرة علىٰ الصبر، فقال تعالىٰ: {بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم

---

(١) ينظر: القشيرية ص٣٢٣.

(٢) في صحيح مسلم رقم ٢٦٦٤.

(٣) في صحيح البخاري رقم ٢٦٦٨ وصحيح مسلم رقم ٢٧٠٦.

ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}، وجمع للصابرين بين أُمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالىٰ: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}، فالهدىٰ والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصَّبر يطول(١).

وعن صهيب ﵁، قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمرَه كلَّه خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءٌ شكر، فكان خيراً له، وإن أَصابته ضراءٌ صبر فكان خيراً له»(٢)، فالصَّبرُ والاحتسابُ يجعل كل أُمور المؤمن خير؛ لأنه بهما يُصبح الضَّررُ خيراً له، فعن أبي سعيد ﵁، قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذىٰ ولا غم ـ حتىٰ الشوكة يشاكها ـ إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه»(٣).

وعن أبي موسىٰ الأشعري ﵁، قال ﷺ: «والصبر ضياء»(٤)، بيان للخير الكبير المترتب علىٰ الصبر، بحيث يكون ضياءً في حياة المسلم.

وعن أنس ﵁، قال ﷺ: «مَرّ النبيّ ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليكَ عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٦١.

(٢) في صحيح مسلم رقم ٢٩٩٩.

(٣) في صحيح البخاري رقم ٥٣١٨.

(٤) في صحيح مسلم رقم ٢٢٣.

أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١]، وهذا ما يفسره حديث أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قلّ»[٣]، والدَّيمومةُ في العمل تحتاج إلى الصبر، وبها يَنال المحبة الإلهية.

ثالثاً: أنواع الصبر:

إنّ الصَّبر ضربان:

١.ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

٢.الصَّبرُ النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا هو المحمود التام.

ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سُمِي عفّةً، وإن كان على احتمال مكروهٍ اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة

---

(١) في صحيح البخاري رقم ١٢٢٣ ومسلم رقم ٩٢٦.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٣ ومسلم ٢٦٠٩.

(٣) في صحيح البخاري ٥٥٢٣ وصحيح مسلم ٧٨٢.

تُسمّىٰ الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوىٰ؛ ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما.

وإن كان في احتمال الغنىٰ سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تُسمّىٰ البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً، ويُضاده التذمر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر، ويُضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السرّ، وسمي صاحبه كتوماً، وإن كان عن فضول العيش سمىٰ زهداً، ويضاده الحرص، وإن كان صبراً علىٰ قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة، ويُضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

وقد جمع الله تعالىٰ أقسام ذلك، وسمىٰ الكل صبراً، فقال تعالىٰ: {والصابرين في البأساء}: أي المصيبة {والضراء}: أي الفقر وحين البأس أي المحاربة، {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}، فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأىٰ الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم، وينظر بنور الله تعالىٰ يلحظ المعاني أولا، فيطلع علىٰ حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي، فإنها وضعت دالة علىٰ المعاني، فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع[1].

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٦٧.

فصبـر العامة حبس القلب على مشاق الطاعات ورفض المخالفات، وصبر الخاصة حبس النفس على الرياضات والمجاهدات وارتكاب الأهوال في سلوك طريق الأحوال، مع مراقبة القلب في دوام الحضور، وطلب رفع الستور ، وصبـر خاصة الخاصة حبس الروح، أو السر في حضرة المشاهدات والمعاينات، أو دوام النظرة والعكوف في الحضرة[١].

رابعاً: حكم الصبر:

إن الصبر ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم، فالصبرُ عن المحظورات فرضٌ، وعلى المكاره نفلٌ، والصبر على الأذى المحظور محظور كمَن تقطع يده أو يد ولده، وهو يصبر عليه ساكتاً، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة، فتهيج غيرته، فيصبر عن إظهاره الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصبر محرم.

والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع، فليكن الشرع محك الصبر، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة[٢].

خامساً: أحوال باعث الدين:

إن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٢٨ ـ ٢٩.

(٢) ينظر: الإحياء ٤: ٦٩.

١. **أن يقهر داعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة،** ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر، والواصلون إلى هذه الرتبة، هم الأقلون، فلا جرم هم الصديقون المقربون: {الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}.

فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم، واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين، وإياهم ينادي المنادي: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية}.

٢. **أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين،** فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى، وأمر من أمور الله.

وإليهم الإشارة بقوله تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم.

هذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق.

٣. **أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين،** فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يُعَدُّ مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم

الذين: {خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم}، هذا باعتبار القوة والضعف[١].

سادساً: تقوية الصبر:

إن الذي أنزل الداء أَنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة، فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج؛ إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول، ولكنا نعرف الطريق، فمثلاً:

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً، وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه، ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه، ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة.

فالصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا، وتضعيف الآخر، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٦٨.

فأما باعث الشهوة، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

١.**أن تنظر إلى مادة قوتها**، وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها، فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

٢.**قطع أسبابه المهيجة في الحال**، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة؛ إذ النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، والفرار منها بالكلية.

٣.**تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه**، وذلك بالنكاح، فإن كلَّ ما يشتهيه الطبع، ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه، وهذا هو العلاج الأنفع في حقِّ الأكثر، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حقِّ أكثر الرجال.

وأما تقوية باعث الدين، فإنما تكون بطريقين:

١.**إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا**، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار في فضل الصبر، وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وفي الأثر إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة؛ إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، ومن أسلم خسيساً في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف، وهو من الإيمان.

٢.أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً، حتىٰ يدرك لذة الظفر بها، فيستجريء عليها، وتقوىٰ منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوىٰ التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين.

وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد علىٰ قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة[1].

سابعاً: ذم الجزع والشكوى:

وهو عدم تحمل المحن والمصائب، وإظهارهما قولاً أو فعلاً تضجراً.

وضده الصبر، وهو حبس النفس عن الجزع، قال تعالىٰ: {إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب} [الزمر: ١٠].

وقد جعل بعضُ العارفين الصبر علىٰ ثلاثة معان، وإنه في أهل مقامات ثلاث، فقال: أوّله: ترك الشكوىٰ، وهذه درجة التائبين، والثانية: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين، والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصادقين.

والتَّصبرُ غير الصبر، وهو مجاهدة النفس وحملها علىٰ الصبر وترغيبها فيه وهو التعمّل للصبر والتصنّع للصبور بمنزلة التزهد، وهو أن يعمل في أسباب الزهد ليحصل الزهد والصبر، هو التحقق بالوصف وذلك هو

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٧٦.

المقام، ولا يخرج العبد من الصبر كراهة النفس ولا وجدان المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابراً؛ لأنّ هذا وصف البشرية لما يُنافي طبعها.

ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفي السخط لحكم المولى؛ لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل، وهذان من أعلى مقامات اليقين، وفقد مراتب اليقين لا يخرج عن حدّ الصبر، والذي يخرج عن حدّ الصبر ضده، وهو الجزع ومجاوزة الحدّ من السعلم وإظهار السخط وكثرة الشكوى وظهور الذم والتبرّم[1].

والشكوى استراحة النفس من البلوى كالاستراحة بالدواء، وهذا لا يفعله عالم؛ لأنّ الاستراحة بالدواء الذي أباحه له المولي خير من استراحته إلى العبيد بالشكوى، على أنّه لا يأمن دخول الآفات عليه في الأخبار من التصنع أو التزيد في العلّة وغير ذلك، وقيل في قوله تعالى: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: ١٨]، قال: لا شكوى فيه، وقال بعضهم: من بث شكواه فلم يصبر.

وعن طاووس ومجاهد: يكتب على المريض أنينه في مرضه، قال: وكانوا يكرهون أنين المريض؛ لأنّه إظهار معنى يدل على شكوى.

ولا ينقص توكل المتوكل إخباره بعلته على معنى التحدث بها مع فقد آفات النفوس، إذا كان قلبه شاكراً لله راضياً بقضائه، ويكون بذلك مظهراً للافتقار والعجز بين يدي مولاه أو راغباً في دعاء إخوانه المؤمنين، أو يشهد ذلك نعمة فيحدث بها شكراً.

---

(١) ينظر: قوت القلوب١: ٣٣٤.

وقال الحسن البصري: إذا حمد المريض الله عزّ وجلّ وشكره ثم ذكر علّته، لم يكن ذلك شكوى[1].

المطلب الثاني: الشكر:

إن الثناء على الله تعالى بما هو أهله واجب علينا، فإن نعمه التي تنعم بها لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فيلزم علينا تذكرها واستحضارها في لحظةٍ من حياتنا مع الشكر له سبحانه عليها، وبهذا الشكر يتحقَّق أساس السعاد؛ لأنه موصل إلى الرضا.

وفي هذا المطلب نتحدث عن معنى الشكر وفضيلته وحقيقة النعمة ومنازل الهداية وسبب ترك الشكر وذم كفران النعمة في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

الشكر: ثناء على ما هو منه من أوصاف الإفضال[2]، أو تصور النعمة وإظهارها.

ويُضاده الكفر، وهو نسيانُ النِّعمة وسترها.

والشكر ثلاثة أضرب:

١. شكر القلب، وهو تصور النعمة.

٢. شكر اللسان، وهو الثناء على المنعم.

---

(١) ينظر: قوت القلوب ٢: ٤٦ـ ٢٧.

(٢) ينظر: تفسير النسفي ١: ٢٩.

٣.شكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه[١].

إن الشكرَ من جملة مقامات السالكين، ويَنتظم من علم وحال وعمل.

فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل.

فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه.

ويتعلَّق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان[٢].

قال الجنيد: فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وحقيقة الشكر: أن يرىٰ جميع المقضي له به نعماً ـ غير ما يضره في دينه ـ؛ لأن الله تعالىٰ لا يقضي للعبد المؤمن شيئاً إلا وهو نعمة في حقه، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها، وإما آجلة بما يقضي له من المكاره، فإما أن تكون درجة له، أو تمحيصاً، أو تكفيراً، فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه، وأعلم بمصالحه ، وأن كل ما منه نعم، فقد شكر[٣].

ثانياً: فضيلة الشكر:

إنّ الله تعالىٰ قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: {ولذكر الله أكبر}، فقال تعالىٰ: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}، وقال تعالىٰ: {ما

---

(١) ينظر: مفردات القرآن ص٤٦١.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٨١.

(٣) ينظر: عوارف المعارف ص٢٨٩.

يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم}، وقال تعالىٰ: {وسنجزي الشاكرين}، وقال تعالىٰ: {إخباراً عن إبليس اللعين لأقعدن لهم صراطك المستقيم}، قيل: هو طريق الشكر، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق، فقال: {ولا تجد اكثرم شاكرين}، وقال تعالىٰ: {وقليل من عبادي الشكور}.

وقد قطع الله تعالىٰ بالمزيد مع الشكر ولم يستثن، فقال تعالىٰ: {لئن شكرتم لأزيدنكم} واستثنىٰ في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالىٰ: {فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، وقال: {فيكشف ما تدعون إليه إن شاء}، وقال: {يرزق من يشاء بغير حساب}، وقال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وقال: {ويتوب الله علىٰ من يشاء}.

وهو خلق من أخلاق الربوبية؛ إذ قال تعالىٰ: {والله شكور حليم}، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالىٰ: {وقالوا الحمد لله الذي صدقناه وعده}، وقال: {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين}(١).

فعن أبي موسىٰ الأشعريَّ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا ماتَ ولَدُ العبْدِ قال الله تعالىٰ لملائكته: قَبَضْتُم ولَدَ عبدي؟ فيَقولُون: نعم، فيقولُ: قبضتُم ثَمرةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نعم، فيقولُ: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمِدكَ

(١) ينظر: الإحياء٤: ٨٠.

واسْتَرْجَع[١]، فيقول الله تعالىٰ: ابْنُوا لعبدي بيْتاً في الجنَّةِ، وسَمُّوهُ بَيْتَ الحمْدِ»[٢]، فجزاه الله تعالىٰ علىٰ حمده وشكره بأن بنىٰ له بيتاً في الجنة.

ثالثاً: حقيقة النعمة:

إن كلَّ خير ولذة وسعادةٍ، بل كلُّ مطلوب ومؤثر، فإنّه يُسمَّىٰ نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين علىٰ الآخرة نعمة، فإن ذلك غلطٌ محضٌ، وقد يكون اسم النعمة للشّيء صدقاً، ولكن يكون إطلاقه علىٰ السَّعادة الأُخروية أَصدق، فكلُّ سبب يُوصل إلىٰ سعادة الآخرة ويُعين عليها إمّا بوسطة واحدة أو بوسائط، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلىٰ النعمة الحقيقية.

وسعادة الآخرة يرجع حاصلها إلىٰ أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنىٰ لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقية[٣]، فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة»[٤].

---

(١) (استرجع): أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) في سنن الترمذي رقم ١٠٢١، وقالَ: حديثٌ حسنٌ غريب.

(٣) ينظر: الإحياء٤: ١٠٣.

(٤) متفق عليه، كما في المغني٤: ١٠٣.

رابعاً: منازل الهداية:

١.معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالىٰ: {وهديناه النجدين}، وقد أنعم الله تعالىٰ به علىٰ كافة عباده بعضه بالعقل، وبعضه علىٰ لسان الرسل، ولذلك قال تعالىٰ: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ}.

فأسباب الهدىٰ هي الكتاب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولةٌ، ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحبّ الدنيا، والأسباب التي تَعمي القلوب، وإن كانت لا تعمىٰ الأبصار، قال تعالىٰ: {فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور}.

٢.ما يمدُّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة، حيث قال تعالىٰ: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، وهو المراد بقوله تعالىٰ {والذين اهتدوا زادهم هدىٰ}.

٣.النور الذي يُشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلا ما لا يهتدىٰ إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف، وإمكان تعلم العلوم، وهو الهوىٰ المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات، وهو الذي شرفه الله تعالىٰ بتخصيص الإضافة إليه، وإن كان الكل من جهته تعالىٰ، فقال تعالىٰ: {قل إن هدىٰ الله هو الهدىٰ}، وهو المسمىٰ حياة في قوله تعالىٰ: {أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس}. والمعنىٰ بقوله تعالىٰ: {أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربه}.

وأمَّا الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن، كما قال تعالى: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين}، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها.

وأما التَّسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه؛ ليشتدَّ في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجردها لا تكفي بل لا بُدّ من هداية محركة للداعية، وهي الرشدُ، والرشد لا يكفي، بل لا بُدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات، حتى يتمَّ المراد مما انبعثت الداعية إليه، فالهدايةُ محضُ التَّعريف، والرُّشد هو تنبيهُ الدَّاعية لتستقيظ وتتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد.

وأمّا التأييد فكأنه جامع للكلِّ، وهو عبارةٌ عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل، وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله تعالى: {إذ أيدتك بروح القدس}، وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر، يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى: {ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه}.

فهذه هي مجامع النعم ولن تثبت إلا بما يخوله الله تعالى من الفهم الصافي الثاقب، والسمع الواعي، والقلب البصير المراعي المتواضع، والمعلم

الناصح، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلّته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته، والعزّ الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء[1].

خامساً: سبب ترك الشكر:

لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشَّهوة واستيلاء الشَّيطان.

أمّا الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعمّ الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على النعم؛ لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به، فلا يعده نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا.

وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره، إلا أن تعمى عينيه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره.

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ١٠٩.

ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق، وبذل لهم في جميع الأحوال، فلم يعده الجاهل نعمة.

وأما العقل فما من عبد لله تعالى، إلا وهو راض عن الله في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلَّ مَن يسأل الله العقل، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس، فواجب عليه أن يشكره؛ لأنه إن كان كذلك، فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزاً تحت الأرض، فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري، فيبقى فرحه بحسب اعتقاده، ويبقى شكره؛ لأنه في حقه كالباقي.

وأمّا الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير، فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى؛ إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء.

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره، وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة، فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه، فأظهر الجميل وستر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد.

فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كلُّ عبد[١].

سادساً: ذم كفران النعمة:

وهو جحود النعمة وسترها.

قال في «مفتاح السعادة»: لا بُدّ في الشكر من معرفة ما خلق كلّ شيء له، وكلّ ذرة لا تخلوا عن حكم كثيرة من واحدة إلى عشر، بل إلى ألف فمن استعمل شيئاً فيما خلق له من الحكم صار شكراً، وإلا صار كفراً، مثلا اليد خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، فمن ضرب بيده غيره فقد كفر نعمة اليد، وكذا لو استنجى باليمين فقد كفر ما خلقت له اليمين، وكذا البصر لينظر ما ينفعه في الدين والدنيا ويتقي ما يضر فيهما فلو نظر إلى المحرم مثلا فكفر نعمة الإبصار، وكذا سائر الأمور كالأموال والأولاد، وبالجملة إن كفران النعمة أن لا يستعمل كل نعمة فيما خلقت له[٢].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ١٢٠ـ ١٢٤.

(٢)ينظر: بريقة محمودية٣: ٨١.

المبحث السادس
التوكل والرضا

بعد الكلام في الصَّبر والشُّكر يحسنُ الانتقال للكلام عن التَّوكل؛ لأنه مبنيٌّ عليه وموصلٌ له، قال الطوسي: «والصبر يقتضي التوكل»[1].

وكلٌّ من التوكل والرضا متعلِّقٌ ببعضه؛ لأنّه يقتضيه، فالتوكلُ ثقةٌ بالله تعالى للاعتماد، ووجود الثقة بالله تعالى تحقِّقُ الرِّضا، ورضاك بما قدَّر الله تعالى لك يُدخلك في زُمرة المتوكلين، قال الطوسي: «والتوكل يقتضي الرضا»[2].

وفي هذا المبحث نتحدث عن التوكل والرضا في مطلبين:

المطلب الأول: التوكل:

إنّ التَّوكلَ منزلٌ من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرَّبين، وهو في نفسِه غامضٌ من حيث العلم، ثم هو شاقٌّ من حيث العمل.

---

(١) ينظر: اللمع ص٧٦ـ ٧٧.

(٢) ينظر: اللمع ص٨٠ـ ٨١.

ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن في ألسنة وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا[1].

ويشمل هذا المطلب معنى التوكل وفضيلته وأنواعه وذم التشاؤم في النقاط الآتية:

أولاً: معناه:

التوكل: اعتماد القلب على الوكيل وحده[2]، أو ثقةُ القلب بالله تعالى حتى لا يعتمد على شيءٍ سواه، والتَّعلُّق بالله والتعويل عليه في كلِّ شيءٍ علماً بأنه عالم بكلِّ شيءٍ، أو أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك[3].

قال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢٤٣.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٢٤٥ـ ٢٦٥.

(٣)ينظر: معراج التشوف ص٣٠ـ ٣١.

وقال أبو بكر الزقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاطهم غد.

وقال الشبلي: التوكل أن تكون لله كما لم تكن، ويكون الله تعالى لك كما لم يزل.

وقال ابن الجلاء: التوكل الإيواء إلى الله وحده في جميع الأحوال.

وقال الجنيد: التوكل اعتماد القلب على الله تعالى[٢].

وقال حمدون: التوكل هو الاعتصام بالله تعالى[٣].

وإن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فالعلم الذي هو الأصل، وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان؛ إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب، فهو علم، وإذا قوي سُمي يقيناً، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في

---

(١) ينظر: اللمع ص٨٠ـ ٨١.

(٢) ينظر: اللمع ص٨٠ـ ٨١.

(٣) ينظر: القشيرية ص٢٩٨ـ ٣٠٢.

الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين، بل نكشف الغطاء عنه، ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره، إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض.

فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة، وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه[1].

والتوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، وإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره.

وقال إبراهيم الخواص: من صح توكله في نفسه صح توكله في غيره.

وقال بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله تعالى يكذب على الله تعالى لو توكل على الله تعالى لرضي بما يفعل الله تعالى به[2].

فتحصَّل مما سبق أنّ التَّوكلَ هو الاعتمادُ على الله تعالى في كلِّ تصرفاتك، والثقة التامة أن الأمر بيده سبحانه، مع الأخذ بالأسباب بتمامها.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٢٤٥ـ ٢٦٥.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٩٨ـ ٣٠٢.

ثانياً: فضيلته:

كثرت النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة في بيان فضل التوكل ومنها:

قال تعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}، فالتوكل صفة المؤمنين، وعلى كل من آمن بالله تعالى أن يتوكل ويعتمد عليه.

وقال تعالى: {وعلى الله فليتوكل المتوكلون}، هذا إرشادٌ ربانيٌّ أن لا يكون توكل إلا على الله تعالى، وأن يعتمد ولا يوثق بغيره سبحانه.

وقال تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ على الله} يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه {فهو حسبه} كافيه من الدارين[1].

وقال تعالى: {إن الله يحب المتوكلين}، فالمتوكل داخل في محبة الله تعالى، وهي من أعظم الدرجات.

فعن ابن مسعود ﷺ: قال ﷺ: «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبتني كثرتهم وهيأتهم، فقيل لي: أرضيت، قلت: نعم، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، قيل: من هم يا رسول الله، قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة، وقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اجعله منهم فقام آخر، فقال: يا رسول الله: ادع الله أن

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٣: ٤٩٨.

يجعلني منهم، فقال ﷺ: سبقك بها عكاشة»[١]، هذا بشرى نبوية شريفة أن المتوكل يدخل الجنة بغير حساب.

وعن عمر رضي الله عنه، قال ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً»[٢]، فمن يتوكل على الله تعالى بحقّ يكفيه أمره ويزيله همه.

وعن أنس رضي الله عنه: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله: أربط ناقتي أم أتوكل؟ فقال ﷺ: اعقلها وتوكل»[٣]، فالتوكل اعتماد بالقلب على تعالى، وهذا لا يعني ترك الأخذ بالأسباب المادية.

وعن علي رضي الله عنه: سأل الصحابةُ النبيَّ ﷺ قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل، قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة»[٤]، فلا يعني التوكل ترك العمل والأخذ بالأسباب، بل هو ثقة بالله تعالى وبعلمه وقدرته؛ لنكون من أهل السعادة.

---

(١) رواه ابن منيع بإسناد حسن، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كما في المغني٤: ٢٤٤.

(٢) في مسند أحمد رقم ٢٠٥، وسنن الترمذي رقم ٢٣٤٤ وقال: حسن صحيح.

(٣) في سنن الترمذي رقم ٢٥١٧ ، وصحيح ابن حبان رقم ٧٣١.

(٤) في صحيح البخاري ٤٦٦٦ وصحيح مسلم ٢٦٤٧.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة»(١)، فلا اعتماد على عمل لوحده، بل التوكل هو الثقة التامة بالله تعالى فلا ينفع عمل بغير توفيق ولا رحمة منه سبحانه.

وعن أسامة بن شريك ﵁، قال ﷺ: «ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه جهله من جهله إلا الهرم»(٢)، بيانٌ نبويٌّ على أهمية أخذ الأسباب وأنها لا تُنافي التّوكل عليه سبحانه، بحيث نتداوى ونعالج أنفسنا، فعن أسامة بن شريك ﵁، قال ﷺ: «تداووا عباد الله»(٣).

وعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا: مرّ أُمتك بالحجامة»(٤)، والحجامة هي من أخذ الأسباب، وهذا لا ينافي الاعتماد على الله تعالى.

ثالثاً: أنواعه:

أدنى التوكل أن تكون مع الله تعالى كالموكل مع الوكيل الشفيق الملاطف، وقد يخطر بباله تهمة، وهو توكل العامة.

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٦٠٩٨ وصحيح مسلم رقم ٢٨١٦.

(٢) رواه الترمذي وصححه، كما في المغني ٤: ٢٤٤.

(٣) رواه الترمذي وصححه، كما في المغني ٤: ٢٤٤.

(٤) رواه الترمذي وحسنه، كما في المغني ٤: ٢٤٤.

ووسطه كالطفل مع أنه لا يرجع في جميع أموره إلا إليها، ولا اتهام له، لكن يتعلق بأُمه عند الحاجة، وهو تكول الخاصة.

وأعلاه أن تكون كالميت مع الغاسل، فلا اتهام له ولا تعلق؛ لأنه فان عن نفسه، ينظر كل ساعة ما يفعل الله تعالىٰ به، وهو توكل خاصة الخاصة[1]، إلا أن سهل التستري من أول درجات التوكل، فقال: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير[2].

وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلىٰ وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضي بحكمه[3].

رابعاً: ذم التشاؤم:

الشؤم ضد اليمن، وهذا مناف للتوكل علىٰ الله تعالىٰ، ويُطلق عليه التطير والطيرة، وفي لأصل التفاؤل بالطير، فإنهم يتفاءلون بأسمائها وأصواتها ومرورها ثم خص بالتشاؤم، وهو جعل الشيء علامة للشر.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٣٠ـ ٣١.

(٢) ينظر: القشيرية ص٢٩٨.

(٣) ينظر: القشيرية ص٢٩٨ـ ٣٠٢.

وذلك أنهم إذا خرجوا لحاجة، فإن رأوا الطير يمرُّ يمنة يتبركون به وإن يسرة يتشاءمون ويرجعون إلى بيوتهم وربما ينفرون الطيور، فإن أخذت جانب اليمين يتبركون أو جانب اليسار فيتركون.

ولكن الله تعالى يُذهب التطير بالتوكل، فالتوكل علاج للتَّطير(١).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة»(٤)، قد أعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن الفأل إنما هو أن يسمع الإنسان الكلمة الحسنة، فيفأل بها: أي يتبرك بها ويتأولها على المعنى الذي يطابق اسمها، وأن الطيرة بخلافها، وإنما أخذت من اسم الطير، وذلك أن العرب كانت تتشاءم ببروح الطير إذا كانوا في سفر أو مسير، فأبطل صلى الله عليه وسلم أن يكون لشيء منها تأثير في اجتلاب ضرر أو نفع، واستحب الفأل بالكلمة الحسنة يسمعها من ناحية حسن الظن بالله(٥).

---

(١) ينظر: بريقة محمودية٢: ٣٠٠.

(٢) في صحيح البخاري٧: ١٢٦.

(٣) في سنن ابن ماجة٢: ١١٧٠، وصحيح ابن حبان١٣: ١٣٩.

(٤) في صحيح البخاري٧: ١٣٥.

(٥) ينظر: معالم السنن٤: ٢٣٥.

وعن ابن عمر ﵄، قال ﷺ: «إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدار»[1]، أي الشؤم التشاؤم، والمعنى إذا وجد التشاؤم فإنما يوجد في هذه الثلاثة: الفرس في جموحها ونفورها أو عدم الغزو عليها، والمرأة إذا كانت سليطة اللسان أو غير قانعة، والدار إذا كانت ضيقة أو قريبة من جار سوء أو بعيدة عن المسجد[2].

المطلب الثاني: الرضا:

يعد الرضا من أرفع المقامات وأعلاها، قال الغزالي: «الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين»[3].

وقال الطوسي: «الرضا آخر المقامات، ثم يقتضي من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب، ومطالعة الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال»[4].

أولاً: معناه:

الرضا: تلقي المهالك بوجه ضاحك أو سرور يجده القلب عند حلول القضاء، أو ترك الاختيار على الله تعالى فيما دبَّر وأَمضى، أو شرح الصدر ورفع الإنكار لما يَردُ من الواحد القهار.

---

(١) في صحيح البخاري ٤: ٢٩.

(٢) ينظر: تعليق البغا على البخاري ٤: ٢٩.

(٣) ينظر: الإحياء ٤: ٣٤٣.

(٤) ينظر: اللمع ص٨٢ـ ٨٣.

والتسليم: ترك التدبير والاختيار بالسكون تحت مجاري الأقدار، فيرادف الرضا على الحد الأخير، والرضا أعظم منه على الأولين.

وقيل: الرضا يكون عند النزول، والتسليم قبل النزول، وهو التفويض بعينه(١).

قال الجنيد: الرضا رفع الاختيار.

وقال القناد: الرضا سكون القلب بمر القضاء(٢).

وقال أبو عمر الدمشقي: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقال ابن عطاء: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد، وهو ترك التسخط.

وقال رويم: الرضا استقبال الأحكام بالفرح.

وقال المحاسبي: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النوري: الرضا سرور القلب بمر القضاء(٣).

وقال الفضيل: إذا استوى عنده المنع والعطاء، فقد رضي عن الله تعالى(٤).

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٣١.

(٢) ينظر: اللمع ص٨٢ـ ٨٣.

(٣) ينظر: القشيرية ص٣٤١ـ ٣٤٤.

(٤) ينظر: الإحياء ٤: ٣٤٦ـ ٣٥٨.

فتحصل أن الرضا قبول منك بكلِّ يقع معك، فلا اعتراض فيه على أمر الله تعالى في حياتك واستسلام كامل لقضاء الله تعالى.

ثانياً: فضيلته:

فأي فضيلة للرضا أعظم من يُعلِّق الله تعالى رضاه برضى العبد بما قَدَّر الله تعالى له وقضى.

قال تعالى: {رضي الله عنهم ورضوا عنه} [المائدة: ١١٩]، ورضا العبد عن الله أن لا يَكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يَراه مؤتمراً لأمره، ومُنتهياً عن نَهيه[١].

وقال تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}، ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى.

وقال تعالى: {ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر}، فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: {إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}، فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة، بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض[٢]، وإنما

---

(١) ينظر: مفردات القرآن ص٣٥٦.

(٢) العَرَض: أي ما يملكه الإنسان من أشياء كالدور والأراضي والألبسة والسيارات.

الغنىٰ غنىٰ النفس»[١]، ولا يكون غنىٰ النفس إلا بالرضا بما قسم الله تعالىٰ.

ثالثاً: أنواعه:

بدايته بالرضا والتسليم بالصبر والمجاهدة، وهو للعامة.

ووسطهما بالسكون مع خواطر التبـرم والكراهية، وهو للخاصة.

ونهايتُهما بفرح وسكون مع عدم التبرم، وهو لخاصة الخاصة، ويغتفر الخاطر الأول عند الجميع لضعف البشرية؛ إذ لا يخلو منه بشر[٢].

قال أبو علي الدقاق: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء.

والواجب علىٰ العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به؛ إذ ليس كلّ ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين.

وقال النصراباذي: مَن أراد أن يبلغ محلَّ الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقال محمد بن خفيف: الرّضا علىٰ قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به مُدبَّراً، والرضا عنه فيما يقضىٰ[٣].

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٦٠٨١ وصحيح مسلم رقم ١٠٥١.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٣١.

(٣) ينظر: القشيرية ص٣٤١ـ٣٤٤.

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات فأهل خراسان قالوا: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، ومعناه أنه يئول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه، وأما العراقيون فإنهم قالوا: الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسبا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال، ويمكن الجمع بين اللسانين فيقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة(١).

قال السهروردي(٢): «مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع، ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع، وذلك مثل كراهة يجدها الراضي بحكم الطبع، لكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع، وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا، ولكن يفقد حال الرضاء؛ لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع، فيقال: كيف يكون صاحب مقام في الرضا، ولا يكون صاحب حال فيه، والحال مقدمة المقام.. والمقام أثبت؟ .

نقول: لأن المقام لما كان مشوباً بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع ، فحال الرضا أشرف ، ومقام الرضا أمكن».

---

(١) ينظر: القشيرية ص٣٤٢..

(٢) في عوارف المعارف ص٢٦٦.

رابعاً: ذم السَّخط والتَّضجر:

السَّخط: ذكر غير ما قضاه الله تعالى بأنه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن صلاحه وفساده.

والتضجر بما قضاه الله تعالى.

وضده الرضا، وهو الانقياد لأمر الله تعالى وترك الاعتراض فيما لا يلائم طبعه[1].

فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[2]: أي مع كثرة من كان يؤثر العلل والأسقام؛ وذلك أن العلل والأمراض كفارات لأهل الإيمان وعقوبات، يمحص الله بها عمن شاء منهم في الدنيا ليلقوه مطهرين من دنس الذنوب[3].

---

(١) ينظر:

(٢) في سنن الترمذي٤: ٦٠١، وحسنه، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٣٨.

(٣) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال٩: ٣٩١.

المبحث السابع
المراقبة والمحاسبة والمحبة

إن المراقبةَ من العبد لتصرّفاته بأن الله تعالىٰ مطلع عليها، ومحاسبته لنفسه المستمر علىٰ أقوال وأفعاله يوصل صاحبه للقُرب من المولىٰ سبحانه، قال الطوسي: «والمراقبة تقتضي حال القرب»(١).

والقرب ينفذُ لتحقُّق المحبّة الكاملة له تعالىٰ، قال الطوسي(٢): «وحال القرب يقتضي حال المحبة وحال الخوف».

وعدَّ الطوسيُّ المراقبة من أول الأحوال بعد المقامات السابقة، فقال(٣): «فأول حال من أحوال أرباب القلوب حال المراقبة».

المطلب: المراقبة والمحاسبة:

لا شك أن المرقبة والمحاسبة رتبة عظيم يوفق إليها مَن وُفق الله تعالىٰ بعد اجتهد وجَدّ في طريق الحقِّ طلباً لرضاه، فهي محققةٌ لرتبة الإحسان بأن

---

(١) ينظر: اللمع ص٨٤ـ ٨٥.

(٢) في اللمع ص٨٤ـ ٨٥.

(٣) في اللمع ص٨٢ـ ٨٣.

تكون بكلِّ أفعالك مشاهداً لله تعالى، فترى الله تعالى في كلِّ شيء، قال ابن عجيبة: «المراقبة أصل كل خير، وبقدرها تكون المشاهدة، فمن عظمت مراقبته عظمت بعد ذلك مشاهدته»(١).

وسيكون كلامنا في هذا المطلب عن معنى المراقبة والمحاسبة وفضيلتهما وأنواع المراقبة ومقامات المرابطة والقرب من الله تعالى في النقاط الآتية:

أولاً: معنى المراقبة والمحاسبة:

المراقبة: إدامة علم العبد باطلاع الرب، أو القيام بحقوق الله تعالى سراً وجهراً خالصاً من الأوهام، صادقاً في الاحترام(٢).

وحقيقة المراقبة: هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه(٣).

والمراقبة لعبد قد علم وتيقين أن الله تعالى مطلع على ما في قلبه وضميره وعالم بذلك، فهو يراقب الخواطر المذمومة المشغلة للقلب عن ذكر الله تعالى(٤).

والمحاسبة: وزن تصرفاته بميزان الشرع والتشديد على النفس بمخالفة الرب.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٣١.

(٢) ينظر: معراج التشوف ص٣١.

(٣) ينظر: الإحياء ٤: ٣٩٨.

(٤) ينظر: اللمع ص٨٤ـ ٨٥.

فالعاقل مَن حاسب نفسه قبل يوم الحساب وزجرها على فعل المنكرات حتى لا تعود إليها على البتات.

ثانياً: فضيلة المراقبة والمحاسبة:

لا تحصى النصوص الشرعية في الحثّ على المراقبة والمحاسبة من المؤمن في دنياه قبل أُخراه، ومنها:

قال تعالى: {وكان الله على كل شيء رقيبا} [الأحزاب: ٥٢]، فعلى المسلم أن يستحضر رقابة الله على أفعال طالما أنه رقيب جل وعلا.

قال تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}، فالله تعالى يزن الأعمال ولا يفوته شيء، علينا أن نزن أفعالنا حتى لا نقع في المهالك.

وقال تعالى {ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا}، ذكر الحساب يوم القيام من أجل أن نستعد له ونحاسب أنفسنا في الدنيا.

وقال تعالى: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد}، كل ما نفعل يعلمه الله تعالى ويحصيه علينا، فعلينا مراقبة أنفسنا في كل أفعالنا.

وقال تعالى: {يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، ما من عمل صغر أو كبر إلا في

علم، وسنحاسب عليه يوم القيامة، فعلينا بالمراقبة والمحاسبة لكل تصرف يصدر منا.

وقال تعالى: {ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}، كلُّ ما نكسب بجوارحنا سنحاسب عليه بلا ظلم لأحد، فاين الاستعداد لذلك.

وقال تعالى: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه}، كل أعمالنا ستحضر ونحاسب عليها ونندم عليها ندماً شديد، وهذه الإخبار من الله تعالى؛ لنحذر من ذلك في الدنيا بالمراقبة والمحاسبة لسلوكنا.

وقال تعالى: {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}، علم الله تعالى وسع كلِّ شيءٍ حتى علم ما نخططه ونريد فعله قبل يفعل، فعلينا أن نفكر في الخير لا في الشر قبل أن نقع فيما حذَّر منه المولى سبحانه.

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، هذا مرتبة الإحسان التي يكون العبد فيها في كلِّ لحظاته تحت مستعشراً رقابة الله تعالى.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عز وجل لا غير.

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٥٠، وصحيح مسلم رقم ٩.

وقال النصرأباذي: الرجاء يحركك إلىٰ الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلىٰ طرق الحقائق(١).

ثالثاً: أنواع المراقبة:

ويعنىٰ بهذه المراقبة حالة للقلب يُثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة: فهي مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه وملاحظته إياه، وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة، فهو العلم بأن الله تعالىٰ مطلع علىٰ الضمائر عالم بالسرائر رقيب علىٰ أعمال العباد قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأن سرّ القلب في حقِّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدُّ من ذلك.

فهذه المعرفةُ إذا صارت يَقيناً أَعني أنها خلت عن الشكِّ، ثم استولت بعد ذلك علىٰ القلب قهرته، فربَّ علم لا شَكَّ فيه لا يغلب علىٰ القلب: كالعلم بالموت، فإذا استولت علىٰ القلب استجرت القلب إلىٰ مراعاة جانب الرقيب، وصرفت همّه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلىٰ الصديقين، وإلىٰ أصحاب اليمين، فمراقبتهم علىٰ درجتين:

---

(١) ينظر: القشيرية ص٣٣١.

أ.مراقبة المقربين من الصديقين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها، فإنها مقصورة على القلب.

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد.

فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همُّه هماً واحداً، فكفاه الله سائر الهموم، ومَن نال هذه الدرجة، فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده، وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به.

ب.مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة.

نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كلِّ ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله تعالى في الدنيا مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته.

وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران، نظر قبل العمل، ونظر في العمل، أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة، أو هو في هوىٰ النفس ومتابعة الشيطان، فيتوقف فيه، ويتثبت حتىٰ ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالىٰ أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه، ثم لام نفسه علىٰ رغبته فيه، وهمِّه به وميلُه إليه، وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته[1].

قال ابن عجيبة[2]: «مراقبة أهل الظاهر حفظ الجوارح من الهفوات، ومراقبة أهل الباطن: حفظ القلوب من الاسترسال مع الخواطر والغفلات، ومراقبة أهل باطن الباطن حفظ السرِّ من المساكنة إلىٰ غير الله تعالىٰ».

رابعاً: مقامات المرابطة:

عرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالىٰ لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات،

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٤٠٠.

(٢) في معراج التشوف ص٣١.

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله تعالى، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا}، فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة.

فكانت لهم في المرابطة ست مقامات:

١.المشارطة:

إن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال، حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطالبة وربحه تزكية النفس؛ لأن بذلك فلاحها، قال تعالى: {قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة؛ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح، فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويُعاقبه أو يعاتبه رابعاً، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً، فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها

الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة، وتضييع رأس المال.

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلىٰ وبلوغ سدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء.

فحتم علىٰ كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يُمكن أن يشترىٰ بها كنز من الكنوز لا يتناهىٰ نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلىٰ ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فإذا أَصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس.

فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله تعالىٰ فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنىٰ أن يرجعني إلىٰ الدنيا يوماً واحداً حتىٰ أعمل فيه صالحا.

فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه ينشر للعبد بكلِّ يوم

وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها نتنها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصي فيها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير.

والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق، وإن كان دون ألم النار.

فيشرط على نفسه المنع من الشهوات واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على

نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنىٰ عن المشارطة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلىٰ تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد.

فعليه أن يشترط علىٰ نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها، فإن النفس بالطبع متمردةٌ عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، {وذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين}.

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قبله للتحذير قال تعالىٰ: {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}.

قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر[1].

٢.المراقبة:

إذا أوصىٰ الإنسان نفسَه وشرط عليها ما ذكرناه، فلا يَبقىٰ إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظاتها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت[2].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣٩٦.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٣٩٦.

٣.محاسبة النفس بعد العمل:

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد}، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال.

وقال تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون}، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه.

وقال تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}.

وقال ميمون ابن مهران: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه.

وإن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يُطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسَه فيما يتعلَّق به خطر الشَّقاوة والسَّعادة أبد الآباد.

ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك(١).

٤. معاقبة النفس على تقصيرها:

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفه معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامها، وكان ذلك بسبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس، ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى محرم، ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة(٢).

٥. المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط.

ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة، فتلاحظ أقواله وتقتدي به، وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٠٥.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٤٠٦.

فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع، والى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً، إلا أن هذا العلاج قد تعذر اذ قد فقد في هذا الزمان مَن يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة الى السماع، فلا شيء انفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم، وما أشد حسرة مَن لا يقتدى بهم، فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كلِّ ما يشتهيه أبد الآباد، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا في علة الموت[1].

٦. توبيخ النفس ومعاتبتها:

إن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلِقت أَمارةً بالسُّوء ميالةً إلى الشرِّ، فرارةً من الخير، وأُمرت بتزكيتها وتقويمها، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أَهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة، كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٠٩.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

قال تعالىٰ: {وذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين}، وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلىٰ الحمق، فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً.

أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلىٰ إحداهما علىٰ القرب، فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً، ويراه الله قريباً.

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، أما تعلمين أن الموت يأتىٰ بغتة من غير تقديم رسول، ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتىٰ في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتىٰ في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة، فيكون المرض فجأة، ثم يفضىٰ إلىٰ الموت فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كل قريب(١).

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٤١٧.

خامساً: القرب من الله تعالى:

لما كانت حال المراقبة والمحاسبة موصلةٌ للقُرب من الله تعالى، كان من المناسب أن تذكر في نهاية هذا المطلب قبل البد بمطلب المحبة، قال الطوسي(١): «حال القرب لعبد شاهد بقلبه قرب الله تعالى منه، فتقرب إلى الله تعالى بطاعته، وجميع همه بين يدي الله تعالى بدوام ذكره في علانيته وسرّه».

والقرب: كناية عن قرب العبد من ربه بطاعته وتوفيقه، وهو على ثلاث مراتب: قرب بالطاعات وترك المخالفات، وقرب بالرياضات والمجاهدات، وقرب بالوصول والمشاهدات.

فقرب الطالبين بالطاعات، وقرب المريدين بالمجاهدات وقرب الواصلين بالمشاهدات.

فأول البعد، البعد عن التوفيق، ثم البعد عن سلوك الطريق، ثم البعد عن التحقيق.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن

---

(١) في اللمع ص٨٤ـ ٨٥.

سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

فقرب العبد من ربه انحياشه إليه بقلبه، وقربُ الحقّ من عبده تغيبه عن وجوده الوهمي، وكشف الحجاب عن عين بصيرته حتى يرى الحق أقرب إليه من كلِّ شيء، ثمّ يغيب القرب في القرب، فيتَّحد القريب والمقرَّب، والمحبّ والحبيب[٢].

المطلب الثاني: المحبة:

إن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام، إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها: كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات.

والأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض[٣].

قال الغزالي :«المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء، هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة، وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في

---

(١) في صحيح البخاري١ : ٢٩.
(٢) ينظر: معراج التشوق ص٦٩ـ ٧٠.
(٣) ينظر: الإحياء٤: ٢٩٤.

الدنيا وفي المال والجاه، وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه، فكل ذلك مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة»[1].

أولاً: معناها:

المحبة: ميل دائم بقلب هائم.

ويظهر هذا الميل أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة، وهو مقام الأبرار، وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية، وهو مقام السالكين، وثالثاً على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين، من شهود المحبوب، وهو مقام العارفين[2].

وسائر المقامات إن عز وجودها، فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأمّا محبّةُ الله تعالى فقد عزّ الإيمان بها حتى أَنكر بعضُ العلماء إمكانها وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى[3].

فتحصل أن المحبة التعلق الكامل للقلب بالله تعالى بحيث تجرد وخلى عمن سواه، فصار منصرفاً في كل وقت لخدمته والقيام على أمره.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣١٦.

(٢)ينظر: معراج التشوف ص٣٢.

(٣) ينظر: الإحياء٤: ٢٩٤.

ثانياً: فضيلتها:

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فكلما زاد الإيمان بالله تعالى زادت محبته والتعلق به سبحانه.

فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١)، وفي رواية: «من أهله وماله والناس أجمعين»(٢)، فكمال الإيمان بكمال المحبة التي تفوق سائر المحبوبات.

وعن عمر رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يُضحِك رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب فأُتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوَالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»(٣)، فمحبة الله ورسوله جالبة للرحمة والخير، ووجودها في القلب نجاة لصاحبها.

وعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي

---

(١) في صحيح البخاري رقم ١٥، وصحيح مسلم رقم ٤٤.

(٢) في صحيح مسلم رقم ٤٤.

(٣) في صحيح البخاري رقم ٦٣٩٨.

ﷺ: الآن يا عمر»[١]، تعليم من النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه بزيادته محبتة لله ورسوله ﷺ، وتعليم لنا كذلك بالسعي في طرق زيادة المحبة لله ورسوله ﷺ والاستحضار لذلك في حياتنا.

ثالثاً: أنواعها:

إن بداية المحبة ظهور أثر بالخدمة، ووسطها ظهور أثرها بالشكر والهيام، ونهايتها ظهوره بالسكون والصحو في مقام العرفان.

فلهذا انقسم الناس على ثلاث مراتب: أرباب الخدمة، وأرباب الأحوال، وأرباب المقامات، فبدايتها سلوك وخدمة، ووسطها جذب وفناء، ونهايتها صحو وبقاء[٢].

قال الطوسي[٣]: «حال المحبة لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله تعالى له، فأحب الله تعالى».

---

(١) في صحيح البخاري رقم ٦٢٥٧.

(٢) ينظر: معراج التشوف ص٣٢.

(٣) في اللمع ص٨٦.

رابعاً: محبة الله تعالى للعبد:

محبة الله تعالى للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وإن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده، فلا بد من معرفة مع معنى ذلك ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال تعالى: {يحبهم ويحبونه}، وقال تعالى: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا}، وقال تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}.

فعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب»[١]، ففيه دلالة على محبة الله تعالى للصالحين من عباده، ولا تشمل المحبة الكل.

وعن أبي سعيد ﵁، قال ﷺ: «مَن تواضع لله تعالى رفعه الله تعالى، ومَن تكبر وضعه الله تعالى، ومَن أكثر من ذكر الله تعالى أحبه الله تعالى»[٢]، فيه بيان لأسباب محبة الله لعبيده بالتواضع وكثرة الذكر له سبحانه.

وفعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[٣]، فالقرب والإكثار منها سبب في محبة الله لعبده.

---

(١) أخرجه الحاكم وصحح إسناده، كما في المغني ٤ : ٣٢٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن، كما في المغني ٤ : ٣٢٧.

(٣) أخرجه البخاري، كما في المغني ٤ : ٣٢٧.

قال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيك.

وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة، فقال: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه، قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة، فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه[1].

خامساً: علامات محبة العبد لله تعالى:

محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه، فاقد له، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به[2].

وإن المحبة يدعيها كلُّ أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة، والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار، وهي كثيرة.

١.حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣٢٩.

(٢) ينظر: الإحياء٤: ٣٢٩.

للموت غير فار منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه؛ ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المشاهدة.

٢. أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره، وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله تعالى: حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله ﷺ وحب كل من ينسب إليه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله تعالى، وإن لم يكن يحب القرآن، فليس يحب الله تعالى.

وقال سهل: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حبّ النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حبّ الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغة إلى الآخرة.

٣. أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصحّ محبته.

فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة به، وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة، ويعوق عن لذة

المناجاة، وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه.

٤. **أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحيماً بهم شديداً على جميع أعداء الله**، وعلى كلِّ مَن يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى: {أشداء على الكفار رحماء بينهم}، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياءه.

٥. **أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم**، وقد يظن أن الخوف يضادُّ الحبّ، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب.

٦. **كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه**، وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حدّ المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا.

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، وما لا يثمره الحب فهو إتباع الهوى، وهو من رذائل الأخلاق[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٣٢٩ـ٣٣٨.

سادساً: الشوق:

لما كانت المحبة مقرونة بالرجاء والخوف، قال ذو النون: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه(١).

فإنهم يقتضون الشوق، قال الطوسي: «والرجاء والخوف يقتضيان الشوق»(٢)، وهذا داخل في قوله تعالى: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت} [العنكبوت: ٥].

والشوق: اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب وعلى قدر المحبة يكون الشوق(٣)، أو انزعاج القلب إلى لقاء الحبيب.

والاشتياق: ارتياح القلب إلى دوام الاتصال به، فالشوق يزول برؤية الحبيب ولقائه، والاشتياق لا يزول أبداً لطلب الروح الزيادة في كشف الأسرار والقرب إلى الأبد(٤).

قال أبو علي الدقاق: يفرق بين الشوق والاشتياق، ويقول: الشوق يسكن باللقاء والرؤية والاشتياق لا يزول باللقاء.

وقال يحيي بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

---

(١) ينظر: عوارف المعارف ص٢٩٠.

(٢) ينظر: اللمع ص٩١-٩٢.

(٣) ينظر: القشيرية ص٤٩٦.

(٤) ينظر: معراج التشوف ص٣٦.

وقال ابن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء والقرب.

وقال أبو يزيد: إن لله عبادا لو حجبهم في الجنة عن رؤية لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار[١].

فشوق العامة إلى زخارف جنانه، وشوق الخاصة إلى نيل رضوانه، وشوق خاصة الخاصة إلى حضرة عيانه[٢].

سابعاً: حال الأنس:

فكما أن المحبة تقتضي الشوق، فالشوق يوصل إلى الأنس بالمحبوب، قال الطوسي[٣]: «والشَّوقُ يقتضي الأنس».

ومعنى الأنس بالله تعالى الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به، ولا يتهيأ أن يُعبَّرَ عنه بأكثر من هذا.

والأنس بالله تعالى لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله تعالى به.

وقال الشّبلي: الأنسُ وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون[٤].

---

(١) ينظر: القشيرية ص٤٩٦ـ ٤٩٩.

(٢) ينظر: معراج التشوف ص٣٦.

(٣) في اللمع ص٩١ـ ٩٢.

(٤) ينظر: اللمع ص٩٦ـ ٩٧.

وقال السّباع الموصليّ: الزهد يفضي إلى الأنس بالله تعالى.

وقال عثمان بن عمارة: كان يُقال: الورعُ يَبلغ بالعبد إلى الزُّهد، والزُّهد يُبلغ به حبَّ الله تعالى، فهذان الحالان غاية الطالبين الحبّ للجليل والأنس باللطيف، فمَن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحبّ ولم يدرك حال الأنس، ثم إن سرائر الغيوب في مقام الحبّ والخلّة، وفي حال الأنس والقربة[1].

ثامناً: حال الطمأنينة:

لما كانت المحبة مفضيةٌ إلى الشوق، والشوق محقِّقٌ للأنس بالله تعالى، فإن الأنسَ يحقِّقُ الطَّمأنينة، قال الطوسي[2]: «والأنسُ بالله تعالى اقتضى الطَّمأنينة».

فالطمأنينة: سكون القلب إلى الله تعالى عارياً عن التقلب والاضطراب ثقة بضمانه واكتفاء بعلمه، أو رسوخاً في معرفته[3].

فهي حال رفيع، وهي لعبد رجح عقله وقوي إيمانه ورسخ علمه وصفا ذكره وثبتت حقيقته[4].

وتكون من وراء الحجاب بتواتر الأدلة واستعمال الفكرة، وهذا للعلماء، أو بتوالي الطاعة ومجاهدة الرياضة، وتكون بعد زوال الحجاب

---

(١) ينظر: قوت القلوب ١: ٤٤٩.

(٢) في اللمع ص٩٦ـ ٩٧.

(٣) ينظر: معراج التشوف ص٣٥.

(٤) ينظر: اللمع ص٩٨ـ ٩٩.

بتمكن النظرة ورسوخ المعرفة، فقوم اطمأنوا بوجود الله تعالى من طريق البرهان أو البيان، وهم العباد والزهاد والصالحون، وقوم اطمأنوا بشهود الله تعالى بعد ظهوره من طريق العيـان، وهم العارفون المقربون[1].

قال سهل التستري: إذا سَكَن قلبُ العبد إلى مولاه واطمأنَّ إليه قويت حال العبد، فإذا قويت أَنس بالعبد كلُّ شيءٍ.

تاسعاً: حال المشاهدة:

لما اطمأنت القلوب بالله تعالى بعد أن أَنست به، فإنها لا تقدر على مفارقته بحيث تَراه في كلِّ موجود، فلم يعد يرى سوى خالقه وبارئه في كلِّ ما حوله؛ لأنها جميعاً شواهد حقٍّ على وجوده سبحانه وتعالى، قال الطوسي[2]: «والطمأنينة تقضي حال المشاهدة».

فالمشاهدة: وصل بين رؤية القلب ورؤية العيان؛ لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم، كما قال عمرو بن عثمان[3].

والمشاهدة رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة، فترجع إلى تكثيف اللطيف، فإذا ترقى الوداد، ورجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهي المعاينة، فترجع إلى تلطيف الكثيف، فالمعاينة أرق من المشاهدة وأتم.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٣٥.

(٢) في اللمع ص٩٨ـ٩٩.

(٣) ينظر: اللمع ص١٠٠ـ١٠٢.

والحاصل أن شهود الذات لا يمكن إلا بواسطة تكثيف أسرارها اللطيفة في مظاهر التجليات؛ إذ لا يمكن إدراك اللطيف ما دام لطيفاً، فرؤية التجليات كثيفة المشاهدة، وردها إلى أصلها بانطباق بحر الأحدية عليها معاينة، وقيل: هما سواء[١].

وقال القشيري: المحاضرة ابتداء ثم المكاشفة ثم المشاهدة، فالمحاضرة حضور القلب، وقد يكون بتواتر البرهان، وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر.

ثم بعده المكاشفة، وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ولا مستجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب.

ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة، فإذا أصحت سماء السرّ عن غيوم الستر، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف، وحق المشاهدة ما قاله الجنيد: وجود الحق مع فقدانك.

فصاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقي بذاته.

وصاحب المحاضرة يهديه عقله.

وصاحب المكاشفة يدنيه علمه.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٣٣.

وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته، ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي.

ومعني ما قاله: أنه تتوالى أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق، فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متع نهاره فلا ليل[1].

والمشاهدة حال رفيع وهي من لواقح زيادات حقائق اليقين، وتقتضي حال اليقين[2].

وهذا الحالة من بقاء الشهود واستمراره لا بُدّ أن يُحافظ عليها صاحبها؛ لأنها من أعلى المراتب والدرجات، قال الغزالي[3]: «دوام الشهود غاية المقامات».

عاشراً: حال اليقين:

إن مدار المقامات والأحوال على تحقيق اليقين الكامل بالله تعالى، وكل المجاهدات والمشاهدات تسعى لتحقيقه؛ لأنه الفارق الأساسي في الخروج من الدنيا والإقبال على الله تعالى؛ لتحقق اليقين البات بذلك، فتصبح حقيقة الله تعالى والآخرة هي المسعى التام في كلِّ تصرّفاته، فكلَّما اكتمل بدر اليقين

---

(١) ينظر: القشيرية ص١٨٤.

(٢) ينظر: اللمع ص١٠٠ـ ١٠٢.

(٣) في الإحياء ٤: ١٥٥.

لوحظ أثره في حسن التوجه والانصراف لحقيقته، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤].

قال الطوسي(١): «واليقين أصل جميع الأحوال، وإليه تنتهي جميع الأحوال، وهو آخر الأحوال، وباطن جميع الأحوال، وجميع الأحوال ظاهر اليقين، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، ونهاية اليقين الاستبشار وحلاوة المناجاة، وصفاء النظر إلىٰ الله تعالىٰ، بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بإزالة العلل ومعارضة التهم».

فاليـقين: وهو سكون القلب إلىٰ الله تعالىٰ بعلم لا يتغير ولا يتحول، ولا يتقلب ولا يزول عند هيجان المحركات، أو ارتفاع الريب في مشاهدة الغيب.

وعلامته ثلاث:

١. رفع الهمة عن الخلق عند الحاجة.

٢. ترك المدح لهم في العطية.

٣. التنزه عن ذمهم عند المنعة.

فيقين العامة بتوحيد أفعاله، فسكنوا إليه في المنع والعطاء، ويقين الخاصة بتوحيد صفاته، فرأوا الخلق موتىٰ ليس بيدهم حركة ولا سكون،

---

(١) في اللمع ص ١٠٣ـ ١٠٤.

ويقين خاصة الخاصة بتوحيد ذاته، فشهدوه في كل شيء، وعرفوه عند كل شيء، ولم يشهدوا معه شيئاً[١].

قال الجنيد: اليقين ارتفاع الشك.

وقال أبو يعقوب: إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله تعالى له فقد تكامل فيه اليقين[٢].

وقال سهل التستري: اليقين من زيادة الإيمان ومن تحقيقه.

وقال أيضاً: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى.

وقال ذو النون المصري: اليقين داع إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرارُ العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب.

وقال ابن عطاء: على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين.

وأصل التقوى مباينة النهي، ومباينة النهى مباينة النفس، فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين.

---

(١) ينظر: معراج التشوف ص٤٢ـ ٤٣.

(٢) ينظر: اللمع ص١٠٣ـ ١٠٤.

وقال النهرجوري: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء مصيبة[١].

وعلم اليقين: ما كان ناشئاً عن البرهان.

وعين اليقين: ما نشأ عن الكشف.

وحق اليقين: ما نشأ عن الشهود والعيان.

فعلم اليقين لأرباب العقول من أهل الإيمان، وعين اليقين لأرباب الوجدان من أهل الاستشراف على العيان، وحقُّ اليقين لأهل الرسوخ والتمكين في مقام الإحسان.

ومثال من ذلك: كمن سمع بمكة مثلاً ولم يرها، فعنده علم اليقين بوجودها، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها، فعنده عين اليقين، فإذا دخلها وعرف طرفها وأماكنها، فهذا عنده حقُّ اليقين.

وكذلك الناس في معرفة الحق تعالى متفاوتون، فأهل الحجاب استدلوا حتى حصل لهم العلم اليقيني بوجود الحق، وأهل السير من المريدين المستشرفين على الذات حصل لهم عين اليقين حين أشرقت عليهم أنوار المعاني وغابت عليهم، غير أنهم باقون في دهشة الفناء، لم يتمكنوا من دوام شهود الحقّ، فإذا تمكنوا من دوام شهوده ورسخت أقدامهم في معرفته حصل

---

(١) ينظر: القشيرية ص٣١٨ـ ٣٢١.

لهم حق اليقين، وهذه نهاية النعمة وغاية السعادة، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه[1].

❧❧❧

(١) ينظر: معراج التشوف ص٤٣.

المراجع:

١. إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٢. الاختيار لتعليل المختار: لعبد الله بن محمود الموصلي (ت٦٨٣هـ)، تحقيق: زهير عثمان، دار الأرقم.
٣. الأدب الصغير: لعبد الله بن المقفع (ت١٤٢هـ)، دار ابن القيم بالإسكندرية.
٤. الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.
٥. إصلاح المال؛ لعبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، محمد عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
٦. بريقة محمدية: للبركلي، مطبعة الحلبي، ١٣٤٨هـ مع البريقة المحمودية.
٧. بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية: لأبي سعيد الخادمي، مطبعة الحلبي، ١٣٤٨هـ
٨. التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر ابن عاشور، طبعة مصر.
٩. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (١٢٨٣-١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠. تحفة الملوك: لمحمد بن أبي بكر الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٩٩٧م، وأيضاً: بتحقيق: الدكتور صلاح أبو الحاج، دار الفاروق، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.
١١. التزكية على منهاج النبوة للدكتور معاذ سعيد حوى، دار النور، عمان.
١٢. تعليق البغا على صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٣. تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٤. تفسير النسفي: لأبي البركات عبد الله بن أحمد النَّسَفِي حافظ الدين (ت٧٠١هـ)، بدون دار نشر وتاريخ نشر.
١٥. تنبيه الغافلين: لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، المطبعة الميمنية، مصر، ١٣٠٧هـ.
١٦. التيسير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، (ت١٠٣١هـ)، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ.
١٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نُعَيْم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، وأيضاً: طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.
١٨. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: لمحمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت١٠٥٧هـ)، ت: خليل مأمون، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ.
١٩. الذريعة إلى مكارم الشريعة: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ)، د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢٠. الرسالة القشيرية: لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ)، ت: عبد الحليم محمود، ود.محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.
٢١. الزهد: لعبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الله الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢. الزواجر عن اقتراف الكبائر: لأحمد بن علي بن حجر المكي الهيتمي الشافعي (٩٠٩-٩٧٤هـ)، دار الفكر.
٢٣. سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٠٧-٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٤. سنن أبي داود: لسليمان بن أشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

٢٥. سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦. سنن النَّسَائيّ الكبرى: لأحمد بن شعيب النَّسَائِي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الغفار البنداوي وسيد كسروي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٢٧. شرح صحيح مسلم : ليحيى بن شرف النَّوَوِيّ الشَّافِعِيّ(ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢.

٢٨. شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٩. صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان: لمحمد بن حِبَّان التميمي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٣٠. صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (ت٣١١هـ)، تحقيق: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

٣١. صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البُخَارِيّ (١٩٤-٢٥٦هـ)، ت: د.مصطفى البغا، دار ابن كثير واليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٢. صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ النَّيْسَابوريّ (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٣. عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد: لأحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بابن السُّنِّي (٣٦٤هـ)، ت: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، جدة، بيروت.

٣٤. عوارف العوارف: لشهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي، (٥٣٩ـ٦٣٢هـ)، ت: د.عبد الحليم محمود وآخرون، دار المعارف، مصر.

٣٥. الفتاوي الهندية: للشيخ نظام الدين البرهانفوري، والقاضي محمد حسين الجونفوري، والشيخ علي أكبر الحسيني، والشيخ حامد بن أبي الحامد الجونفوري، وغيرهم، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٠هـ.
٣٦. فتح الباري شرح صحيح البُخَاري: لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حَجَر العَسْقَلانِي (٧٧٣-٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٣٧. الفردوس بمأثور الخطاب: لشيرويه بن شهردار الديلمي (٤٤٥-٥٠٩)، تحقيق: سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
٣٨. اللمع: لأبي نصر الطوسي، (ت١٢٢٤هـ)، ت: د. عبد الحليم محمود وآخرون، دار الكتب الحديث بمصر، ١٣٨٠هـ.
٣٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ، ودار الكتاب العربي، بيروت.
٤٠. مجموعة رسائل الإمام الغزالي: لمحمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ.
٤١. المستخلص في تزكية الأنفس: لسعيد حوىٰ، دار السلام، مصر.
٤٢. المستدرك علىٰ الصحيحين: لمحمد بن عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٤٣. مسند أبي داود الطيالسي: لسليمان بن داود (ت٢٠٤هـ)، دار المعرفة، بيروت.
٤٤. مسند أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر.
٤٥. مسند البَزَّار (البحر الزخار): لأبي بكر أحمد بن عمرو البَزَّار (٢١٥-٢٩٢هـ)، تحقيق: الدكتور محفوظ الرحمن، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

٤٦. مسند البَزَّار (البحر الزخار): لأبي بكر أحمد بن عمرو البَزَّار (٢١٥-٢٩٢هـ)، تحقيق: الدكتور محفوظ الرحمن، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
٤٧. مسند الشهاب: لأبي عبد الله محمد بن سلامة القُضَاعي (ت٤٥٤هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٤٨. المصنف في الأحاديث والآثار: لعبد الله بن محمد بن أبي شَيْبَةَ (١٥٩-٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال الحوت، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.
٤٩. معالم السنن (شرح سنن أبي داود): لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بـ(الخطابي)(ت٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
٥٠. المعجم الأوسط: للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٥١. معراج التشوف إلى حقائق التصوف: لعبد الله أحمد بن عجيبة (ت١٢٢٤هـ)، ت: د.عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.
٥٢. المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: لعبد الرحمن بن الحسين العراقي زين الدين (ت٨٠٦هـ)، دار إحياء الكتب العربية، بهامش الإحياء.
٥٣. المفردات في غريب القرآن: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (ت٥٠٢هـ)، ت: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١ ،١٤١٢ هـ.
٥٤. مكارم الأخلاق: لعبد الله بن محمد القرشي (٢٠٨-٢٨١هـ)، تحقيق: مجدي السيد، مكتبة دار القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ.
٥٥. المنقذ من الضلال: لمحمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، ت: الدكتور عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر .

٥٦. موسوعة الأخلاق الإسلامية: إشراف عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت.
٥٧. موطأ مالك: لمالك بن أنس الأصبحي (٩٣-١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.
٥٨. ميزان العمل: لمحمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، ت: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٤ هـ.
٥٩. هدية الصعلوك شرح تحفة الملوك: لمحرم بن محمد الزيلي، ايدنمشدر، ١٢٩٥هـ.
٦٠. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعلي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

فهرس الموضوعات: